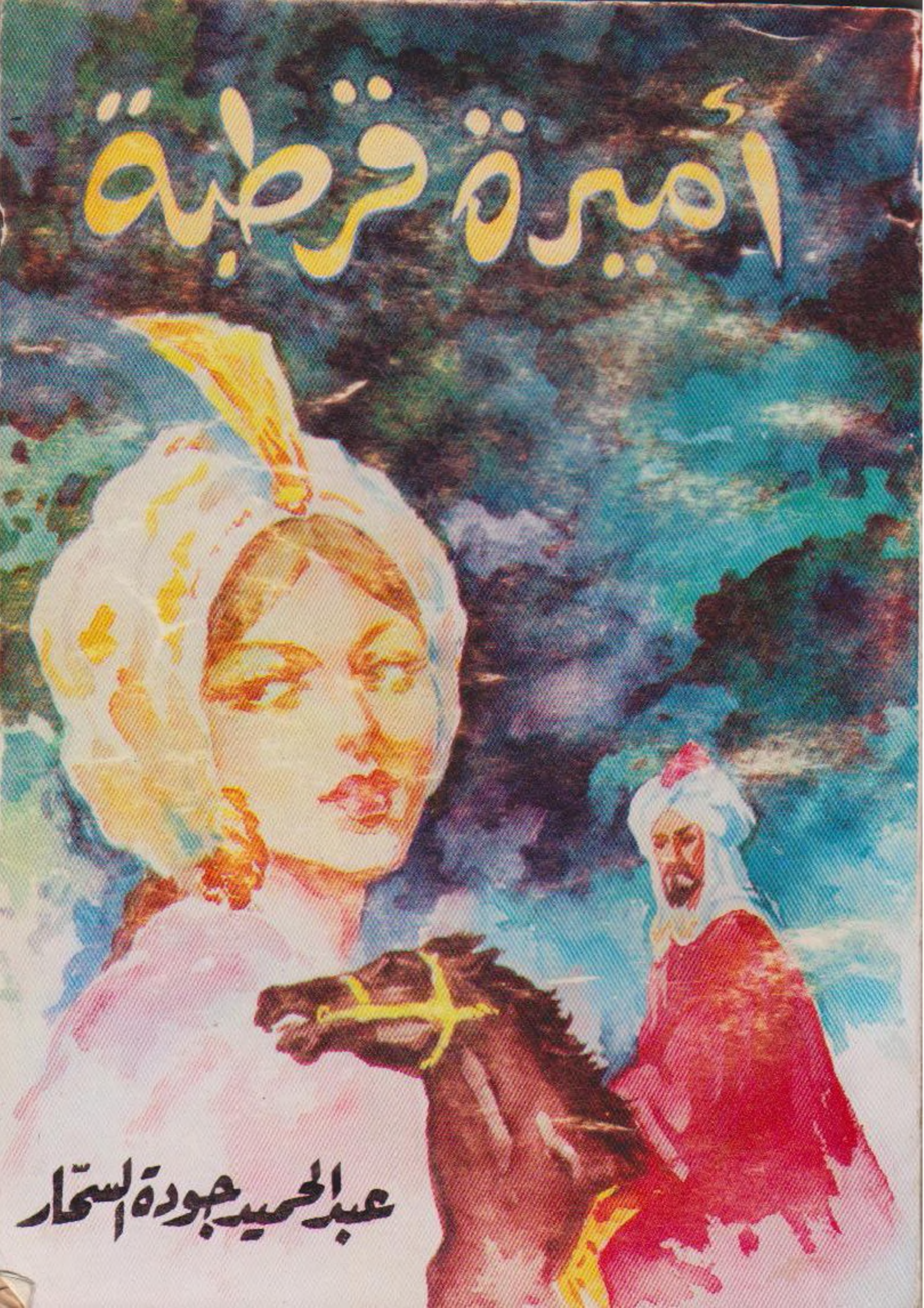
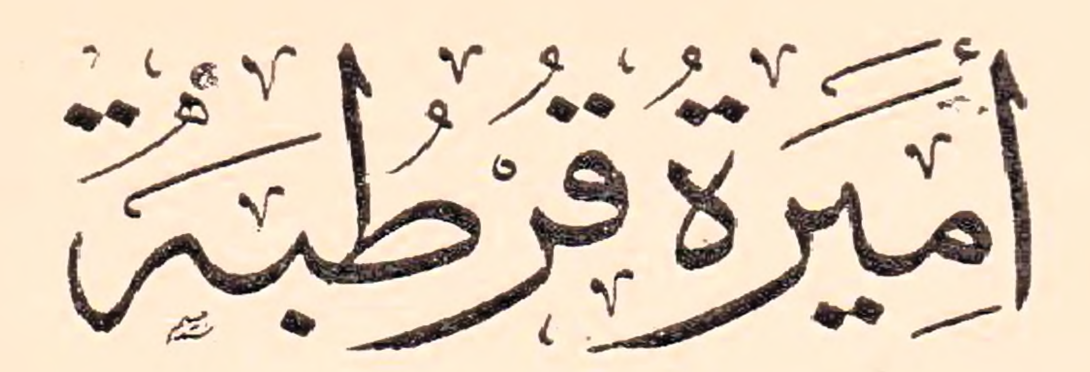

أميرة قرطبة
عبد الحميد جودة السحار

١٩٨٢/١/٢٤

مطبوعات مكتبة مصر




تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

## ١

كانت قرطبة تموج بالناس موجا ، يتدافعون تدافع السيل الى ميدان قصر الزهراء ، فقد أقبلوا من كل حدب وصوب يبايعون الحكم المستنصر بالله خليفة على الأندلس ، بعد موت أبيه عبد الرحمن الناصر الذى وطد دعائم الملك على المحبة والعدل ٠

وتدفقت جموع الناس فى طرقات القصر ، يرتدون البياض حزنا على خليفتهم الراحل العظيم ، اذ كانوا يتخذون البياض للحداد ، كأنما استعاروا ذلك من اشتعال الرأس شيبا حزنا على فقد الشباب ٠

وراحت الجماهير تنساب بين صفوف الجند والعبيد والرماة ، وكانوا يصطفون موكبا اثر موكب ، حتى اذا بلغوا القصر الهائل العجيب ، راحوا يشقون طريقهم وسط آلاف الجنود الرجالة والرماة والفتيان الأشداء ، عليهم دروعهم ، شاهرين سيوفهم ، تتألق ببريق يخطف الأبصار ، ويسكن الرهبة فى القلوب ٠

انطلقت الجماهير فى القصر بين التراس الملونة ، والأسلحة المزينة ، حتى أشرفوا على السطح الممرد فجنحوا الى الصمت ، ومدوا أبصارهم تغشاهم روعة وجلال ؛ فقد كان الحكم قاعدا على سرير الملك وقورا مهيبا ، وقد قعد اخوته ووزراؤه ووجوه قومه عن يمينه وشماله ، واصطف أكابر الفتيان يمينا وشمالا عليهم البرانس البيض يتقلدون فوقها السيوف ؛ فكان مشهدا رائعا فريدا يهز القلوب ويأخذ بالألباب ٠

وقام وزير من وزرائه يأخذ البيعة على النـــاس ، فجعل يقرأ البيعة فى صوت جهورى أخاذ ، والنـــاس ينصـــتون خاشعين ، ثم طفق يقـــرأ المواثيق والناس يرددون ما يقول فى حرارة ، فقد كانوا يبايعـــون عن رضا واخلاص ، فهم أحبوا الحكم يوم كان وليا للعهد ، وعرفوه فارسا صنديدا ، قاتل الافرنج حتى دوخهم وأذلهم ، ومرغ أنوفهم فى الرغام ٠

وصمت الوزير وصمت الناس ، فساد المكان سكون رهيب ، وأذن للنـــاس بالانصراف ، فانطلق ســـيلهم الجارف يتدفق من أبواب القصر ، وينساب فى مسارب قرطبة العظيمة ، عروس الأندلس وحاضرة البلاد ٠

ثم قام الحكم ، فنهض اخوته ووزراؤه وقضـــاته وقواده ووجوه النـــاس ، وســـار حيث كان جثمـــان الناصر ، وهم خلفه خاشعون ، ووقفوا ينظرون الى الخليفـــة الراحل وهو مدرج فى أكفانه ، فسرت فى قلوبهم رهبة ، وطأطئوا رءوسهم حسرة ، ثم احتمل جســـد عبد الرحمن ، وتحركت الجنـــازة فى جلال ، وانطلق الجميع مقطبين الى قصر قرطبة ، ليقبروا فى تربة الخلفاء الراحل العظيم ٠

## ٢

كان الجو رائقا لطيفا ، يعبق بأريج حلو ينبعث من حدائق قصر الزهراء ، وميدان القصر الفسيح منسقا تنسيقا بديعا يأخذ بالألباب ، وطلاب العـلم يقطعونه فى غدوهم ورواحهم الى جامع قرطبة العظيم ، فخر الأندلس وباعث نهضتها .

وجلس محمد بن أبى عامر فى حانوت صغير تجاه القصر ، وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، يحرر للنـاس شكاواهم ، وينمق لهم مظالمهم ، وكان جميل الصورة ، حلو التقاطيع ذا شخصية جذابة ، يأسر النـاس بلطفه ، ويكسب ثقتهم من أول وهلة . وكان أسلافه من قبيلة بنى معاذ التى أبلت مع طارق ابن زياد فى فتح الأندلس أحسـن بلاء ، وشـب فى قرطبة وتعلم فى جامعتها . فكان كلما مر بقصر الزهراء تطلع اليـه مأخوذا ، وشرد فكره وهام فى متـايه الخيال . كان صـاحب أطماع بعيـدة ، لا يقف فى تحليقه عند حد ، وكانت أفكاره تتجدد وتتـدفق كلما وقع بصره على القصر ؛ اذ تعـلقت بالقصر آماله ، وهفت اليه نفسه .

كانت أمنيتـه الكبرى أن يلج باب القصر ، وكان يقول فى نفسـه ان اجتياز وصـيد القصر انما هو العقبة الكأداء التى تعترض سبيله ، فلو أنه ذلل تلك العقبة لعرف طريقـه ولانطلق نحو مجده الذى يحلم

به ، ويتراءى له فى اللحظات التى يكون فيها بين النائم واليقظان .

وما ان أتم دراسته حتى جذبه القصر اليه ، فركز جهوده فى أن ينال وظيفة فيه ، ولكنه باء بالفشل ، ففتح حانوتا تجاه القصر يحرر الشكاوى والمظالم ، ويرقب فرصته فى صبر .

وراح غلمان القصر يفدون اليه ، فكان يحتفى بهم ، ويحسن استقبالهم فأحبوه ، وتوطدت بينه وبين بعض الشباب أواصر الصداقة ، فكان حانوته يغص بالزوار وأصحاب المظالم والشكاوى .

وفد عليه ذات يوم صحابه من طلاب جامعة قرطبة ، فخرج معهم الى متنزه من المتنزهات يستروح نسيم الأصيل وانطلق الصحاب يسمرون ، وصمت ابن أبى عامر ، وشرد خياله ، ولج فى التفكير فالتفت اليه أحد رفاقه وقال :

ـ ما الذى شغلك يابن أبى عامر ؟ لقد أطلت الصمت ، وأسرفت فى التفكير .

فرفع الشاب رأسه وقد ضاق بآماله صدره ، فقال فى ثقة وهدوء :

ـ سأكون حاكم هذه الدولة يوما ما .

وضحك رفقاؤه ؛ ولكنه لم يلتفت الى ضحكهم وقال :

ـ تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر .

فنظروا اليه فى استنكار ، ثم رأوا أن يشاركوه فى مزاحه فقال أحدهم :

ـ أتمنى أن توليني القضـاء بجهتي ، كورة رية ، فانه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها ، وأحب أن أشتفى من أكله ٠

وقال ابن عسقلاجة ، وكان ابن عمه :

ـ انى أوثر قرطبـة ذات القصـور العجيبة ، والمساجد الفخمة ، زينـة المدن ، وعروس البلاد ، وأقصى ما أتمناه أن أصبح حاكما لها ٠

والتفت ابن أبى عامر الى رفيقـه الثـالث فألفاه يرمقه فى هزء وزراية ، فقال له :

ـ تمن أنت ٠

فقال صاحبه فى استخفاف :

ـ أتمنى اذا أفضى اليك الأمر أن يطاف بى قرطبة كلهـا على حمـار ، ووجهى الى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل ، ليجتمع الذباب على والنحل ، وليكن هـذا أول ما تستفتح به عهدك اذا حكمت الأندلس ٠

وأسرها ابن أبى عامر فى نفسه ، وان تظاهر بعدم الاكتراث ٠

والتفت الى شاب رابع وقال :

ـ وأنت ؟

فقال الشاب وهو يمرر يده على وجهه :

ـ أن أكون خازن نساء قصر الزهراء ٠

فقال أحدهم وهو يضحك :

ـ ولكن هذه مهنة الخصيان ٠

فقال ابن أبى عامر :

— اذن فهو لها ٠

## ٣

وعلم أردون بن أذفونش بموت النــاصر ، فتحرك حقده الذى طوى عليه صدره سنين طوالا ، فابن عمه شــنجة قد استجار بالناصر منــه ، واســتظل بظل سلطانه ، فأجاره الناصر ، وصرفه الى ملكه ، وأعز نصره ، فقوى ســلطانه ، وطرد أردون الذى كان قد خلعه عن ملكه ، وأخرجه ذليلا من البلاد ، وها هو ذا النــاصر قد قضى ، ففكر أردون فى أن يجمع من أمم الجلالقة التى كانت تحته جيوشا يغير بها على المدن الأندلسية الشماليــة ، ويخضعها له ، ثم يفــرغ لابن عمه الذى يستمد نفوذه من حماية الأعداء ٠

وراح يجمع الجيوش سرا ويتأهب ليفجأ المسلمين بهجومه الذى كان يدبره فى صــبر وكتمــان ، وبلغ الحكم أمره ، فبعــث الى قائده غالب النــاصرى أن يتأهب لغزو ذلك الذى غره بالحكم الغرور ٠ وسمع أردون بتجهيز المسلمين لغزوه ، فسقط فى يده ، فقد كان يعتمد على مبــادرة أعــدائه بهجومه ، أما وقد افتضح تدبيره ، وأخذ الحكم أهبته ، فسينزل به شر الهزائم ، وسيحل بمدنه الخراب ، فلا قبل له بالحكم وجنوده ، فما دخلوا مدينة من مدن الفرنج الا ســبوا أهلها ، ومحقوها وأنزلوا بها الدمار ٠

وفكر أردون وأهمه الفكر ، فلم يجد حلا لما تورط فيه الا أن يخرج الى الحكم يرتمى عليه ، محكما اياه فى نفسه ورجاله ومعاقله ، وقد أطمعه فى الحكم كرمه ونخوته ، فما كان ليعرض عن ملك جاءه يلتمس حمايته ، ويقدم له فروض الطاعة والولاء ٠

واختار أردون عشرين رجلا من خاصته ، وخرج الى غالب الناصرى ، وما ان قابله حتى طلب منه أن ينطلق معه الى قرطبة لمقابلة الخليفة العظيم ٠ ودخل الركب قرطبة ، وكان أردون يرتدى ثوبا أبيض من الديباج ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وكان يمتطى جوادا أشهب ، فجذب أنظار الناس ، فتطلعوا اليه ، فرأوا فى وجهه ذلة وانكسارا ، ذلة الملك الذى يقدم بنفسه ليرى بعينى رأسه الهوان ٠

وبلغ الحكم قدوم أردون ، فلم يقابله فى يومه ، وأمر بانزاله فى دار من دوره الباهرة ، ومر يوم ويوم ولم يؤذن له بالدخول عليه ، امعانا فى اذلاله ، وتوهينا لعزمه ، وفى اليوم الثالث تأهب الخليفة لاستقباله ، فقعد على سرير ملكه فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء صفا فى المجلس ، ووقف جعفر المصحفى رئيس وزرائه خلفه ، وبعث الحكم وزيرا من وزرائه ليأتى بالملك وأصحابه ٠

سار الملك وأصحابه بين صفين من الجنود الشداد ، فراحوا يقلبون أبصارهم فى نظم الصفوف ، ويجيلوا الفكر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ، ورائق حليتها ،

فراعهم ما أبصروه ، وغشـيتهم حيرة حتى وصـلوا أول باب قصر الزهـراء ، فترجل من خرجوا للقـاء أردون ، وتقـدم الملك وخاصـته على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب السدة ، فترجل الجميع هناك ، ومشوا على أقدامهم . ودخل الملك أردون وحده راكبـا مع وزير الحكم ، حتى اذا بلغ كرسـيا مرتفعـا مكسو الأوصال بالفضة ، ترجل وقعـد على ذلك الكرسى ، وجاء أصحابه وقعدوا بين يديه ، وانتظروا الاذن لهم بالدخول مبهورى الأنفاس من الروعة .

وخرج الاذن لهم من الحكم بالدخول عليه ، فتقدم الملك يمشى وأصحابه يتبعـونه ، الى أن وصـل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقى ، ولاح له سرير الملك ، وقف وكشف رأسـه ، وخلع برنسـه ، وبقى حاسرا . والتفت اليه وزير الحكم ، وأشار له ليتقدم ، فمضى بين الصفين المرتبين فى سـاحة السطح ، الى أن قطع السطح ، وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ، ثم استوى قائمـا ، ثم نهض خطـوات ، وعاد الى السـجود ، ووالى ذلك مرارا ، الى أن قدم بين يدى الخليفة ، وأهوى الى يده فنـاوله اياها ، وكر راجعا مقهقرا على عقبيه ، الى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك .

جلس أردون والبهـر قد عـلاه ، وجاء أصـحابه وأبدوا خضوعهم ، وانصرفوا مقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم .

وجاء الترجمـان عن الملك ، ووقف يرقب الحكم ،

وينتظر أن يحرك فاه ، ، ولكن الخليفة أطرق عن تكليم الملك اثر قعوده أمامه وقتا ، كيما يفرخ روعه ، فلما رأى أن قد سكنت الطمأنينة قلبه ؛ قال :

- لدينا لك من حسن رأينا فوق ما قد طلبته ٠

فتطلق وجه أردون وقال :

- أنا عبد أمير المؤمنين ، فحيث وضعنى من فضله ، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ٠

- سينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا اياك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا ٠

فابتهج أردون وقال :

- ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى ، فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك ، وأكارم الخلفاء ٠

- سيترادف من احساننا اليك أضعاف ما كان من أبينا الى ندك ٠ وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا ، والقصد الى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أنلناك ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ، ونشد أواخى ملكك ٠

فأسهب أردون فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقرا ، لا يولى الخليفة ظهره ، وخرج مغتبطا ، فقد صار فى ظل الحكم العظيم ٠

## ٤

دخل الحكم خزانة كتبه الزاخرة الفاخرة ، وراح يقرأ فى امعان وشغف ، فقد كان يمضى سويعات فراغه بين كتبه النادرة · ولقد خاض غمار حروب كثيرة يوم كان وليا للعهد ، فخضد شوكة الافرنج ، فاستتب فى الأندلس الأمن ثم قعد على سرير الملك وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، فضعفت فى نفسه شهوة الحكم والسيطرة ·

كانت خزانة كتبه أحب مكان الى نفسه ، والعلماء صفوة جلسائه ، والكتاب خير ندمائه ، فأفاد من الجلساء والندماء ، وتثقفت نفسه واتسعت آفاقه . فساس رعيته سياسة حكيمة ، جعلت شعبه يحبه ويتعلق به ·

وانقضت ساعات وهو يقرأ ، فأحس بالتعب يسرى فى جسمه ، فنهض وغادر المكتبة ، وسار فى ردهات القصر ، حتى خرج الى حدائق الزهراء ، فوقف يستنشق النسيم اللطيف فى قوة ، ويزفره فى راحة ، فانتعشت روحه ، وقلب ناظريه فى روائع الورود والأزهار ، فتفتحت نفسه ، ومد بصره فلمح من خلل الغصون المتشابكة قرص الشمس ينحدر نحو الأفق الغربى ، ويبعث أشعته الذهبية تغمر الحدائق فتزيد فى روعتها ، فغشيته غبطة ، اذ كان الجمال يهزه ويستولى على مشاعره ·

وارتفع صوت نسوى عذب ، سرى نديا فى حدائق الزهراء ، فأرهف سمعه : كان الصوت رائعا حنونا يعبث بالقلوب ، ويهز الأفئدة ، فأحس كأنما صبت فى نفسه كئوس من الخمر ، وملأت النشـوة صـدره ، فلاحت على وجهه ، وبقى فى مكانه ينصت الى البذبل الصداح فى انتباه ، فاستخفه الطـرب ، وأخذ يهـز رأسه ، لقد سمع من قبل أصواتا حلوة كثيرة أطربته ، ولكنه لم يسمع صوتا آسرا كذلك الصوت ، فهو صوت ساحر ، يستحوذ على الألباب ، ويشرح النفوس ·

سار الحكم صوب الصوت مأخوذا ، فلمح فتـاة جلست على أريكة واسترخت فى جلسـتها ، وتركت نفسهـا على سجيتها ، وراحت ترسـل النغم الحلو الطروب ·

وبان فى وجهه الدهش ؛ كانت الفتاة فاتنة غاية الفتنة ، وكان جمالها لا يقل عن صوتها روعة : شعر سبط متموج كليل حالك الظلام ، وعينـان واسعتان تلمعان ببريق يعـرف طريقـه الى القـلوب ، وبشرة بيضاء ناصعة البياض ، وأنف دقيـق زان وجههـا المستدير ، وفم هو الفتنة والاغراء · كانت تحفة فى قصر جمع آيات الفن والابداع !

وقف الحكم ينصت اليها جذلان ، وينظر اليهـا مشدوها ؛ كان يحس احساس النائم الذى ينعم بأمتع الاحلام ·

وفاض اعجابه ، فلم يستطع أن يكبت ما به فهتف :

ـ سبحانك !

فانتفضت الفتـــاة فى فزع ، والتفتت الى مبعـــث الصوت ، فما ان رأت الخليفة حتى نهضت وغمغمت فى ارتباك :

ـ مولاى !

فقال الخليفة فى رقة :

ـ حنانيك ٠

وغضت من بصرها ، ونظـــر الحكم الى قوامهـــا البديع ، فأعجبه حسنها ، فقال لها :

ـ متى هبطت ؟

ـ الساعة ٠

ـ من السماء ؟ !

ـ من القصر ٠

ـ من أنت ؟

ـ جارية من جوارى مولاى ٠

ـ بل أنت ملك هبط من السماء ٠

ودار الحكم حولها ، وهى واقفة مطرقة ، ثم قال :

ـ ما اسمك ؟

ـ صبيحة ٠

فاتجه الى الأريكة ، وجلس عليها وهو يقول :

ـ أنت أحلى من الفجر ، وأندى من البكور ، أنت صبح ٠

وربت بيده على الأريكة ، وقال :

ـ تعالى يا صبح ، اقعدى وأسمعينى أحلى النغم ٠

وقعدت صـــبيحة الى جوار مولاها تسمعه عـــذب صوتها ، وتكشف عن خفة روحها ، وعظيم ذكائها ٠

٥

انطلق المصحفى فى ردهات القصر ، فانحنى له الرجال فى اجلال ، حتى اذا بلغ حجرة الحكم ، فتح له الباب ، فدخل منه ثابت الخطو ، فهو حاجب الخليفة ، ورئيس وزرائه .

كان جعفر المصحفى من أصل بربرى ، وكان عادى الذكاء ، ولكن الحكم قربه منه تكريما لوالده الذى كان معلمه ، ونفس عليه كثير من أشراف العرب ذلك الجاه ، فكانوا يسخرون منه ، ويغضون من قدره .

وبقى الخليفة وحاجبه يدرسان شئون الأندلس ، ويصرفان الأمور ، حتى اذا ما انتهيا من أعمالهما ، ذهب المصحفى ينفذ وصايا مولاه ، وترك الحكم مجلسه ، ولم يذهب الى خزانة كتبه كما اعتاد أن يذهب كل يوم ، بل انطلق الى صبيحة التى هفت نفسه اليها ، واشتاق الى عذب حديثها .

وحدق فى عينيها الواسعتين الصافيتين ، فأحس كأنما أنامل رقيقة تعبث بأوتار قلبه ، ثم مد يده ومررها على شعرها الأسود الفاحم فى حنان ، وقال وهو يبتسم :

- انى رأيت رؤيا لطيفة يا صبح ؟

- خيرا يا مولاى ؟

- رأيت كأننا ، أنا وأنت ، فى زورق من فضة ،

نجدف فى رقعة السماء ، والورد والنرجس والياسمين يتساقط علينا ، وأصوات ملائكية تغنى ، وموسيقا رائعة تعزف أحلى الألحان .

ــ ستكون أيامك سعادة كلها يا مولاى .

ــ بل أيامنا يا صبح .

وسارا فى حدائق القصر ، وفى صدريهما نشوة . وفى قلبيهما حب ؛ وغنت صبيحة ، فسرى فى المكان سحر ، فبدا كل شىء جميلا فى عينى الحكم ، فالتفت اليها فى وله ، وقال :

ــ ما أحلاك !

ثم تلفت حوله وقال :

ــ كنت أعجب أنى لهذه الحدائق كل هذه الروعة ؟ الآن فقط عرفت أنها استعارت حسنها من حسنك ، هذه الورود حمرتها من خدك ، وهذه الزهور نضارتها من نضارتك ، وهذه الحياة التى تدب فى كل شىء هى من نبض قلبك .

وانقضى النهار وأقبل الليل وهما يتجاذبان أطراف أحاديث شهية ، وأضفى عليهما الليل جوا شاعريا أجج فى صدريهما نار الصبابة ، فضم الخليفة صبيحة اليه ، وقال فى صوت يفضح مكنون صدره :

ــ ليتنى عرفتك يا صبح من زمان ، ضاعت هباء تلك السنون التى تقضت قبل أن أراك .

٦

صوت صبيحة الآسر يسرى فى هجعة الليـل عذبا حنونا ، يدغدغ حواس الخليفة ويزيد فى روعته خرير الماء الهامس المتدفق من النافورة التى قعدا عندها ، والقمر الفتان الذى اكتمل وبعث ضـوءه الهـادىء الجذاب ، يهز المشاعر ، ويفتح القلوب للحب ·

كانت ليلة من ليالى البهجة التى سعدت بها حدائق الزهراء ؛ الحكم غارق فى النشوة ، وصبيحة جذلى ترفرف فى صدرها سعادة عارمة ، انهـا تكتم خبرا سارا وترقب لحظة من لحظات التجلى ، لتفضى به الى الخليفة ، فتفيض كأس سعادته ·

وأجال الحكم بصره فيمـا حوله ، فرأى روعـة ، ورنا الى صبيحة بعينيه ، فأحس رضـا ، كانت حلوة مليحة غاية فى الحسن ، أضفى عليها ضـوء القمـر جمالا فوق جمال ، فهمس :

ـ انى سعيد يا صبح ، نشوان ، ولا أحب أن تنساب من يدى هذه السعادة وهـذه النشـوة ، ليت عجلة الزمن تكف عن الدوران ·

ـ لا يا مولاى ، لا تتمن أن تكف ، بل ليتهـا تسرع وتغذ فى السير ·

ـ ولماذا يا صبح ؟

ـ لأن ما يخبئه لنا الزمن من سعادة أعظم ممـا نحن فيه ·

ـ يا ليت ! •
ـ أريد أن أزف اليك بشرى •
ـ قولى يا صبح •
فقالت فى دلال مس شغاف قلبه وأبهجه :
ـ لا ، فى أذنك ، فانى لا آمن عليها النسيم السارى
وأشرق وجـــه الحكم بابتســـامة عذبة ترجمت عن عميق سروره ، وقال :
ـ هاك أذنى •
فدنت صبيحة منه ، وهمست فى أذنه ، فتهلل وجه الخليفة ، وهتف فى فرح :
ـ والله لو جاء المولود ذكرا يا صبح لجعلتك سيدة البلاد •
كان الحكم قد أيس من أن يرزق أبناء ، وها هى ذى حظيته الأثيرة عنده تزف اليـــه أحلى بشرى ، وأحس خفة ، فلم يقدر على أن يستقر فنهض يستنشق الهواء وهو فرحان ، وسرى فى صدره اضطراب لذيذ ، وأمل حلو ، ولج فى التصورات ، فغمرته أحاسيس غريبة حبيبـــة ، وتحركت عواطف الأبوة التى استكانت فى جوفه ذليلة سنوات طوالا •
وهبت نسائم باردة فلفحت وجه الحكم الغارق فى الأحلام ، فالتفت الى صبح وقال :
ـ هيا يا حبيبتى ندخل الى القصر ، فقد برد الجو •
فقامت صبيحة ، وســـارت الى جواره ، حتى اذا بلغا الدرج ، جعلت تقفز فى خفة الشباب ، فقال لها الحكم فى زجر محبب :

ـ لا ٠ لا يا صبح ، لا تقفزى ٠

ـ مولاى !

ـ ولن تغادرى بعد الليلة فراشك حتى تضعى ولى العهد ٠

٧

راح الحكم يهرول فى ردهات القصر دون أن يلتفت الى مئات الخدم والجنود الذين كانوا ينحنون له فى اجلال ، ويرمقونه بعيون تلمع ببريق الفرح ، وظل فى هرولته وجعفر المصحفى خلفـــه ، حتى بلغ حجرة صبيحة ، فدخلها ، فوجد صبيحة ممددة فى فراشها ، فخفق قلبه ، ولمح الوليد الى جوارها ، فترقرق الدمع فى عينيه ، فرفع يده فى ارتباك ، ومسح دموعه بظهر يده ٠

واستمر بقرب الفراش ثابتـا ينظر ، حتى اذا ما أشرق وجـه صـبيحة بابتسـامته ، افتر ثغـره عن ابتسامة سرور ، وانحنى فوقها وغمغم :

ـ شكرا لله ٠

ومدت صبيحة يدها فحملت الوليد ، وقدمتـه الى الحكم ، فحمله فى ذراعيه ، ونظر فى وجهه مليا ، ثم التفت الى المصحفى وقال :

ـ انى أعرف هذا الأنف جيـدا ، أنف بنى أميـة الأمجاد ٠

وكان فى عزم الحكم اذا رزقه الله ولدا أن يسميه باسم أبيه العظيم ، فرنا الى ابنه خافق القلب وغمغم :

- ايه يا عبد الرحمن ! .

وذاع فى قرطبة أن الخليفة العادل رزق وليا للعهد، فأقيمت الزينات ، وأقبلت الوفود الى ميـدان القصر تشارك الحكم فى سروره ، وارتفعت الهتافات للخليفة وولى عهده ، وفتحت شرفة القصر الكبيرة ، وظهـر فيها الخليفة يطل على شعبه ، يحمل على ذراعيه ولى عهـده ، وخلفـه المصحفى ورجال البلاط ، فتعـالى الهتاف ، وراح الخليفة يمد يده بالوليد الى الجموع التى هزها الفرح ، فدوى المكان بالتصفيق، وأفصحت الأصوات عما تكنه القلوب من حب وولاء .

ووقف محمـد بن أبى عامر فى حانوته ينظر الى الخليفة ووزرائه وحجابه ورجال بلاطه ؛ وشرد خياله ، ولم تعقه هذه الضوضاء المدوية من أن يطلق العنان لخياله ، فرأى نفسه فى ثياب مزركشة فاخرة كثياب المصحفى المحظوظ ، وقفـز به خيـاله الى الشرفة ، فوقف خلف الحكم يطل على الشعب الذى جاء يهنىء خليفته .

ورأى نفسه بعين خياله فى ثياب القصر المزركشة ، يخطر فى قرطبة ، والناس يرمقونه فى اعجاب وحسد ، وما زال غارقـا فى أحـلامه حتى أفاق على حـركة بجواره ، فانتبه الى نفسه ، ومد عينه الى الشرفة ، فلم يجد الخليفة وبطانته ، وتلفت حوله فى الميدان ، فرأى الناس يتسـللون الى طرقات قرطبـة ، ورأى

نفســـــه فى وسط حانوته الصـــــغير بين الشكاوى والمظالم ، فابتسم فى استخفاف ، ثم أغلق حانوته ، وذهب يشارك القوم فى فرحهم .

★ ★ ★

تألق نجم صبيحة بعد أن صـــارت أميرة قرطبة ، فكانت تمضى سحابة نهـــارها مع المصحفى ، تصرف شئون الملك فى كياسة وفطنة ، ساعدها فرط ذكائها على أن تتفوق على المصحفى ، فكان يسير على هدى تفكيرها ، فأعجب الحكم برجاحة عقلهـــا ، وحســـن استعدادها لسياسة الأمور ، فشجعها ، وترك لهـــا ادارة دفة البلاد ، وتفرغ لكتبه التى كان يجد لذة فى مؤانستها .

وفى يوم دخلت صبيحة على الخليفة وكان غارقا بين كتبه ، وانسلت كالطيف حتى وقفت فوق رأسه ، وظل الخليفة فى قراءته ، حتى ملأ عبيرها خياشيمه ، فتلفت وقال فى انشراح :

ـ صبح ! تعالى .

وأقعدها الى جواره ، ورنا اليها فى حنان ، فلمح آثار التعب بادية على محياها الجميـــل ، فقـــال فى اشفاق :

ـ انك تجهدين نفسك يا حبيبتى .

فقالت فى رضا :

ـ أجد لذة فى العمل يا مولاى .

ـ ماذا لو استعنت برجالنا الكثيرين ، لتخففى عن نفسك بعض الجهد الذى تبذلينه ؟

ـ لست فى حاجة الا الى كاتب ·

ـ فليعلن القصر عن حاجته الى كاتب مجيد ، كاتب يليق بحاكمة فريدة فى الوجود ·

ـ مولاى !

ـ أنت يا صبح درة ، والله ما أدرى ماذا كانت تساوى حياتى لو خلت منك ! ·

فانشرح صدر صبيحة ، ولم تجد الكلمات التى تترجم عن احساسها ، فمالت عليه ، وطبعت على خده قبلة عبرت عن شعور الاغتباط الذى تحسه · فنظر اليها فى رضا ، وظلا صامتين برهة ، ثم قالت :

ـ عندى فكرة يا مولاى ·

ـ قولى يا صبح ·

ـ أرى أن نشجع علماء بغداد ودمشق والقاهرة على الوفود الى قرطبة ، فيرتفع قدرها ، ويطير صيتها فى الآفاق ·

ـ فكرة سديدة ·

ـ سأبعث الرسل الى تلك الأمصار لاغراء العلماء وأهل الفنون فيها ، تشد الرحال الينا ·

ـ افعلى يا صبح ·

## ٨

وفد الى قصر الزهراء كثير من كتاب الأندلس ، ليختار الخليفة من بينهم كاتبا للأميرة ، واجتاز محمد ابن أبى عامر وصيد القصر ، واجف القلب ،

مضطرب النفس ، فقد كان يعلق على ذلك اليوم الفاصل من أيام حياته آمالا كبارا ، فها هى ذى أمنيته التى طالما تراءت له فى يقظته ومنامه ، تتحقق بفضل غلمان القصر ، الذين توطدت بينه وبينهم علائق الصداقة والمحبة .

كان يقول فى نفسه ان اجتياز وصيد القصر هو العقبة الكأداء التى تعترض سبيله ، فلو ذللت تلك العقبة لعرف طريقه ، وها هم أولاء أصدقاؤه قد ذللوها له ، ويسروا له دخول القصر مع الداخلين . فهل يسعفه حظه ، وينال تلك الوظيفة ؟ !

وسار فى حدائق القصر قلقا ، ولم يكن قلقه لأنه لا يثق فى نفسه ، فقد كانت ثقته فى نفسه عظيمة ، بل كان قلقا خشية أن يخونه حظه فتنساب من بين يديه تلك الفرصة النادرة ، التى قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى .

وزاد فى رهبته تلك الروعة التى لم تألفها عيناه ، فهذه البحيرة الصافية صفاء البللور ، التى أقيمت عليها تماثيل عجيبة فريدة ، كانت فى عينيه رهيبة ، فرمقها فى قلق ، كما يرمق غولا فاغرا فاه ليبتلعه .

وضايقه اضطرابه ، فأخذ يهدىء من روعه ، ويسخر من خوفه ، حتى اذا اجتاز باب السدة ، وانطلق فى الردهات الطويلة ، خفق قلبه فى شدة ، وخيل اليه أن مئات الأعمدة الرخامية الشامخة تنظر اليه هازئة ، فماذا يفعل شاب حدث مثله فى ذلك القصر الهائل ، الذى انطوى على عجائب وأسرار ؟

وجلس مع الجالسين يقلب عينيه مشدوها فى الزخارف التى زينت بها القاعة . فما يراه الساعة ما كان يخطر على قلبه قط ، انه عجيبة من عجائب الزمان . وحاول أن يشغل نفسه بتلك التحف النادرة الرائعة ، ولكن نفسه كانت مشغولة باحساساتها ، فما كان يوجه خياله وجهة بعيدة عن نفسه حتى يرتد خياله يفكر فيما ينتظره .

ومر الوقت وئيدا وئيدا وهو فى قلقه ، حتى أذن له بالدخول على الخليفة ، فنهض مضطربا ، وقلبه يقفز فى جوفه ، وأحس جفافا فى حلقه ، ولكنه استمسك ، ودخل البهو الكبير يلفه قلق وخوف .

رأى الحكم فى صدر القاعة والى يمينه جعفر حاجب الدولة فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض ، ثم اعتدل ووقف بعيدا ، وأشير اليه أن يتقدم ، فتقدم ثابت الخطو ، وجلس على مقعد أمام الخليفة وحاجبه .

وانتظر الخليفة حتى أفرخ روع الشاب ، وراح الحكم يختبره وهو يجيب فى احكام ، وأقلع عنه خوفه ، وغشيه أمن واطمئنان ، وأخذ الخليفة يرقب الشاب بعينه الفاحصة ، فأحس ميلا اليه ، فقد كان ابن أبى عامر من ذلك الطراز الذى يجذب اليه الأبصار ، وتستريح اليه النفوس .

وخرج ابن أبى عامر تداعبه آمال ، فقد شعر أن الخليفة حباه عطفه ، وأظهر له رضاه .

ورأى الخليفة وحاجبه أن ابن أبى عامر أكفأ من

يصلح كاتبا للأميرة ، وخطر للخليفة خاطر ، فقطب جبينه ، ان هذا الشاب جميل الصورة ، صاحب شخصية جبارة آسرة ، فكيف يختار شابا كهذا ليصاحب صبيحة فى كل لحظة ، وفى كل آن ؟ وضايقه ذلك الخاطر ، وهم بأن يصرف نظره عن ذلك الشاب ، ولكن حبه لصبيحة جعله يئوب الى رشده سريعا ، فيزيح ذلك الخاطر المتطفل ، فهو يثق فى صبيحة ثقة لا تقف عند حد ، سماحه لمثل ذلك الخاطر السخيف أن يجول بفكره خيانة لحبه ، وزعزعة لثقته ، واهانة لصبيحة ، ما كان له أن يوجهها اليها • وانبسطت أساريره ، وقال لحاجبه :

- ان الكاتب كاتب صبيحة فأرى أن تختاره بنفسها •

- هذا عين الصواب يا مولاى •

وجاءت الأميرة ، وأذن للمتبارين بالدخول فلفت محمد بن أبى عامر اليه نظر الأميرة ، بحكمته الناضجة ، ورويته المحببة ، وشخصيته الطاغية ، وحسنه البارع ، الذى تهفو اليه قلوب النساء ، فلم تتردد فى اختيار الشاب اللبق الجذاب •

وأحس ابن أبى عامر موجة من الفرح تجتاحه وتغمره ، فقد ابتسم له حظه ، وارتقى أول درجة من درجات سعده ، وصار كاتب أميرة قرطبة وسيدة البلاد •

## ٩

كانت صــبيحة وجعفــر المصحفى وابن أبى عامر يجتمعون كل يوم فى جناح الأميرة ، وكانت صبيحة وحاجب الدولة يتدارسان شئون الملك ، وكان ابن أبى عامر ينتظر أوامر الأميرة ، ليحرر كتبها الى العمال والقواد والقضاة ٠

وقد أبدى الشاب كفاية أرضت صــبيحة ، وكان يدلى برأيه من حين لآخر فى المسائل التى تطرح على بســاط البحث ، فكانت الأميرة تأخذ بآرائه وتظهــر اعجابها ٠

أما المصحفى فما كان يهتم بذلك الشاب الألمعى ، بل كان ينظر اليه نظــرته الى خادم عادى من خدام القصر ، وكان يعامله أحيــانا فى غلظة ، فمــا كان الشاب يتذمر أو يبدى استياءه ، بل كان يكتم آلامه ، ويختزن فى صدره احساس المقت ، ويرقب فرصته فى صبر ، فقد يواتيه حظه فيرد الصاع صــاعين ، فما كان من الذين ينسون الاساءة أبدا ، أو يعفون مهما طال الزمان ٠

وقد أوغر صدر الشاب على المصحفى أنه كان اذا ذهب الى داره لعمــل من الأعمال ؛ يتركه فى دهليز بيته الساعات ، فكان ابن أبى عامر يشعر بالمهانة ، وبوخز يخز كبرياءه ، وأبخرة من المقت تملأ صــدره وتضغطه ، فتزيد فى حقــده الشــديد على الحاجب

البربرى ، الذى عاونه حظه ليكون رئيسا للوزراء ، يتحكم فى أقدار الناس ·

وعهدت الأميرة الى كاتبها فى ذات يوم أن يشرف على تنسيق بهو الاستقبال ، فقد كانت الليلة ليلة استقبال علماء قرطبة ودمشق وبغداد والقاهرة ، فأخذ يتفنن فى تنسيق البهو ، وأقبلت الأميرة فألفته يصدر أوامره لهذا وذاك ، فوقفت ترقبه فى اعجاب · كان نشيطا ، مذخور الحيوية ، ودارت بعينيها فى المكان ، فوجدت كل شىء قد نسق على هواها ، كأنما قد أشرفت بنفسها على اعداده · كان بين صبيحة وابن أبى عامر توافق ، فذوقه وذوقها يتفقان ·

كان كل عمل يقوم به يصادف قبولا من نفسها ، وأعجبها منه ذلك التفانى العجيب فى عمله ، وتلك القدرة على الاضطلاع بما يطلب منه فى كفاية ، وهذا الاشراق الحبيب الذى تتفتح له النفوس ·

واستمرت ترقبه راضية ثم غمغمت :

ـ انه رائع ، يستحق أن يكون أكثر من كاتب ·

★ ★ ★

راح الحكم يهرول فى حدائق الزهراء ويتلفت خلفه ، يشع من عينيه حنان ، وانبسط وجهه ، ورضيت نفسه ، وانشرح صدره ، فهو يلاعب ولديه عبد الرحمن وهشاما ·

وجلجلت ضحكاتهما الرقيقة ، فدغدغت حواسه ، وفاض سروره ، فقهقه وهو يهرول وهما يقفزان خلفه · وأشفق عليهما ، فوقف وانحنى لهما ،

وبسط ذراعيه مرحبا ، فارتميا فى حضنه ، فضمهما اليه ، وراح يلثمهما فى وله هنا وهناك ·

ثم جلس يرقبهما وهما يلعبان ، وشرد ذهنه ، فعاد به أعواما · عاد به الى تلك الأيام المجدبة التى عاشها قبل أن يهب الله له صبيحة ، فرأى عراف القصر يدخل وهو يقول : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى اقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فاذا انتقل الى الاخوة وتوارثوه ، أدبر وانصرم » ·

مزق ذلك القول قلبه ، فما كان له ولد يرث عرشه ، وما كان يحب أن يزول ملك أجداده بزواله · وصدق الحكم ذلك التكهن ، فاغتم أعواما ، وساعد على تصديقه أن أخاه المغيرة الذى سيؤول اليه الملك من بعده كان شابا لايصلح ليسوس نفسه ، فكيف يسوس ملكا يحيط به أعداء أقوياء ، يتربصون به الدوائر ، وينتظرون ثلمة ينفذون منها ليطعنوا الحكم العربى ، فيتقلص ظله ، وتنكس رايته الخفاقة الشامخة فى الغرب ·

كان حزن الحكم على ملك بنى أمية عميقا ، ولكن الله لم يشأ أن يدوم حزن الرجل العادل طويلا ، فوضع فى طريقه صبيحة الجميلة فأحبها وتعلق بها ، فجاءت له بولدين ، فانقشع حزنه ، وأقامت السعادة فى قلبه ، فقد اطمأن الى أن الملك سيئول الى ولد من أولاده ، فيبقى ملك بنى أمية ثابت الدعائم ، متين الأركان ·

ونظر الحكم الى ولديه وهما يلعبان ، فهفت نفسه اليهما ، فقام وحملهما ، ثم عاد وأجلسهما على

فخذيه ، وقال :

ـ سأقص عليكما طرفا من أخبار جدنا العظيم معاوية . كان معاوية حليما غاية الحلم ..

وراح يقص قصته وعبد الرحمن يستمع اليه . أما هشام فكان صغيرا لا يفقه مما يقول أبوه شيئا ، فأخذ يعبث فى لحيته مرة ، وفى أذنه مرة . فالتفت اليه الحكم وابتسم ، ثم ضمه اليه وراح يمرر لحيته على وجهه . فيضحك هشام ، ويرفس برجليه ، ويضرب بيديه من السرور .

وأقبلت صبيحة فرأت الخليفة يداعب ولديه ، فتريثت قليلا ، وخفق قلبها فرحا ، ثم قطبت جبينها الجميل متظاهرة بالجد ، وسارت حتى اقتربت من الأحبة ، فقالت :

ـ انك تفسدهما بتدليلك .

فالتفت وقال :

ـ صبح ! تعالى وارفعينا الى السماء .

ـ على بساط الريح ؟

ـ على أجنحة النغم .

## ١٠

غادرت صبيحة المصحفى وابن أبى عامر ، بعد أن أنجزوا عملهم اليومى الرتيب ، وانفردت بنفسها ، فأحست رغبة فى أن تدعو اليها ابن أبى عامر لتصدر اليه أمرا من أوامرها ، ولكنها أنكرت ذلك من نفسها ،

فهى لم تغادره الا من لحظات ، وما كانت تدرى ما هو الأمر الذى ستكلفه انفاذه ، فتشاغلت عن تلك الرغبة الملحة ، بأن أخذت تغنى أغنيـــة حبيبة الى نفسهــا ، لعلها تقضى على ذلك الاحساس المتفتح فى صدرها .

واستمرت فى غنائها ، ولكنها لم تستطع أن تقضى على رغبتها ، اذ راحت تلح عليها وتهيمن على جميع حواسها ، حتى ان صوتها الآسر الحنــون ، ما كان ليهدىء قلبها الحائر القلق .

كانت صبيحة تشعر بالسعادة بقرب ابن أبى عامر وان لم تعترف بذلك لنفسها ، وكانت تحس لذة كلما أصدرت اليه أمرا أو كلفته عمــلا ، فكثرت أوامرها اليه ، وكثر العمــل الذى نيط به ، وطغت رغبتها فى استدعائه على مقــاومتها ، فأمرت حاجبها أن يدعو اليها كاتبها .

وأعملت صبيحة فكرها فى أمر تصدره اليــه ، أو عمل تكلفه انجازه ، فلم يسعفها فكرها ؛ فقــد أتموا عمل يومهم ذاك ؛ ولم يعد هنالك ما يستدعى طلبه ، وهمس هامس من أغوار نفسها يتهمها بأنها تسرعت فى استدعائه ، تلبية لرغبة ما كان لهــا أن تنبت فى صدرها ، فثـــارت لذلك الخـــاطر ، وطفقت تتلمس لنفسها المعاذير ، انها تطلبه دواما لأنها تعطف عليه ، وهو أهل لذلك العطف ، فهو دءوب فى عمله ، ويبذل قصارى جهــده فى ارضائها ، فمـــاذا لو استدعته لتظهر له تقديرها واغتباطها ؟ !

وخطر لها خاطر : ما قيمة الاغتباط والاعجاب اذا لم يتبعه مكافأة ؟ انه يستحق أن يكون أكثر من كاتب ، وقد فكرت فى ذلك مرات ، فما الذى يدعوها الى التريث ؟ فى تريثها غبن له ، فهو صاحب عقل راجح لماح ، وشخصية قوية مهابة ، وكفايات ممتازة نادرة . فلو عاونته وأخذت بيده لتألق نجمه فى القصر ، بل فى قرطبة ، بل فى الأندلس جميعها .

واقتنعت الأميرة بأنه قد آن لها أن ترفعه تقديرا لمواهبه . وتشجيعا له على اخلاصه ، واعترافا بالجهود المضنية التى يبذلها ارضاء لها .

وأقبل ابن أبى عامر مشرق الوجه ، موفور الحيوية وقال :

ـ مولاتى !

فرنت اليه الأميرة بعينيها الساحرتين وقد ظهر على وجهها الجميل الرضا ، وقالت :

ـ لن تصبح يا محمد كاتبى بعد اليوم .

فتغير وجه ابن أبى عامر ولاح فيه الدهش ، وقال فى انكار :

ـ هل صدر منى ما غير على صدر مولاتى ؟

فابتسمت صبيحة وقالت :

ـ لا يا محمد ، لم تعد وظيفة الكاتب تليق بك ، سأسند اليك عملا أشرف .

ـ انى قانع يا مولاتى ما دمت فى ظلك .

ـ أريد أن أنهضك مكافأة لك .

ـ مكافأتى أن أبقى خادمك الوفى .

فصمتت الأميرة قليلا ، وكانت تنعم باحساس لذيذ ؛ اذ أثر فيها ذلك الوفاء تأثيرا طيبا ثم قالت :

— ستظل كاتبى ؛ وسأقلدك عملا آخر .

— شكرا لك يا مولاتى .

— ستكون وكيلى ، وستنهض بادارة أملاكى .

— ان بيانى لعاجز عن أن يترجم عما أحسه من اغتباط ، سأبقى يا مولاتى خادمك الوفى ما حييت .

وخرج مزهوا بوظيفتيه ، والأميرة ترقبه منشرحة ، حتى اذا غاب عن عينيها غمغمت :

— انه جدير بما هو أكثر من هذا .

★ ★ ★

كان هم المصحفى أن يملأ خزائنه ، وأن يقلد الوظائف الهامة أبناءه وأصهاره وأقاربه . فلما رأى ابن أبى عامر يقفز بفضل استعداده وبفضل الأميرة ، قفزات واسعة ، فطن الى أنه منافس خطير لولديه محمد وعثمان ، فراح يعمل جاهدا على أن يعوق تقدمه ، ويهون من شأنه ، ويحط قدره .

وما كان المصحفى بالغر الذى يبدى كرهه لشاب تعطف عليه سيدة البلاد ، فهو أدرى الناس بخطر الكشف عن ذلك الاحساس ، فدفن حقيقة شعوره فى صدره ، وأبدى وده لابن أبى عامر ، وبالغ فى اظهار حبه له ، حتى كان يستشيره فى أموره غالبا ، ويتملقه أمام من فى القصر أحيانا . فارتفع قدر الشاب والمصحفى كاره مضطر ، ينتظر سنوح الفرصة ليقصيه عن القصر .

لم يعرف الزهو طريقه الى نفس الشاب ؛ بل زاد فى تودده الى كل من بالقصر ، اذ كان على يقين من أن الأهواء تتضارب فى قوة وعنف ، فى تلك الدنيا الصغيرة التى يعمل فيها ، والدسائس تحاك فى صبر وأناة حتى اذا ما أتمت خيوطها سقط ضحيتها دون أن يدرى من أين جاءته الضربة القاضية . فعمل جاهدا على اكتساب القلوب ؛ وعلى أن يكون محبوبا من الجميع .

رأى بعينه اللماحة أن الخصيين فائق وجؤذر اللذين يحكمان على ألف مملوك من الصقالبة الذين يعملون بالقصر ، يكرهان المصحفى ، فأراد أن يقصى عن نفسه عداوتهما ، فراح يلاطفهما ، ويغرقهما بهداياه .

ولم تقتصر هداياه على فائق وجؤذر ، بل كان يمنحها كل من يتصل به من غلمان القصر ، بل كل ذى خطر وسلطان . كان يعرف طريقه الى القلوب ، فمن لا تأسره الملاطفة تأسره الرشا والعطايا .

★ ★ ★

مشى ابن أبى عامر فى القصر يبتسم لهذا ، ويلاطف ذاك ، والحكم يرقبه ، وقد أدهشه ذلك التبجيل الذى يلقاه الشاب أينما حان . كان يرقبه دواما ، فلم يجد الا تقديرا واحتراما له ، فالتفت الى المصحفى وقال :

— ان كاتب صبيحة يحيرنى .

— لماذا يا مولاى ؟

ـ استمال اليه فى فترة وجيزة كل من فى القصر ٠
ـ انه شاب آسر فما من أحد يراه حتى يحبه ٠

قالها فى بساطة ، وسربلها بثوب البراءة ، وان كان فى أعماق نفسه يهدف الى اثارة غيرة مولاه . ولكن الحكم كان يحب صبيحة ، وقد ملأ حبها عليه كل جوانحه ، فلم يعد ثم مكان لغير الحب ، فلم يفطن الى ما يرمى اليه حاجبه ، وقال :

ـ انى أرى الجميع يفرحون بهداياه التافهة أكثر مما يفرحون بهدايانا ٠
ـ معاذ الله يا مولاى ٠
ـ ما رأيك فيه يا جعفر ؟

سنحت للمصحفى الفرصة لينال من ذلك الشاب الذى بدا خطره ، ولكنه لم يستطع أن ينفس عن احساسه ، فلو أسفر عن بغضه ، فقد يبلغ قوله صبيحة ، فيسوء ما بينه وبينها ، وهو يعلم أنه لن يبقى فى منصبه يوما لو غضبت عليه ، فانتخب من الألفاظ ما قد يبلغه غرضه دون أن يوغر صدر الأميرة ، قال :

ـ انه شاب زاخر الحيوية والنشاط ٠

قالها وهو يحاول أن يخز وخزة مسمومة ، يضيفها الى وخزته الأولى ، لعل غيرة الخليفة النائمة فى أغوار نفسه تستيقظ ، فينزاح من طريقه ذلك الشاب الذى بدأ يجثم على أنفاسه ، ولكن الحكم لم يلتفت لهذه الوخزة أيضا ، كان حائرا فى أمر كاتب صبيحة ، وأفصح عن غيرته بقوله :

ـ والله لا أدرى يا جعفر أأعده من المخلصين لنا أم أعده ساحرا محتالا ؟

فابتسم المصحفى ، ولم ينبس بكلمة ، فقد خشى أن يفضح نفسه ، ويعلن عن بغضه ، فلا يكسب من ذلك الا عداوة الأميرة ، وفى ذلك الخسران كل الخسران .

## ١١

جلست صبيحة أمام مرآتها تتفنن فى ابراز فتنتها ، حتى اذا أتمت زينتها قامت تتهادى رائعـة الحسن ، شديدة الأسر ، كان رأسها الجميل آية ، وبدا وجهها المستدير ، وشعرها السـبط الطويل كهـالة من نور تحف بها ظلمة حالكة ، وبدت عينـاها مبعث فتنـة واغراء ، أما فمها فكأنه جرح يقطر دما .

كستها السعادة ثوبا من البهجة ، فاذا هى راضية كل الرضاء ، فالحكم يحبها ، وولى العهـد وهشـام يملآن نفسها غبطة ، وابن أبى عامر كاتبها ووكيلها الذى تقضى أغلب أوقاتها معه ، شـاب ظريف لبق ، يدرك ما يبهجها ، فجعل الحياة صافية مشرقة .

فكرت فى ابن أبى عامر ، وراحت تسأل نفسها على عادتها كلما فكرت فيه ، عن مبعث اعجابها ، وتقديرها له ، كانت هواجس طفيفـة تنبت أحيـانا فى أغوار نفسها ، فتقلقها ، فتهرع سريعا الى نفسها تقتلع تلك الهواجس وتجتثها من أصولها .

كانت هواجسها توسوس لها فى خفوت أن تقديرها لابن أبى عامر ليس خالصا ، بل هو مزيج من التقدير والحب ، ولكن ما يكاد ذلك الخاطر يتبدى لهـا حتى تسدل عليه ستائر كثيفـة من الانكار ، باذلة كل ما لديها من حجة لتئد الوسواس المتطفل عليها ·

كانت تقنع نفسها أن تقديرها لابن أبى عامر انمـا يعود لمواهبه الممتازة ، واخلاصه فى عمله ، واخلاصه لها ، وكانت ترتاح الى ذلك المنطق الذى يبـدو لها كأنما يقنعها ، ويشيع فيها طمأنينة وأمن ، ولكن على الرغم من أنها لم تعترف لنفسها أبدا بأنهـا تحبـه ، كانت فعالها تفصح عن هواها ، كانت تحبـه من كل قلبها ، كانت تهواه ، كانت نفسها تهفو اليه اذا غاب عنها ، وتهش له اذا أقبل عليها ، وتنصت فى شغف الى حديثه ، وتنظر بارتياح الى فعـاله ، ان هـذه الاحساسات ان دلت على شىء ، فانما تدل على الحب ، والحب العميق ·

كانت صبيحة تحب كاتبها ، وان أنكرت ذلك ، تحبه وان خشيت أن تفكر فيه ·

انطلقت صبيحة الى الحكم بعد أن أقنعت نفسهـا أنها تقدر ابن أبى عامر لكفايته ودخلت عليه فى نضارة زهرة الربيع ، فنظر اليها مشرق الوجه ، وقال :

ـ ما هذه الروعة يا صبح ، وما هذا الجمال ؟

فابتسمت صبيحة وقالت فى دلال :

ـ انك يا مولاى ترانى دائما بعين الهوى ·

ـ تعالى يا صبح واجلسى ·

وقعدت ، وقعد الخليفة يرنو اليها ، ثم قال :

- كاد حسنك ينسينى ما كنت أفكر فيه ·

- وفيم كنت تفكر ؟

- كنت أفكر فى رجل مخلص لنا أجعله وكيلا لولى العهد ·

- وهل وجدت الرجل ؟

- كنت أستعرض فى رأسى رجال القصر واحدا واحدا ·

- وهل آثرت أحدا ؟

- والله يا صبح لم يستقر رأيى بعد ·

- لماذا يا مولاى لا تسند الى ابن أبى عامر هذا العمل ؟

- لم أفكر فيه ·

- لماذا ؟

- لأنه لا يزال صغيرا ·

- ولكنه كفء ، ازدهرت ضياعى بعد اذ تولى ادارتها ·

- أرى أنه حدث لم تحنكه السنون ·

- وما قيمة السنين ما دام قد أثبت جدارته ·

- انها عمل خطير ·

- ما كنت أتردد فى ترشيحه لأجل منها ·

فأطرق الحكم وقال :

- سأفكر فى ذلك يا صبح ·

وفكر الحكم فى ابن أبى عامر ، وكان منصفا بطبعه ، فلم يدهشه ترشيح صبيحة لذلك الشاب ، بل

استصوب رأيها ، ومال اليه ، فقد رجحت كفته بعد أن استعرض رجاله فى مخيلته ، فرآه أكفأهم جميعـــاً ، فما من عمل قام به الا نجح فيه ، وما من أحد تعاون معه الا وثق به ، انه محبــوب من الجميع ، وان ذلك الحب ليمهد له الطريق دائما ٠

وقر رأى الحكم على أن يجعله وكيلا لولى العهد ، فما أقبلت عليه الاميرة حتى قال لها :

ــ أين كاتبك ؟

ــ يحرر ما أصدرت اليه من أوامر ٠

ــ ابعثى فى طلبه ٠

ــ لماذا يا مولاى ؟

ــ سأجعله وكيلا لعبد الرحمن ٠

انشرح صدر صبيحة وقال الخليفة :

ــ انه سعيد الطالع يا صبح ، يصــبح كاتبا لك ، ووكيلا لأملاكك ، ووكيلا لعبد الرحمن ولمـــا يتجاوز السادسة والعشرين !

## ١٢

فارس ينطلق كالسهم فى طرقات قرطبة ، فينحسر الناس عن طريقه مسرعين ، ثم يرمقــونه مذهولين ، وتقفز الى أذهانهم أفكار وتصورات ٠ انه جندى أغبر أشعث يتفصد منه العرق ، ويلوح عليــــه الجهــد والاعياء ، عاد من الميــدان يحمـــل أنبـــاء الى قصر الزهراء ، فراح الناس يخمنون ما جرى ، وأخذ كل

واحد يروى ما صوره له خيـــاله ، فذاعت الشائعات قبل أن يصل الفـــارس الى القصر ، وقبـــل أن يبـــلغ رسالته .

وانساب الفارس فى مسالك القصر كالريح ، وبلغ منازل الجنود ، فترجل عن فرسه ، وسار فى ردهات القصر مبهور الأنفاس ، حتى اذا بلغ مجلس الخليفة التمس الاذن بالدخول .

ودخل على الحكم ، فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض ، ثم اعتدل ودفع اليه الرسالة التى يحملها ، فتناولها الخليفة وفضها ، وأخذ يقرؤها فتغير وجهه ، وبان فيه الكمد ، وأشار بيده الى الجندى فانصرف ، وبقى وحده يذرع الغرفة صـــاعدا هابطا وقد تملكه غضب شديد ، فقد أحنقه قتل قائده الذى بعثـــه الى المغرب لتأديب الحســـن بن كنـــون الادريسى ، الذى تذبذب بينه وبين الفاطميين .

وضاق ببغضه ، فأرسل الى المصحفى ، فقد أهمه الأمر ، وشعر بكبريائه تجرح ، فما دار بخلده أن تنزل بجنوده مثـــل تلك الهـــزيمة التى حاقت بهم على يد الحسن بن كنون .

وأقبل المصحفى ، ونظر الى وجه الخليفة ، فراعه ذلك العبـــوس والتقطيب ، فأوجس خيفـــة ، وقال فى اضطراب :

ـ ماذا جرى يا مولاى ؟

ـ قتل محمد بن القاسم .

فاربد وجه المصحفى، وعقد الحزن لسانه ، فصمت برهة لا يدرى ما يقول . وقال الخليفة :

— قتل بعد أن استولى على طنجة وقتل معه خلق كثير ، وفر الباقون الى سبتة وتحصنوا بها ، وثار أمراء الأدارسة علينا ·

— خطب جليل ·

فقال الخليفة فى غضب :

— لن يطول انتصارهم . سأبعث اليهم من لا قبل لهم به . سأبعث اليهم غالبا الناصرى، يدك حصونهم، ويزلزل أرضهم ، ويحصدهم حصدا ، ويشتتهم بددا ·

وأطرق المصحفى ، وقد تحركت عقارب الغيرة فى صدره ، كان لا يحب غالبا ويخشاه ، ان غالبا خاض غمار حروب كثيرة وخرج منها منصورا ، فتألق نجمه ، وصار يهدد المصحفى فى حجابته ، وهم بأن يخذل الخليفة عن قائده الحبيب ، وأن يشير عليه بقائد آخر ، ولكن خطر له خاطر : ان خروج غالب الى مراكش فى مصلحته ، ففيه ابعاده عن الخليفة ، ومن يدرى فقد يخرج كما خرج محمد بن القاسم ولا يعود هو الآخر ، واستراح الى ذلك الخاطر ، فقال محبذا بعث غالب :

— والله ليس لهم غيره ·

وأرسل الحكم الى قائده فجاء ، ودخل عليه بقامته المديدة ، ووجهه الجاف ، وجعفر المصحفى عنده ، فحيا الخليفة فى خضوع ، ورمى المصحفى بنظر شزر ، فقد كان يمقته ويزدريه ، وما كان يدارى

شعوره نحوه ، بل كان يعلنه فى صراحة الجندى الخشن ، انه لا يراه أهلا للمنصب الرفيع الذى يشغله ٠

وأفضى الخليفة الى قائده بنبأ مقتل محمد بن القاسم ، وبعثه فى جيش جرار لسحق الأدارسة ، واعادة هيبة الدولة ، فخرج غالب يجمع الجموع ، ويتأهب للخروج ٠

وتم تجهيز كل شىء ، فأعطى الخليفة قائده أموالا عظيمة ، وخرج يودعه ، وقبل أن يتحرك الجيش اللجب الى مراكش ، التفت الحكم الى غالب وقال له :

ـ يا غالب ! سر مسير من لا اذن له بالرجوع حيا الا منصورا أو ميتا معذورا ، ولا تشح بالمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس ٠

## ١٣

جلس ابن أبى عامر يكتب ، وراحت صبيحة ترمقه فى اضطراب ، ولاح فى صفحة وجهها الجميل قلق ، كانت تمد بصرها اليه فتتألق عيناها ببريق أخاذ ، ولكن سرعان ما تسبل جفنيها ، وتمرر يدها على جبينها ، كأنما تمسح ما فى ذهنها من أفكار ٠

فتحت عينيها الساحرتين ، ورنت اليه مسحورة ، وما كاد بصرها يستقر على وجهه الجذاب حتى أشاحت ببصرها عنه مرغمة ، وتوترت أعصابها ، كانت فريسة

طيعة لأفكار جبارة ، أخذت تتوارد عليها فى قسوة واصرار ٠

كانت كلما نظرت الى وجهه ، ووقعت عيناها على شفتيه ، تذكرت ما رأته فى نومها فترتجف ، ويخفق قلبها فى خوف ، وتفكر فى الفرار ! رأت نفسها فى حدائق الزهراء تغنى فى مرح ، وابن أبى عامر اخذا يديها فى يديه ، حتى اذا أتمت أغنيتها ضمها اليه فى وله ، وقبلها فى اشتهاء ٠

كانت تحس طعم تلك القبلة التى نالتها فى المنام لذيذا على شفتيها ، بل أحست طعمها الشهى فى روحها ، ولكنها راحت تنكر جاهدة ذلك الاحساس ، وتوهم نفسها أن ما رأته فى المنام ان هو الا أضغاث ، على الرغم من أن روحها كانت ترحب بتلك القبلة فى اليقظة ، وعلى الرغم من أن قلبها يهفو اليها ويشتهيها ٠

واستمرت المعركة ناشبة بين جوانحها ، مشاهد الرؤيا تحتل تفكيرها ، واحساساتها تتآمر عليها ، وعقلها يهب للذود عنها ، فيقف حائلا بينها وبين ما يقلقها من تصورات ٠

اشتهت أن تمرر يدها فى حنان على شعره ، وأن تلمس بأناملها وجهه ، فدنت منه ، وشعرت بقوة طاغية ترغمها على رفع يدها ، ولكن سرعان ما كبحت جماح نفسها التى كادت تستسلم للأوهام ، وعجبت لذلك الخاطر المجنون الذى استولى عليها ، وفكرت فى ترك المكان ، وساءها أن تفر ، ففرارها اقرار منها بصدق ما يعتمل فى صدرها من مشاعر ، وهى لا تحب أن

تعترف حتى لنفسها بما تكابد من حب جارف جبار ٠

وثبتت حيرى ، فما كانت تستطيع أن تديم النظر اليه . أو تقضى على عواطفها الثائرة المتمردة ، فذلك الحلم أيقظ مشاعرها الكوامن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت تلتقط أنفاسا مضطربة ٠ وراحت تعلل نفسها بأن ما تشعر به ان هو الا صدى لرؤياها المتطفلة ، لا يلبث أن يزول ٠

وتقدمت نحوه مسلوبة الارادة ، كأن قوة خفية طاغية لا تقهر تدفعها دفعا ، حتى اذا وقفت عند رأسه مالت عليه تنظر بعيون زائغة قلقة ، فى الرقعة التى كان يكتب فيها ، فاشتد وجيب قلبها ، وأحست رعدة تسرى فى بدنها ، ودنت أنفاسها من شعره فملأت رائحته خياشيمها ، واقترب وجهها من وجهه ، واختلطت أنفاسها بأنفاسه ، وتلاقت عيناها بعينيه ، فدار رأسها ، وكادت تفقد نفسها ، وترتمى فى أحضانه ، وتلثم فى نهم شفتيه اللتين أطبقتا على شفتيها فى المنام ، ولكنها انتبهت فجأة واذا بزاجر قاس يتحرك فى أغوار نفسها فينهاها فى قسوة ، فابتعدت عنه ، ولم تستطع أن تمكث بقربه أكثر من ذلك ، فدارت على عقبيها وتركت المكان ، فرارا بنفسها التى كادت تستسلم لهواجس هجست بين جوانحها ، فى لحظة من لحظات الضعف البغيض ٠

وابتعدت صبيحة حتى اذا ما هدأت ، وأفرخ روعها ، طفقت تلوم نفسها على ضعفها أمام هواتف كواذب ، ولم تعترف بأن ما تشعر به نحو ابن أبى عامر حب صادق ، بل حب عميق جارف جبار ٠

## ١٤

وراحت صبيحة ترعى ابن أبى عامر ، فجعل يرقى سلم المجد سريعا ، فصار ناظرا لخزينة الدولة ، وما كانت تلك الوظيفة الا خطــوة من الخطا التى يقطعها فى طريق الحظ البسام ، الذى مهدته له الأميرة التى تهفو اليه كل جارحة من جوارحها وتشــتهيه ، وان أنكرت ذلك غاية الانكار ٠

ولم تكتف بما بلغه حبيب الفؤاد، فسرعان ما مدت له يدها الكريمة ، لتعاونه على ارتقــاء درجة أخرى من درجات المجــد ، الذى كان يرقاه صــعدا ، فعين للنظر فى أمانة دار السكة ، فأصبح فى قبضته مبالغ وفيرة من الأموال ٠

واتجهت اليه الأبصار ، وتوطدت بينه وبين رجال الدولة أواصر الصــداقة ، وأصــبح صديقا حميمــا للوزراء ، وكان ابن جذير الوزير أكثر الوزراء حبا له وتقديرا ، فصار علما من أعلام الأندلس المرموقين ، ذوى النفوذ والسلطان ٠

رأى ابن أبى عامر وفرة ما فى عهدته من أموال ، فعزم على أن يؤلف قلوب الناس ، وأن يكون له طبقة من الأنصار والأتباع ، فراح يعطى عطاء من لا يخشى الحساب ، فأصبح قبلة المحتاجين من رجال القصر ، ومن نفدت مواردهم من أصحاب النفوذ فى الشعب ٠

وفى يوم دفع محمد بن أفلح ، وهو مولى من موالى الحكم المقربين ، الى ما لا يحتيقه من نفقة عرس ابنة له ، ولم يبق معه الا لجام محلى ، ثقيل الوزن ، ردىء العيار ، وتقاعد عنه التجار ، فانقطع به أمله ، وضاقت به الأسباب ٠

فكر فى أن يطرق باب الخليفة مولاه ، ولكنه أحجم خشية وهيبة ، ووقع فى نفسه قصد ابن أبى عامر صاحب السكة ، فقد ذاع كرمه ، وسار ذكره الطيب بين الناس ٠

ودخل عليه ابن أفلح وهو يضطرب ، خوفا من أن يرده مكسور الجناح ، وراح يعرفه رغبته فى صوت خافض ، فسارع ابن أبى عامر بأطلق وجه وقال :

ـ سر الى بدار الضرب ٠

وعاد ابن أفلح الى داره ، وجاء باللجام ، ثم ذهب الى دار الضرب ودخل على ابن أبى عامر ، والدراهم المطبوعة بين يديه ، فلما رفع ابن أبى عامر رأسه ، ورأى مولى الخليفة أومأ اليه ، فأخرج اللجام وهو خائف من صرفه لسقوط عياره ، فما نظر اليه ولا عايره ، وراطله باللجام بحدائده وسيوره ، فأخذ ما لم يدر فى وهمه أنه يظفر بمثله ، وعظم ابن أبى عامر فى عينيه ، وقام عنه وحجره ملآن ٠

وانطلق الى داره وهو يفكر فى ابن أبى عامر ، فأحس حبه يملأ فؤاده ، حتى لو دعاه الى معصية الحكم لما قعد عنه ٠



وانشرحت صبيحة لتألق نجم حبيبهـا ، ورضيت غاية الرضا ، وما كان يعكر صفوها أحيانا الا بذور الاتهامات التى كانت تنبت فى صدرها فتقلقها ، كانت تصغى على الرغم منها الى وسوسات نفسها الخافتة التى كانت توصوص فى أغوارها أن ذلك الاهتمام لا يمكن أن يكون لمجرد التقدير البرىء ، وكانت تهب تدافع عن نفسها فى حرارة ، حتى تقنع نفسها بأنهـا لا ترعـاه الا لكفايتـه ، ولكن سرعان ما تعـود الوساوس الخافتات الى صدرها الذى كان يضيق بالاتهامات المفتراة !

كانت صبيحة تحبه ، وكان ذلك الحب يزداد على مر الأيام، وكان يزيده الحرمان ضراما ، كانت تعاونه لانها تهواه ، ولكن كان يروعهـا أن تعترف لنفسها بذلك الحب الذى ملأ الفؤاد ، بل سيطر على الجوارح والحواس •

وفكر ابن أبى عامر فى أن يهدى الى الأميرة هدية جليلة ، اعترافا بفضلها ، فجلب أمهر الصناع ، وعهد اليهم بصنع تحفة فريدة ، تفوق روائع قصر الزهراء ، فراحوا يصنعون من الفضة نموذجا صغيرا لقصر من قصور الأندلس الرائعة، فأبدعوا ماشاء لهم الابداع ، فجاء النموذج آية من آيات الفن والجمال •

ووافى اليوم المرتقب ، يوم حمـل الهدية النفيسة من دار ابن أبى عامر الى قصر الزهـراء ، فاصطف النـاس على جانبى الطـريق لرؤية التحفة النـادرة المثال • وخرج موالى ابن أبى عامر يحملون النموذج

الرائع . فنظر النـاس وقد بان فى وجوههم الدهش والاعجاب ، وسـار الموالى حتى دخـلوا القصر ، فاستقبلتهم الاميرة يحف بها ابن أبى عامر والمصحفى وبعض رجال البلاط .

ونظرت الأميرة الى الهدية ، فلمعت عيناها ببريق الغبطة ، وتطلق وجهها ، كانت الهدية رائعة غاية فى الروعة . ولم تستطع أن تكبت سرورها ، فالتفتت الى ابن أبى عامر ، وترجمت عن اغتباطها بأعذب كلمات ، فانقبض صـدر المصحفى الذى كان ينقبض اذا ما ازجى الى غيره الثناء ، وأحس عقارب الغيرة تلسعه فتضنيه ، وخشى أن يفضح وجهـه مكنون صـدره ، فاغتصب ابتسامة كلفته جهدا ما أقساه .

وفطن ابن أبى عامر الى الأثر الطيب الذى خلفته هديته فى نفس الأميرة فاغتبط ، وشجعه ذلك على أن يفكر فى أن يهدى اليها هـدايا أنفس من تلك الهدية التى كلفته كل ما ادخر من مال .

وترادفت هداياه ، فكانت كل هدية تفوق سابقتها روعة وجلالا ، فأشرق وجه الأميرة ، فقد كانت ترى فى تلك الهدايا دليلا على الوفاء ، وكان ذلك الوفاء يبهجها ، ولكن الوسوسات الخافتات الهامسات فى أعماق نفسها أن تلك الهدايا دليل على شىء آخر أعظم من الوفاء ، كانت تعكر تلك البهجة ، فما كانت تحب أن تعترف لنفسها صراحة بأن تلك الهدايا دليل على الحب والهيام .

وأهم المصحفى عطف الأميرة على كاتبها ، فراح

يفكر فى وسـيلة يكيد بهـا لابن أبى عامر ، دون أن يسفر عن وجهه ، حتى يأمن غضب صـبيحة وحتى لا يكسب عداوة جديدة لا يطيقها ٠

وراح سيال الفكر ينتقـل به من فكرة الى فكرة ، حتى اطمأن الى فكرة ، فبيت النية على انفاذها ، ففى يوم اصطف الناس على جانبى الطـريق يشـاهدون الهدية الجديدة الفخمة التى يحملها ابن أبى عامر الى ولية نعمته ، فاندس أعوان المصحفى بين الجماهير ، وقد تأهبوا لتنفيذ الخطة التى رسمها سيدهم ٠

خرج ركب فاخر من ديار ابن أبى عامر ، كل ما فيه ينطق بالروعة والبذخ والاسراف ، انطلق الركب وقد استحوذ على لب الناس ، وحاز اعجابهم ، ولكن ذلك الاعجاب لم يدم طـويلا فسرعان ما شـوهه أعـوان المصحفى ؛ راحوا يتساءلون فى خبث عن مصدر تلك الأموال التى تنفق دون حساب ، فألقى الناس اليهم آذانا مصغية ، وما غاب الركب فى قصر الزهراء ، حتى كان أهل قرطبة يخوضون فيما خاض فيه أعوان المصحفى ، ويتهمون ابن أبى عامر بأنه يأخذ من بيت المال ، ليشترى هداياه الغالية التى يقدمها الى الأميرة مجاملة وتقربا ٠

وأوسع المصحفى الأرض اذاعة، وكانت الاتهامات جديرة بالتصديق فآمن بها الناس ، فما كان ابن أبى عامر الذى أصبحت داره قبلة المحتـاجين يملك من الأموال ما يغطى هداياه وعطاياه ٠

ولمس المصـحفى نجاح تدبيره فاغتبـط ، وترقب

صـــابرا بلوغ تلك الاتهامات الى مســـامع الخليفة ، ليجنى ثمرة ما دبر ، ولكن الاتهامات كانت تطــوف بالبلاد ، حتى اذا بلغت القصر وقفت على بابه لاتجرؤ على الولوج . فاستاء وانتظر على مضض حتى عيل صبره ، وأخيرا لم يجد مفرا من أن يدس الى الخليفة من ينقل اليه اتهامات النـــاس لابن أبى عامر ، وفكر فى ابنه محمد ، ولكنـــه لم يطمئن الى تلك الفكرة ، خشى أن تفطن الأميرة الى أن ذلك من تدبيره ، فاختار رجلا من المقربين الى الخليفة ، وبعثه اليـــه ليخبره خبر الناس .

وأفضى الرجل الى الخليفة بما يهمس به شـــعبه . فتغـــير الخليفـــة ، وضاق صـــدره ، وبعث فى طلب المصحفى ، وقد بان فى وجهه الضيق والغضب ، وجاء المصحفى يسعى خفيفا تداعبه أمال وأحلام ، ومثـــل بين يدى مولاه ، فقال الخليفة فى ثورة :

ـ ما هذا الذى يقوله الناس يا جعفر ؟

فقال المصحفى فى دهش متكلف :

ـ ماذا يا مولاى ؟

ـ أما بلغك أن الناس يقولون ان كاتب صـــبيحة ليس أمينا على ما فى عهدته من أموال ؟

وحـــذر المصحفى أن ما ســـيقوله ســـيبلغ الأميرة فقال :

ـ لعلها وشاية حاسد يا مولاى .

ـ ومن يدرى ، لعلها الحقيقة يا جعفـــر ، فلنحقق هذه الاتهامات .

ـ أمر مولاى ٠

وخرج المصحفى ليبعث فى طلب ابن أبى عامر راضيا مغتبطا ، فعما قليل يفتضح أمر ذلك الشاب ، ولن تنقضى ساعات حتى ينجح تدبيره ، وجىء بكاتب صبيحة ، فقال له الحكم :

ـ يتهمك الناس يا محمد بتبديد ما فى عهدتك من مال ٠

فأحس ابن أبى عامر بالأرض تميد به ، وشعر بمطارق هائلة تهوى فوق رأسه ، وكاد ينهار ٠ كان ذلك القول صدمة هائلة لم تكن فى الحساب ، ولكنه تجلد ، وحاول أن يخفى ما اعتراه من اضطراب ٠

ورنا اليه المصحفى ، فرأى الوجه الجميل قد اصفر ، وغامت نضارته ، حتى كاد يحاكى وجوه الموتى ، فأثلج صدره ، فما كان ابن أبى عامر يضطرب كل ذلك الاضطراب ما لم يكن العجز جسيما لا يجبر ٠

وقال الحكم :

ـ متى تقدم حسابا على ما فى حوزتك ؟

فقال ابن أبى عامر :

ـ غدا ٠

وانصرف وهو يفكر فى تلك الكارثة التى نزلت به ، فقد أنفق دون حساب من أموال الدولة فيما قدم الى الأميرة من هدايا ، وفيما أعطى للائذين به من أصحاب الحاجات ٠

وسار فى ردهات القصر ، وقد تملكه اليأس ، وظل

مغمـوما حتى اذا غادر القصر ووجـد الظـلام يلف قرطبة زاد انقباضه ، وانطلق مطأطىء البصر ، ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه ، وعادت اليه ثقته . فأقنع نفسه بأن أمامه الليل الطويل يفكر فيه ويدبر ، فطرد اليأس من قلبه ، وراح يعمل فكره للخروج من ذلك المأزق الذى لم يخطر له على بال .

ودخـل الحكم على صـبيحة ، وقد علت وجهـه سحائب من الحزن ، وفطنت الى تغيره فقالت :

ـ ما بك يا مولاى ؟

فقال الحكم فى أسى :

ـ أمر كاتبك يقلقنى .

فاضطربت الأميرة ، وغاص قلبهـا فى جوفهـا ، وخشيت أن تكون الوساوس التى تقلقها بذرت بذورها فى صدره ، فقالت فى نبرات قلقة مرتعدة :

ـ ما به ؟

ـ اتهمه الناس بأنه مد يده الى بيت المال ، ليشترى لك هداياه .

فقالت الأميرة فى انكار :

ـ فرية من غير شك .

فقال الحكم وهو يمد بصره بعيدا عنها :

ـ من يدرى ؟ ! غدا يتضح كل شىء .

ـ غدا ؟

ـ أجل يا صبح ، فقد وعدنا أن يقدم فى الغد حسابا عما فى عهدته من أموال .

أطرقت الأميرة تفكر ، وقد نزل بها هم ثقيل ، فلو

ثبت أن ابن أبى عامر مد يده لبيت المال ليقدم كل تلك الهدايا التى شرحت صدرها ، لنال ذلك من كبريائها ، ولكدرها كدرا شديدا ، وأحست عطفا عليه ، فتمنت من كل قلبها أن يكون الغد له لا عليه ، وأن يخلص مما وجه اليه من اتهامات كما يخلص الثوب من أدرانه ، اذا ماصوه بالماء ٠

## ١٥

وطلع النهار ، فتسللت أشعة الشمس الى مخدع صبيحة ، فنهضت فى تثاقل ، وبان فى وجهها الجهد ، فما ذاقت النوم الا غرارا ، فقد احتلت قضية كاتبها كل تفكيرها ، ففر النوم مبتعدا ، فما كان يطوف بالمهمومين الذين استولت عليهم تصورات وأفكار وأشباح ٠

وهرع المصحفى الى القصر فى البكور ، منشرح الصدر ، متفتح النفس، فما هى الا لحظات حتى ينهار صنيعة الأميرة ، الذى راح يزاحم أولاده وأقاربه وأصهاره ، ويجنى ثمرة صبره الطويل دون اغضاب الأميرة أو ايغار صدرها عليه ٠

وأقبل ابن أبى عامر هادىء النفس ، مرفوع الرأس ، وانطلق فى ردهات القصر ثابت الخطو ، حتى اذا دخل على المصحفى حياه فى رقة ، وظل منطلق الوجه ، فعجب المصحفى لذلك الشاب الفولاذى الذى

لا يضطرب ، وما بينه وبين الفضيحة الا لحظات ٠

ودخل المصحفى وابن أبى عامر على الخليفة ، فرمق الحكم الشاب بنظرة فاحصة ، فألفاه ثابت الجنان ، وأراد أن يستشف دخيلته من نبرات صوته ، فقال :

ـ كيف الحال يا محمد ؟

فقال ابن أبى عامر فى ثبات واطمئنان :

ـ على ما يسر مولاى ٠

فابتسم المصحفى ابتسامة سخرية ، فقد كان على يقين أن الحال لا يسر أحدا غيره ، فالخزائن عبثت بها يد الشاب الذى غره عطف الأميرة عليه ٠

وقام الخليفة ، وذهب الى خزائن المال ، والمصحفى وابن أبى عامر خلفه ، حتى دخلوا دار الضرب ، فقدم كاتب صبيحة دفاتره ، فاذا بها منسقة منمقة كأحسن ما تكون دفاتر الحسابات ، ثم فتح خزائن المال ، وجرد ما بها ، فاربد وجه المصحفى، فقد أحنقه سلامة مال الدولة ، وساءه انهيار آماله ، وتقوض ما دبر فى صبر وأناة ٠

وعجب المصحفى واشتد عجبه ، اذ كان على يقين من أن خزائن الدولة لم تكن بالأمس على ما يرام ، فكيف نجح ابن أبى عامر فى أن يسوى خزائنه فى ساعات ؟ وفكر ولج فى التفكير ، فلم يهتد الى الوسيلة التى انتشل الشاب بها نفسه من التردى فى مهاوى الفضيحة والعار ، ولكنه اهتدى الى أن ابن أبى عامر ليس صيدا يسهل اقتناصه أو ايقاعه فى الشباك ٠

وأحس الخليفة أنه قد جنى على الشاب القدير ،

وأساء الظن به ، فرأى أن يزجى اليه عبارات التقدير ليخفف من وقع الاتهام ، فقال له :

ـ سرنا يا محمد ما رأينا ، واننا نقدر كفايتك واخلاصك لنا ٠

فقال الشاب فى حرارة :

ـ أنا خادمكم الوفى ٠

وسار الخليفة يفكر فى الشاب العجيب ، وخلفه المصحفى وابن أبى عامر ، وكان صدر المصحفى كمرجل يفور غيظا ، أما ابن أبى عامر فقد نزلت به السكينة ، وانبسطت أساريره ، ولمعت عيناه ٠

وأقبلت صبيحة كأنما كانت فى مكان قريب ترقب وفود الخليفة ، ومدت بصرها الى وجهه واجفة . فأشرق وجهه بابتسامة حلوة ، نزلت بردا وسلاما على قلبها ، وشاءت أن تسمع منه براءة كاتبها ، فقالت :

ـ ماذا وجدت يا مولاى ؟

فالتفت الحكم الى المصحفى وقال :

ـ صدق جعفر ، انها وشاية حاسد يا صبح ٠

فاغتصب المصحفى ابتسامة ، وان شعر بطعم الصاب فى فيه ، والجفاف فى حلقه ، وبوخز شديد فى جوفه ٠

ودخل الخليفة وصبيحة دار الكتب ، وانصرف جعفر وابن أبى عامر ، ومد الحكم يده يتناول كتابا وهو يقول :

— كاتبك يا صبح جدير بالثقـة ، فهو شـاب نادر المثال ٠

فدنت صبيحة منه وقالت :

— وبماذا سنكافئه يا مولاى ؟

— هذا ما أفكر فيه يا صبح ٠

— أرى أن نرفعه ، لنقطع ألسنة المتخرصين ٠

— انه كما قلت ياصبح جدير بأرفع مناصب الدولة٠

— ماذا يا مولاى لو جعلناه المفتش العام ؟

— هو لها ٠

ودبر المصـحفى ، ودبر الحظ ، ففشـل تدبـير المصحفى ، وراح يجرجر ذيل الخزى ، بينا نجح الحظ فى أن يرفع حليفه على أنقاض الدسيسة التي دبرت فى مهـارة ، لتهـوى به الى الحضيض ، وتمرغه فى الاوحال ٠

★ ★ ★

ذهب ابن أبى عامر الى داره منشرح الصـدر ، واضطجع على أريكة بديعة ، وأطلق لخياله العنان ، فراح يعرض حوادث الليلة الهائلة فى عجب واعجاب ٠ واجهه الخليفة بالاتهـام ، فهـوى عليـه كصـاعقة قاضية ، فخانته الجوارح والحواس ، لم يجد لسانه لينفى ذلك الاتهام ، وكيف ينفيـه وهو أعلم النـاس بصدقه ؟ انه أنفق من بيت المال الآلاف فى سبيل ما قدم للأميرة من هدايا ، وللناس من عطايا ٠

تملكه يأس قاتل فى تلك الليلة ، فقنط ، وكاد يركن الى الاستسلام ، لولا حسن طالعه الذى حالفه ، وطفق

يشد من أزره فى كل آونة وآن · برقت فى ذلك الظلام بارقة أمل ، فأحيت موات نفسه ، فقد قفزت الى ذهنه فكرة : انه يستطيع أن يسأل صديقه العزيز ابن جذير أن يعيره تلك الآلاف ، حتى اذا اطمأن الخليفة الى خزائنه ، أعادها الى صديقه الوزير ، الذى يحبه ويقدره · واطمأن الى ذلك الخاطر ، فانطلق فى جوف الليل الى دار صديقه ، وأفضى اليه بهمومه ، فكان ابن جذير عند حسن ظنه ، فأعطاه ما يجبر ما عنده من عجز ·

وحمل الأموال ، وقفل راجعا الى القصر ، ووضع فى خزائنه ما استدان من أموال ، ثم انطلق الى داره · وبات يرقب طلوع النهار فى اطمئنان ، فقد عمل فى مهارة على أن يبرىء ساحته ، وأن يقف أمام الجميع مرفوع الرأس ·

## ١٦

ساء المصحفى ذلك النجاح السريع الذى أحرزه ابن أبى عامر ، فما كان يدور فى خلده أن يبلغ ما بلغه فى ثلاث سنين · لقد كان يرى فيه منافسا خطيرا لولديه ، ولكنه لم يكن يشعر نحوه ببغض أو غيرة ، أما وقد وثب تلك الوثبات الواسعة التى يقضى غيره عمره المديد دون أن يبلغها ، فقد أحس نحوه بمقت ممزوج بخوف شديد ·

كان هم المصحفى أن يثبت أقدامه ، ويذود عن

نفوذه ، وما كان يخشى شيئا خشيته فقد سلطانه · كان يضايقه أن يبرز سواه ، وكان يرى فى جميع المبرزين منافسين له ، فكان يبذل ما فى طاقته ليخفيهم عن أنظار الخليفة ، وقد نجح فى اقصاء كل منافسيه ، ووافق على خروج غالب الى مراكش ، وهو يمنى النفس بأن يقتل هناك كما قتل محمد بن القاسم ، ولكن غالبا هزم الحسن بن كنون ، ودوخ الادارسة . فازداد نجمه تألقا ، وزاد حب الخليفة له ، فاغتاظ المصحفى ، ولكنه كظم غيظه ، فقد صار غالب غريما شديدا يهدد سلطانه بالزوال ·

وربما حقد المصحفى على غالب ، وأصبحت أمنيته أن تتاح له فرصة التخلص منه ، ولكن تلك الأمنية كانت عسيرة المنال ، فالحكم يحب غالبا ويثق فيه ، وما كان المصحفى بقادر على أن ينال من غريمه جهارا ، فلم يقنط ، وانتظر لعل الأيام تكون عونا له عليه ·

وتقضت الأيام والشهور ، ولم يجد المصحفى ثلمة ينفذ منها الى غريمه ، فظل يكتم حقده ، ويتواصى بالصبر : ويظهر للحكم وصبيحة ولاءه واخلاصه ، ليدعم مركزه الذى أصبح يخشى عليه كيد الحساد ·

وكأنما شاءت الأقدار أن تسخر منه ، وأن تزيد فى قلقه ، فلم تكتف بأن تضع فى طريقه غريما واحدا يقض مضجعه ويؤرقه ، بل جاءت له بغريمين ، وما كان غريماه كغيرهما من الناس ، والا لكان سحقهما يسيرا لا يحتاج الى روية وتدبر وتفكير ، ولكنهما

كانا فى ظل من العرش ظليل، هذا يحبه الخليفة مولاه ـ وذاك تحدب عليه الأميرة وترعاه . فما كان أمام المصحفى الا أن يرتدى رداء الدهاء ، اذا تحدث عن غالب أمام الخليفة تحدث عنه فى حذر شديد ، حتى لا يكشف عن خبيئة نفسه ، فكان يمدح غالبا ويطريه ، وفى أثناء ذلك يعرض به تلميحا ، وما كان الحكم يفطن الى ذلك التجريح المبطن بالرياء ، فكان المصحفى يغتاظ لفشله فى النيل من غريمه بتلك الطريقة الخبيثة المأمونة ، ولكنه لم يقنط أبدا ، ولم يعرف اليأس الى قلبه سبيلا .

وراح المصحفى يبتسم لابن أبى عامر ، ويظهر له عميق حبه وتقديره ، وكان يقاسى من ذلك أشد المقاساة ، ومما زاد فى حنقه عليه أنه لم يكن يجد منفسا لاحساساته الحبيسة فى صدره ، فلم يكن قادرا على أن ينال منه أمام الأميرة ، كما ينال من غالب أمام الخليفة ، كان على يقين من أن الخليفة قد يصفح عنه اذا أساء الى غالب ، ولطخه بالاتهامات ، أما الأميرة فلن تصفح عنه أبدا اذا خدش الشاب الذى تباركه وترعاه .

## ١٧

سر الأميرة خروج ابن أبى عامر من محنته موفور الكرامة ، ووجدت فى تبرئته فرصة تنفس فيها عن اعجابها ، فظلت تعدد مناقبه ، حتى صدق الخليفة

ما تردده ، ولم تكتف بما ناله كاتبها ، بل عملت جاهدة على أن تقربه من الخليفة ، فطفقت تدعوه ليشاركهما فى أوقات الفراغ ، فكان الشاب الآسر الجذاب يقبل على الخليفة ، يجاذبه أطراف الحديث فى لباقة ، وكان الخليفة يصغى اليه ، كأنما يصغى الى ساحر يستولى على لبه وحبه ومشاعره •

وبزغ نجمه ، فزاد ذلك فى حقد المصحفى عليه ، فطأطأ بصره ، وراح يقدح زناد فكره ليهتدى الى وسيلة تخلصه من ذلك المنافس الخطير ، كانت رعاية الاميرة هى العقبة الكأداء التى تتحطم عليها دسائس المصحفى ، فلو أنه نجح فى أن يرفع تلك الرعاية ، لاصبح النفوذ الى الشاب أمرا يسيرا ، ففكر فى أن يجرح عطف الاميرة على الشاب ، بأن يوحى الى أبواقه أن تذيع فى البلاد وجود علاقة شائنة بين صبيحة وكاتبها ، حتى اذا بلغت تلك الاذاعة مسامعها ، لم تجد فى نفسها الجرأة على أن تستمر فى رعاية الشاب ، الذى لغط الناس بوجود علاقة آثمة بينها وبينه •

وقلب الفكرة ، فوجد أنها خير ما يوصله الى مآربه ، فبعث الى بعض ثقاته ، وطرح عليهم ما استقر عليه عزمه ، ثم أوفدهم الى الناس ، ليهمسوا فى اذانهم خبر العلاقة المفتراة بين الأميرة وكاتبها •

وانطلق رسله ، فابتسم وفرك يديه سرورا ، فعما قليل ترتج قرطبة بحديث الحب الحرام ، فما أسرع

انتشار أخبار السوء ، وما أيسر تصديق الناس لتلك الأخبار ٠

واندس رسل المصحفى بين النـــاس فى مجالس لهوهم ، وأفضوا الى جلسائهم فى مهارة نبأ ما بين صبيحة وكاتبها ، ثم انسـلوا فى خفـة كما ينسـل الشيطان بعد أن يوسوس فى صدور الناس ٠

وراح كل يحدث صاحبه ، هـذا يقسـم أنه رأى صـبيحة تدخل دار ابن أبى عامر ، وذاك يقـول ان صديقا كبيرا من القصر أخبره أنه رأى الأميرة مرتمية فى أحضان كاتبها ، وثالث يروى قصة عجيبة مسبوكة عن كيفية لقاء العاشقين فى ضيعة بعيـدة من ضياع الأميرة ، ثم يسهب فى وصف ما جرى بين العاشقين ، كأنما كان ثالثهما ، فما أخصب أذهان الجماهير اذا نسجت خيوط فضيحة !

وما تقضت أيام ، حتى كانت مئات القصص المثيرة تروى عن الحب الآثم الذى نمـــا وترعرع فى القصر العتيد !

وبلغ المصحفى بعض ما يتنـدر به النـاس ، وما جادت به قـرائح الشـعراء ، فابتسـم وفكر فيمـا يقـولون ، فعجب غاية العـجب ، كانت سـخرياتهم لاذعة ، فلو أنه فكر ودبر وحده ، لما وصل الى ما بلغه الناس ٠

وعلمته تجاربيه أن الاتهامات لا تبلغ أصحابها الا أخيرا ، وهو ما أطلق تلك الترهات الا لتبلغ الأميرة ، وخطر له أن يذهب اليها ، ويرفع الى مسامعها حديث

الناس ، ثم ينفذ الى غرضه ، وهم بتنفيذ ذلك ، ولكن حرصه غلبه ، فاستدعى وصيفة الأميرة ، وقد عزم على أن يفضى اليها فى اشفاق بحديث ذلك الحب الذى طاف بالمدينة ٠

ودخلت الوصيفة عليه ، فتظاهر بالارتباك والحيرة ، وقال :

ـ والله لا أدرى كيف أبدأ حديثى ٠

فقالت الوصيفة فى لهفة :

ـ أى حديث ؟

فقال المصحفى فى صوت خفيض ، وقد نكس رأسه :

ـ حديث افك جديد ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أما بلغك ما يذيع الناس ؟

ـ وماذا يقولون ؟

فقطب المصحفى جبينه وقال :

ـ والله لا أدرى ماذا أقول ٠٠٠ ان الناس يهرفون بأن الأميرة تعشق كاتبها ٠

ـ خسئوا ٠

فقال المصحفى فى اشفاق :

ـ هذا الأمر يقلقنى ، وانى أفكر فيما يقطع دابر تلك التخرصات ٠

فأطرقت الوصيفة مهمومة ، ثم قالت :

ـ فلنستعن بالأميرة ٠

فقال حاجب الدولة فى خبث :

ـ لا ٠ ينبغى ألا نفضى الى الأميرة بذلك الحديث

الشـــائن ، فما اســـتدعيتك الا لأن ذلك الخبر أهمني وأقلقني . ففكرت فيمـــن أفضي به اليه ليشـــاركني فى قلقي وتدبيري . فلم أجد سواك . فما أنا بمستطيع أن أفضي به الى الخليفة أو الأميرة أو ابن أبي عامر .

فقالت الوصيفة فى حيرة :

— وما يمكننا ان نفعل ؟

فأطرق المصحفي قليلا ، ثم رفع رأسه ، وقال :

— فكرى وسأفكر .

وخرجت الوصيفة ، والمصحفي يشـــيعها ببصره ، ويفرك يديه سرورا ، ويبتسم فى خبث ، فهو على يقين من أنها ستقص ما جرى على الأمـــيرة ، فما وجدت المرأة التى تستطيع أن تطوى صدرها على سر .

ومرت أيام ، والوصيفة تكتم ما أفضي به المصحفي اليها ، ولكنها كانت تعانى قلقا وحيرة ، كانت تحس رغبة ملحة فى أن تبلغ الأميرة ما يقول عنها الناس . ولكنهـــا كانت تعـــود فتكبح تلك الرغبة ، وأصـــبحت فريسة لصراع شب فى جوفها ، فتبدل حالها ، واستولى عليهـــا اضطراب ، وفطنت الأميرة الى اضطرابها ، فجعلت ترقبها . فلاحظت أنها كانت تدنو منها ، وتهم بأن تقول لها شيئا ، ثم تغير رأيها فجأة ، وتبتعد كأن قوة هائلة تدفع بها بعيدا ، فاقتربت الأميرة منهـــا . وقالت لها فى رفق وحنان :

— ماذا يقلق خاطرك ؟ أراك مضطربة حائرة منـــذ أيام !

— لا شيء يا مولاتى .

وترقرق الدمع فى مقلتيها ، فأشاحت بوجهها عن الاميرة ، فقالت صبيحة :

- لا تخفى عنى شيئا ، فقد أستطيع أن اخفف عنك

- والله يا مولاتى انى فى حيرة ، انى كالغريق الذى لا يدرى ماذا يفعل ·

- افضى بما يقلقك ، فكلنا فى حاجة الى من نفضى اليه بهمومنا ·

- اقلقنى حديث مفترى ·

- أى حديث ؟

- حديث بهتان ذاع بين الناس ·

- ما هو ؟

- قال الشانئون ان مولاتى تحب كاتبها ·

واحست صبيحة قلبها يقفز فى صدرها فى ثورة ، حتى ليكاد يفر من فيها ، وصدرها ينقبض ، ودمها يتدفق حارا الى وجهها ، وغصة فى حلقها . وساءها ذلك الاتهام ، فشعرت بكرامتها تدمى ، وشاءت أن تتجلد امام وصيفتها ، فقالت فى أسى ومرارة :

- ما أيسر أن يخوض الناس فى أحاديث الافك ·

ولم تقدر على أن تملك عواطفها طويلاً . فطغت ثورتها ، فطفرت دمعة ساخنة من عينيها ، فقالت لها وصيفتها مواسية :

- جففى دمعك يا مولاتى ، فما يستحق ذلك البهتان ان تذرف دموعك الغالية ·

- ما أقسى أن يلطخ برىء باتهامات فاجرة ·

وانسلت الوصيفة من الغرفة ، وبقيت صبيحة

وحيدة ، منقبضة الصدر ، وقد خنقتها عبراتها ، واطرقت تفكر ، فجسمت أفكارها الأمر ، فربا ضيقها ، وطغى حنقها ، وزاد فى غضبها صيرورتها مضغة فى أفواه الجماهير ، فارتمت فى فراشها تبكى وتنتحب ·

## ١٨

راح المصحفى يرنو الى وجه صبيحة بعينه الفاحصة ، يستشف منه حالتها النفسية ، فكان يرى هدوءا وطمأنينة ، فيتريث ، فالوصيفة لم تفض اليها بعد بسرها ، وفى يوم رأى فى وجهها شحوبا وقلقا ، فانشرح ، فقد تيقن أن الوصيفة باحت لها بسرها ·

وفكر فى أن يفاتحها فى أمر ذلك الحب الذى ذاع أمره بين الناس ، وأن ينفذ من ذلك الحديث الى ما دبر ، ولكنه خشى ان هو تسرع وفاتحها فى ذلك الامر ، أن تثور لكرامتها ، فتتحدى فى رعونة تخرصات الناس ، فيفشل تدبيره فرأى أن يتركها لأفكارها تقلقها وتدك مقاومتها ، حتى اذا انهارت تقدم ليقودها مسلوبة الارادة الى حيث يشاء ·

وتريث أياما ، فزاد قلقها ، وزاد اضطرابها ، وطفق يرصدها كلما دنت من ابن أبى عامر ، أو دنا منها ، فكان يلمح اضطرابها وتلك الرهبة التى كانت تعتريها · أصبحت تخشى أن تبدى له ما كانت تبدى من ود ، حتى لا تأتى بما يزيد همسات الناس توكيدا ·

وضعفت صبيحة ، حتى فكرت فى أن تشكو الى المصحفى ما تقاسى من ذلك الاتهام الجائر ، ما دامت لا تستطيع أن تشكو الى ابن أبى عامر أو الخليفة ، ولكنها لم تفعل لأنها كانت تشعر بأن فى ذلك اهدارا لكرامتها .

وحزر المصحفى أنها انهارت ، وأن خير لحظة لتنفيذ مآربه قد وافت ، فدنا منها ، وقد قطب جبينه وقال :

ـ أقلقنى يا مولاتى ذلك الحديث المفترى .

فقالت صبيحة فى حزن :

ـ أوبلغك يا جعفر ؟

فقال المصحفى وهو يهز رأسه اشفاقا :

ـ بلغنى وأطار النوم من عينى .

فقالت الأميرة متلهفة :

ـ وماذا نفعل يا جعفر ؟

ـ فكرت ودبرت ، وأعيانى الفكر والتدبير ، فلم أجد يا مولاتى سوى حل واحد .

ـ وما هو ؟

ـ ابعاد ابن أبى عامر من قرطبة .

ـ لا يا جعفر ، فى ابعاده اعتراف منا بأنه اقترف ما يستحق الابعاد .

ـ لن ننجح فى كتم أنفاس تلك الفرية الا بابعاده .

ـ وما ذنبه ؟

ـ وما ذنبك أنت ؟ فكرى يا مولاتى فى أن ذلك الحديث قد يبلغ مولاى ، فما نقول له ؟

ـ نقول له : انه حديث مفترى .

- قد يترك ذلك الحديث فى نفسه شيئا ، فيتكدر صفو العيش .

- مولاى أحكم من ذلك .

- الزوج المحب غيور ، تقلقه الأوهام ، فما بالك يا مولاتى بحديث يتناقله الناس ؟

وتضايقت صبيحة ، فراحت تذرع الغرفة ثائرة كلبؤة حبست فى قفص ، ثم قالت :

- والله لا أدرى ماذا دهانى ، وما هذه الحيرة التى استولت على ؟ تشتتت أفكارى حتى صرت لا أدرى ماذا أفعل .

- ليس لنا الخيار يا مولاتى . ابعاده هو المخرج ، وليس لنا مخرج سواه .

فقالت الأميرة فى استسلام :

- وأين نبعثه ؟

- الى أى مكان ، ما أوسع الدولة !

- انه المفتش العام .

- وسيكون قاضى أشبيلية ، الحاكم المطلق لها .

فنظرت اليه الأميرة وقالت :

- كأنك يا جعفر فكرت فى الأمر ، وأعددت لكل شىء عدته !

فقال وهو يفرك يديه سرورا :

- وهل أنا هنا يا مولاتى الا لأفكر ، وأبعد كيد الحاسدين !

وسمعت صبيحة لمشيئة المصحفى ، فوافقت على أن يذهب ابن أبى عامر الى أشبيلية ، وما كان أمامها

الا أن تخضع ، أقلقتها تلك الفرية ، وباتت تخشى أن تصل الى الخليفة ، فيشوب ثقته شائبة تحط قدرها ، وتخفضها عن عليائها ٠

وساعدها على سرعة استجابتها للمصحفى ، ما كانت تقاسيه من ذلك الصوت المنبعث من جوفها يعاتبها ويلومها ، فقد هب يتهمها بأنها تحب كاتبها ، وأن كل تصرفاتها حياله تسفر عن ذلك الحب ، حتى ان الناس فطنوا اليه ، ورتبوا عليه ما أسعفهم به خيالهم ٠

وضعفت أمام اتهام نفسها ، حتى لم تجد أثرا لتلك القوة الغاضبة التى كانت تهب فى جوفها ، ولا تستقر حتى تقضى على ذلك الاتهام كلما نبت فى صدرها ، فلم تجد مفرا من اقصاء ابن أبى عامر ، لتقطع ألسنة الناس ، ولتستريح من ذلك الاتهام الكامن فى أعماقها تحت رماد من الطمأنينة الزائفة ، فاذا هبت رياح الشك ذرت الرماد ، فاندلعت ألسنة الاتهامات تحرقها بنارها ٠

وعلم ابن أبى عامر أنه أصبح قاضى أشبيلية ، فلم يغتبط ، فطن بذكائه الى أن الهدف الأول من ذلك التنصيب هو اقصاؤه عن القصر ، وفى اقصائه ازاحته عن طريقه المعبدة التى قطع أغلبها ، ولم يبق فيها الا القليل ليبلغ أقصى ما يتمناه طموح ٠

وتجهز ابن أبى عامر ، ولم يبق الا الرحيل ، فانطلق فى ردهات القصر حزينا ، وذهب الى الأميرة يودعها قبل خروجه من قرطبة ، فأحس غصة فى حلقه ،

وبلغ جناحها فأصلح من هندامه ، وأراد أن يبدو هادئا ، فاغتصب ابتسامة ، ولكن عينيه كانتا تفصحان عن الحزن العميق .

ودخل عليها فخفق قلبه ، وأفعم صدره بمشاعر متباينة ، كان يشعر بقلق ورهبة ، ويحس ضعفا لم يحسه من قبل ، ونظر اليها فأرهفت حواسه ، وخشى أن تخونه عواطفه ، فخفض بصره ، وقال فى صوت متهدج :

- انى راحل يا مولاتى .

فرنت اليه صبيحة فى حنان ، وهفت اليه نفسها حتى خطر لها أن تضمه الى صدرها ، لعل القلب الثائر فى جوفها يهدأ ، ولعل نار الشوق التى ترعى فى صدرها تنطفىء ، ولكنها أحجمت ، وقالت فى نبرات تنم عما تكابد من وجد واضطراب :

- فى رعاية الله يا محمد .

وشعر برغبة فى أن يقول لها : « الوداع يا صبح » ولكنه لم يجرؤ على انفاذ تلك الرغبة ، فقال فى صوت مخنوق :

- الوداع يا مولاتى .

فانقبض قلبها ، كأن يدا قوية تهصره ، وترقرق الدمع فى عينيها ، فقالت وهى تمد له يدها :

- الوداع يا محمد .

فصافح ابن أبى عامر اليد الكريمة ، وانحنى فى اجلال ، ثم دار على عقبيه ، وذهب لا يلوى على شىء . وقلبه فى صدره يدوى دويا ، ورمقته صبيحة من خلال

دموعهـــا حتى اختفى عن ناظريها ، فلم تســتطع أن تكبت عواطفها ، فسالت عبراتها على خديها •

## ١٩

خرج ابن أبى عامــر من عنــد الأميرة ، والحزن يهصر فؤاده ، فما خطر له على قلب أن ســيأتى يوم يطرد فيه من القصر ، وسار يتلفت فى قلق ، وقد غشى وجهه اظلام ، وانقبضت نفسه ، فقد كان يشعر بأنه أصبح غريبــا • كان ينطــلق بالأمس فى القصر ثابت الخطو ، وقد ملىء ثقة وأملا ، واذا به اليــوم يخرج منه خافض الرأس ، يحس نفسه ضئيلا •

ولمحه أصدقاؤه الذين غمــرهم بعطفــه ، فهرعوا اليــه يودعونه ، مظــهرين حزنهم على فراق الشاب الذى أسر قلوبهم ، وحتى ذانك المملوكان السلافيان فائق وجؤذر ، اللذان ما كانا يحبان أحدا فى القصر ، تقدما اليه وودعاه فى حرارة ، وترجما عمــا يحسان من أسى لبعاده •

وامتطى جواده ، وركب مواليه جيادهم ، وانطلق الركب الصغير يغــادر قرطبــة ، ووقف المصحفى فى شرفة من شرفات القصر يرقب الشــاب الذى خرج مهيض الجناح ، فأحس كأن ينابيع السعادة تتفجر فى جوفــه ، ففرك يديه سرورا • نجح تدبيره أخــيرا ، وأضحت قرطبة له وحده ، لا ينــازع سلطانه فيهــا سلطان •

وسار ركب ابن أبى عامر فى طرقات قرطبة ، فرفع الناس وجوههم الأسيفة ، ليتطلعوا الى الشاب الذى نجح فى اجتذاب قلوبهم اليه ، وأحزنهم مغادرته للبلاد كسير الفؤاد ، وساءهم أفول ذلك النجم الذى تألق فى قرطبة أعواما ، حتى كاد ضياؤه يبهر ضياء ما عداه من شموس وأقمار .

وأغذ الركب السير ، حتى اذا وفد الليل كانوا قد بلغوا نزلا فى الطريق ، فنزلوا فيه ، وخلا ابن أبى عامر بنفسه ، فأخذ يفكر ، وحاول أن يرسم لنفسه منهاجا يسير عليه فى اشبيلية ، ولكنه لم يجد من نفسه ترحيبا ؛ كانت نفسه تحن الى التفكير فى الماضى ، واجترار حوادثه الحبيبة .

رأى نفسه فى حانوته وحوله أصحابه ، ورأى نفسه فى متنزه بجهة الناعورة وهو يقول لرفاقه : « سأكون حاكم هذه الدولة يوما ما ، تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه اياها ، اذا أفضى الى الأمر » . ورأى نفسه فى قصر الزهراء مرموقا ، وصبيحة ، سيدة البلاد ، تحدب عليه وترعاه . ورأى المصحفى وهو يتودد اليه لما رأى عطف الأميرة عليه ، فابتسم فى مرارة ، فما كان حاجب الدولة مخلصا فيما يبدى من ود ، فلطالما تركه الساعات ينتظر فى دهليز قصره ، امعانا فى تحقيره ، فلما لمس رعاية صبيحة له ، أظهر له الحب ارضاء للأميرة .

وطفق ينظر الى المصحفى من زاوية جديدة ، فبدا أمام عينيه عاريا من ريائه ، فاهتدى بتفكيره ، الى

انه هو الذى شكك الخليفة فيه ، رماه بتبديد ما فى عهدته من أموال ، فلما فشل تدبيره ، أذاع نبأ العلاقة المفتراة بينه وبين الأميرة ·

وهتف به يأسه أنه قد انتهى ، وأنه لن يستطيع أن يرد صفعة المصحفى صفعات ، ولكنه سخر من يأسه ، وراح يقول لنفسه : ان ما أصابه ان هو الا سحابة كدر فى سماء سعده لن تدوم طويلا ·

وانتقل به سيال الفكر الى الأميرة ، فرأى أنها قد ارغمت على التخلى عنه ، فقد أحكم المصحفى مؤامرته ، وجعلها طرفا فى الجريمة ، فصارت مغلولة اليدين ، كل همها أن تدفع عن نفسها تهمة شنيعة ، لا أن تدافع عن شريك فى الاتهام ، قد يضرها الدفاع عنه ، ويؤكد حديث الافك الذى كان يغذيه ألاف الأذهان ، التى تتفتح دواما لرواية وقائع مختلفة ، تثبت الفرية وترفعها الى مرتبة الحقيقة ·

كانت الأميرة فى عونه دواما ، فاذا كانت قد تخلت عنه مضطرة ، فليس معنى ذلك أن يقطع ما بينه وبينها من أسباب ، بل عليه أن يجعل حبل الوداد موصولا · أصبح على يقين من أن حظه السعيد ساقها اليه ، لترفعه الى ما هيأه له قدره ، فاذا كانت الأيام قد فرقت بينهما ، فانه يستطيع أن يكون منها قريبا ؛ يستطيع برسائله أن ينقل اليها أخباره واحساساته ، فتنفعل لأنبائه وتحس وجوده ·

واستأنف ركب ابن أبى عامر سيره ، حتى دخل اشبيلية ، فاستقبل الناس حاكمهم الجديد ، وقد

ارتسم فى وجوههم العجب ، كان شابا جميل الصورة، لم يتجاوز الثلاثين ، وما اعتادوا أن يروا شبانا فى مثل تلك المراكز العريضة ٠

ودخل ابن أبى عامر قصر الحاكم ، شارد اللب ، كان يفكر فى رسالة يبعث بها الى الأميرة ، ودخل جناحه ، وخلا بنفسه وجعل يكتب ما تجمع فى ذهنه من أفكار ، ويترجم عما احتشد فى صدره من مشاعر ، فلما انتهى من رسالته الأولى استدعى بريده ، ودفع بها اليه ، وأمره أن ينطلق الى قرطبة ليحمل الى قصر الزهراء ذوب نفسه ، التى تهفو الى الأيام الخالية السعيدة ٠

## ٢٠

أراح المصحفى خروج ابن أبى عامر من قرطبة ، ولم تدم غبطته طويلا ، فقد ترادفت أنباء انتصارات غالب ، ودحره الأدارسة وتضييقه الحصار على الحسن بن كنون ، فتضايق المصحفى لارتفاع ذكر منافسه ، وربما من حنقه سرور الخليفة بتلك الانتصارات الباهرة ، وثناؤه على قائده أطيب الثناء ٠

وأخذ المصحفى يرقب فعال غالب ، مفتوح العينين ، وهو يأمل أن يسقط غريمه فى خطأ من الأخطاء ، أو يرتكب ما يمكنه من استغلاله فى ايغار صدر الخليفة عليه ، ليصفو له وجهه وحده ، وحتى

لا يرتفع الى مرتبته رجل آخر ، من ذوى الحظوة والنفوذ ٠

وراح يرصد كتب غالب ، ويدرسها فى امعان ، منقبا عن نواحى الضعف فيها ، ولكنها كانت تحمل دواما أنباء الانتصارات ، فكان يطوى صدره على غيظه ٠ وفى ذات يوم ، وقعت فى يده رسالة يذكر فيها غالب ما أنفق فى استمالة زعماء البربر ، فأخذ يدرسها بقلبه المريض ، وطبعه الشحيح ، فهاله كثرة ما أنفق فى تلك السبيل ، فأخذ الرسالة ودخل بها على الحكم ، ودفعها اليه ، وهو يقول :

ـ لقد تجاوز غالب يا مولاى الحدود المقدرة ٠

وجعل الخليفة يقرأ رسالة قائده ، وحاجبه يقول :

ـ هذه نفقات ضخمة ، نفقات ترهق بيت المال ٠

فرفع الخليفة رأسه وقال :

ـ انى أذكر وصيتى له عند مسيره ، قلت له : « لا تشح بالمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس » لقد نفذ وصيتى ٠

ـ ينبغى يا مولاى أن يكون القائد أمينا عند تنفيذ وصية مولاه ، فلا يسرف فى الانفاق ٠

ونظر الخليفة فى الرسالة ثانية ، وقال :

ـ نفقة كبيرة ولا ريب ٠

فشجع ذلك المصحفى على أن يلقى بذور الشك فى صدر الخليفة ، فقال فى اشفاق :

ـ أخشى أن تكون تلك النفقات قد دخلت جيوب القواد ٠

وتسرب الشك الى نفس الخليفة فغمغم :

ـ أخشى ذلك يا جعفر ·

فقال المصحفى فى صوت خافض ، أقرب الى الهمس :

ـ أصبح الأمر فى حاجة الى التفكير ·

فقال الحكم فى عزم :

ـ سنفكر فى الأمر ·

وخرج المصحفى من عند الخليفة وقد انداحت السعادة فى صدره فغمرته ، ولم يكتف بذلك النجاح ، بل أراد أن يغض من قدر غالب عند الناس ، فدس أعوانه بينهم لاذاعة أنباء الأموال الطائلة التى دخلت جيوب القواد ·

★ ★ ★

غادر ابن أبى عامر قرطبة ، واستقر باشبيلية ، ولكن الناس لم ينسوا محبوبهم سريعا ، فقد كانوا يرددون مآثره ، ويذكرون مناقبه · وطفق أعوان المصحفى ينقلون اليه آراء الناس ، فيحس نار الحقد تأكل صدره ؛ فبات يخشى أن يغرى ذلك العطف صبيحة على التفكير فى اعادة الشاب الى القصر ، فيتكدر صفوه الذى لم يهنأ به طويلا ·

وقر رأيه على أن يقضى على الأثر الطيب الذى خلفه ابن أبى عامر وأن يمحوه من أذهان الناس ، فبث دعاته بين الشعب ، ليختلقوا على الشاب الأكاذيب ، ويلطخوه بالاتهامات ، حتى ينفروا الجماهير عنه ، ويسلبوه ما بقى له من تقدير ·

وأذاع أعوان المصحفى أن ابن أبى عامر خرج من

قرطبة طريدا ، فقد عاش فى القصر عربيدا ، ويسر له شبابه وجماله حياة التهتك والمجون ، وأنفق عن سعة على شهواته ، حتى اذا ما نضب ما فى يده ، مدها الى أموال الدولة ، وما أيسر ذلك على من كانت تحت يده خزائن المال ، فلما فاحت رائحته الخبيثة ، وبلغت أنف الخليفة ، أخرجه من عاصمة البلاد ، وبعثه بعيدا ، حتى اذا ما خبت فضائحه ، طرده من خدمته دون أن يثير ضجة لا يحب أن تثار .

وبلغ صبيحة خبر ما يذيعه أعداء الشاب الذى ترعاه ، فتضايقت وفكرت فى وسيلة توقف بها تيار تلك الاذاعات ، فرأت أن خير وسيلة هى تجريد حملة من الأعوان لمحاربة الشائعات بالشائعات ، فبثت الرجال بين الناس ، ليذيعوا أن الخليفة قد بعث ابن أبى عامر ليجوب البلاد ، يدرس أحوالها ، وأنه فى طريقه الى مراكش ليحاسب غالبا على ما حمل من أموال .

وأخذت قرطبة تتلقى الاذاعات المتناقضة عن ابن أبى عامر ، هذه ترفع من شأنه ، وتلك تحط من قدره ، وأصبحت العاصمة ميدانا لدعايات معسكرين متنافرين ، معسكر المصحفى الذى يعلم مصدر الشائعات الطيبة ، ومعسكر الأميرة التى ما كانت تدرى على وجه التحديد لصالح من تنطلق دعايات السوء .

وفكر المصحفى على عادته أن يستفيد مما تذيع الأميرة ، انها توحى لأبواقها بادعاء أن ابن أبى عامر ذاهب الى مراكش ليراجع غالبا ويحاسبه على ما تدت

يده من أموال ، فلو أن تلك الاذاعة بلغت غالبا لكدرته ، ولنالت من كبريائه ، وهو لا يتمنى شيئا أكثر من أن ينال من غالب ويقضى عليه ، فليس له منافس فى الدولة سواه ، وفكر فى وسيلة ينقل بها اليه تلك الاذاعة التى تخدش كبرياءه ، فطأطأ بصره ، وأطلق لخياله العنان .

وفكر ، وأمعن فى التفكير ، فاهتدى الى أن نقل الاشاعة التى سرت فى قرطبة الى غالب قد يسوءه ، وقد يغضبه ، ولكنه لن يستطيع أن يثور أو يعلن غضبه لمجرد ذيوع اشاعة ، ان خير ما يفعله لتكدير غالب هو ايفاد ابن أبى عامر الى مراكش .

لو ذهب ابن أبى عامر ، ذلك الشاب الحدث ، الى مراكش لمراجعة غالب الناصرى ، القائد العظيم الذى عقد على هامته اكليل النصر ، لأوغر ذلك صدر القائد المظفر . ولثار ، ولأعلن بتمرده ، ولتمادى فى غضبه ، فينتهز هو تلك السانحة ليزعزع ثقة الخليفة فى الرجل الذى يحبه . ومن يدرى فقد تتولد عداوة بين غالب وابن أبى عامر ، وستتولد حتما اذا ما ذهب الشاب الى مراكش ، سيتنازعان ، ويشتد تنازعهما حتى ينال منهما الوهن ، ولن يستفيد من ذلك سواه ، فسيقضى عليهما جميعا .

واستراح لأفكاره ، فانطلق الى الأميرة ، وقال وهو يبتسم :

ــ سرت فى المدينة اشاعة ، فلما بلغتنى وجدت أن الناس يسبقوننا أحيانا الى ما فيه الخير .

ــ وما تلك الاشاعة ؟

— قال الناس : ان مولانا الخليفة قد بعث ابن أبى عامر ليجوب البلاد ، وانه ذاهب الى مراكش ٠

— وأى خير فى ذلك ؟

— فكرت فى تلك الاشاعة فوجدت فيها الخير كل الخير ، فلو أن ابن أبى عامر قد ذهب الى مراكش ، لأدى للبلاد خدمات جليلة ، لقد أظهر مقدرة أثنى عليها مولاى يوم كان أمينا على خزائن المال ، فلو راجع قدير مثله غالبا فيما حمل معه من أموال ، لهدأ القلق الذى يساورنا عما آلت اليه تلك الأموال ٠

ودخلت صبيحة والمصحفى على الحكم ، وزينا له بعث ابن أبى عامر الى مراكش ، لمحاسبة غالب ، فوافق على ذلك ، وعينه كبيرا لقضاة المغرب الأقصى ، وأمر المصحفى أن يكتب الى قواده أن يستشيروا ابن أبى عامر فى أمورهم وألا يقطعوا فى أمر دون رأيه ٠

وطفق المصحفى يحرر أمر الخليفة ، وهو نشوان ، فقد دبر وها هو تدبيره قد أفلح ، وما بينه وبين جنى ثماره الا أن يتريث ارصادا لمرور حليفه الزمان !

وشعرت صبيحة بنشوة ، فقد حسبت أن اذاعتها قد محقت اذاعات السوء ، وثبتت فى الأذهان ، حتى انها وجدت صدى فى نفس المصحفى ، وما دار بخلدها أن المصحفى قد تصيد تلك الاشاعة . لأنه وجد فى تحقيقها توهينا لغريمين قويين يقفان له بالمرصاد ٠

## ٢١

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، والهدوء يسيطر على قصر الزهراء ، فقد غادر الموظفون القصر ، واختلى الخليفة بكتبه ، ودخلت الأميرة مخدعها تستريح بعد عناء اليوم ، وتستجم قبل سهرات الليل .

وأقبلت وصيفة من الوصيفات ، ووقفت أمام باب الأميرة تدقه فى لطف ، فقامت الأميرة من فراشها تتمطى ، وما ان فتحت الباب حتى قالت لها الوصيفة :

— مولاى عبد الرحمن يطلب مولاتى .

فقالت صبيحة فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

— يحس وعكة .

فاضطربت الأميرة ، وهرعت الى ابنها ، وما ان دخلت عليه حتى قالت فى لهفة :

— ماذا بك يا حبيبى ؟

فقال الصبى فى صوت خافت :

— أحس ضيقا .

فمدت يدها ومررتها على جبينه ، وجسته ثم ابتسمت ، وهى تقول :

— لا بأس عليك ، انك بخير .

— أحس كأنى أختنق .

فأدارت عينيها فى المكان ، وقالت وهى تنهض :

— الشبابيك مغلقة ، سأفتح لك الشبابيك .

وذهبت الى نافـذة ، وهـرولت الوصـيفات الى النوافذ الأخرى ، فهبت نسـائم لطيفـة من حـدائق الزهراء ، داعبت السجف ، فقالت صبيحة وهى مقبلة عليه :

ـ سينعشك هذا النسيم ٠

وجلسـت على حافة فراشـه ، ومررت يدها على جبهته وجسته ، ثم نظرت الى وجهه ، فشعرت بقلق ، فقد كان وجهه مصفرا ، ولكنها جعلته يطمئن نفسها بأن ما يشعر به ان هو الا وعكة خفيفـة ، لا تلبث أن تنقشع ٠

وفكرت فى استدعاء الطبيب ، ولكنهـا نبـذت تلك الفكرة فما كان قلبهـا يطاوعها على أن يعترف بأن عبد الرحمن مريض ٠ وساءها أن ترى ابنهـا ممددا فى فراشه ، فخطر لها أن تأخذه الى الحديقـة لتسرى عنه ، فقـد ينعشه الهـواء النقى ، فيرد له رواءه ، ويجدد نشاطه ، فقالت له :

ـ دع هذا الكسل ، وهيا نهبط الى الحدائق ننعم بالحياة ٠

ومالت عليه تساعده على النهوض ، فقام وسـار يتحامل على نفسه ، ويحاول أن يخفى ما به ليرضى أمه القلقة ، وانطلقا ، حتى اذا ما بلغا الحدائق جلسا على أريكة تحت خميلة ، والتفتت صبيحة الى ابنها ، فألفته شاحب اللون ، فشعرت بقلبها يغوص ، ولكنها تجلدت وقالت وهى تغتصب ابتسامة لترفه عنه :

ــ الآن حزرت كل شىء ، انك تخفى عنى سرك ، وهل يخفى الابن عن أمه سره ؟

فقال الصبى فى صوت خافت :

ــ أى سر ؟

ــ انك تحب ٠

وابتسمت ابتسامة شاحبة ، ولم ينبس بكلمة . فقلقت صبيحة ، ولم تشأ أن تبدى قلقها ، فقالت :

ــ ما دمت تحب فسأسمعك أغانى العاشقين ٠

وهمت بالغناء ، وهى ترنو اليه ، فهالها شحوبه . فلفت ذراعها حوله ، وقالت : هيا نعد ٠

وسارا صامتين ، وكان ولى العهد يحس وهنا . وصبيحة تشعر بقلق وخوف ، فابنها مريض ، وما كان لها أن تخرج به الى حدائق القصر ، بل كان عليها أن تستدعى الطبيب ، ولكنها أرادت أن تسكن الطمأنينة قلبها ، بأن توهم نفسها بأنه معافى ، وأن ما يحسه ان هو الا خمول تطرده نسمات الأصيل ٠

ودخلا حجرته ، فمددته فى فراشه ، وبعثت فى طلب الخليفة والطبيب ، وجاء الحكم ؛ وأسرع الى فراش ابنه خافق القلب ، فلما رأى اصفراره انقبض ، والتفت الى صبيحة ، فألفاها ساهمة مهمومة ، فزاد انقباضه وطفق يذرع الغرفة فى قلق ، وأقبل الطبيب فتعلقت به عيون صبيحة والخليفة وآمالهما ٠

وفحص الطبيب عنه فى امعان ، فلاح عليه الاهتمام ، وجاء المملوكان فائق وجؤذر ووقفا

ينظران ، ولما أتم الطبيب الفحص عنه ، دنا منه الحكم ، وقال :

ـ كيف رأيته ؟

فقال الطبيب وهو عابس الوجه :

ـ يحتاج الى عناية يا مولاى ·

فتقلص وجه الحكم ، وشعر بجفاف فى حلقه ، ونظر الى ابنه المسجى فى الفراش ، فغامت عيناه بالدموع ، فأشاح بوجهه ، وذهب بعيدا حتى لا تقع عينا عبد الرحمن على دموع أبيه التى ترقرقت فى مقلتيه ·

وغادر الطبيب الغرفة ، فانسل فائق خلفه ، ولحق به فى ردهات القصر ، وقال له :

ـ كيف وجدته ؟

فلوى الطبيب شفته السفلى ، وأشار بيده اشارة يأس ، فتركه فائق ، وقفل عائدا الى جناح ولى العهد ، وجعل يتحين الفرص ليختلى بزميله جؤذر ، فلما تلاقت عيونهما رمز له بعينه ، فانسلا من الغرفة ، وتقابلا بعيدا يتناجيان ، ثم سار فائق وغادر القصر ، وجعل يضرب فى طرقات قرطبة متسترا بالظلام ، حتى بلغ قصر المغيرة ·

ودخل القصر ، فداعب أذنيه همس النغم ، وتقدم فاتضحت الأصوات ، وارتفعت الأنغام ، وسمع قهقهات وضحكات ناعمة ، ووقف على باب القاعة التى اجتمع فيها المغيرة بندمائه ، فرآه قد جلس ، وأمامه الشراب وحوله الصحاب ، وغانيات أندلسيات فى غلائل رقيقة هفهافة ، تفضح جمال الأجسام

العاجيــة ، وتبرز الفتنــة والاغراء ، وراحت جارية رائعة الجمال ترسل النغم العذب الجذاب ٠

وتقــدم فائق اليــه ، ثم انحنى ، وهمس فى أذنه كلمات ، فأشرق وجه المغــيرة ثم ابتسم ، فقــد كان المملوك الصقلبى الذى يحكم ألف مملوك من خدم قصر الزهراء ، يسر اليه خبر سقوط ولى العهــد فريســة لمرض عضال ٠

## ٢٢

قدر أهالى اشبيلية حاكمهم الجميل ، فما اســتبد كما استبد من سبقه ، ولا طغى ولا بغى ، بل أظهــر للشعب وده ، وعمل على راحته ورفاهيته ، فكان خير سفير لخليفة عادل أحبــه شــعبه ، واطمــأن فى ظله الظليل ٠

وأخذ ذلك التقــدير يتطــور على مر الزمان الى اعجاب ، وكان ابن أبى عامر جديرا بذلك الاعجاب ، فقد أسر القــلوب على الرغم من همومه ومشــاكله ، كان كثيرا ما يعيش فى اشــبيلية بجســمه ، أما روحه فكانت تهيم فى جنبات قصر الزهراء ٠

كان يحلم بالعودة الى قرطبة ، فصار أمله أن يرجع الى قصر الزهراء ، ليستأنف سيره فى طريق المجد التى قطع فيها أشــواطا ، فراح يرقب تحقيــق ذلك الحلم صــابرا ، وكان يقول لنفســه فى اللحظات التى ينفــد الصبر فيها ، انه قادر على أن يتألق فى اشــبيلية ، وأن

ينطلق حتى يبلغ هدفه ، ولكنه كان يشك فى قرارة نفسه فى ذلك ، كان على يقين من أن القصر أقصر طريق لبلوغه مجده ، وعلى الأخص اذا كانت هناك من ترعاه وتبارك خطاه ٠

كان يحس أن صبيحة تحبه حبا جارفا ، على الرغم من محاولاتها المبذولة لاخماد أنفاس مشاعرها التى تفضح ذلك الحب ، فهى لن تطيق بعده طويلا ، فاذا كانت قد أرغمت على نبذه ، فستتريث حتى تهدأ العاصفة ، ثم تسخر ذكاءها ولباقتها لتبرير استدعائه ، ولن تعدم أسبابا لذلك ، وما أيسر الأسباب اذا شاءت صبيحة ٠

وعاش فى اشبيلية على ذلك الأمل ، يراسل الأميرة ليؤجج نار حبها ، ويرصد بريد قرطبة لعله يحمل اليه أمنيته التى تتراءى له دواما ٠ وجاء بريد العاصمة ، فخفق قلبه ، وتناوله فى لهفة ، وأخذ يفض أختامه ويتفحصه فى عجل ، كان يبحث عن كتاب بعينه ٠

وقرأ ما جاء من العاصمة فاغتم ، فقد جاءه أنه أصبح كبير قضاة المغرب الأقصى ، وأن عليه أن يعبر الى مراكش ، ليراجع غالبا ويحاسبه ، كان يرقب كتابا يدنيه من قرطبة ، فاذا بكتاب يأتيه ليبعده عنها ، ويجعل بينه وبينها بحرا ٠

ونشر الكتاب ثانية ، وقرأه فأطل له من بين السطور وجه المصحفى ، ان ذلك تدبيره ، فما اكتفى بأن يخرجه من القصر ، ولم يقنع بابعاده ، بل أخذ يطارده ، ويجعل بينه وبين العودة الى القصر سدا ٠

وفكر فيما دفع المصحفى الى ايفاده الى مراكش ، فحذر كل شىء ؛ ان المصحفى لا يحب غالبا ويغار منه ، فهو منافسه الأوحد فى الدولة ، وهو يبغض منافسيه كل البغض ، فاذا ما بعثه الى مراكش ، فانما يضرب عصفورين بحجر ، يبعده عن قرطبة ، ويشغله بغالب ، وينال فى نفس الوقت من كبرياء غريمه ، فما كان لقائد عظيم أن يقبل أن يوفد اليه شاب يراجعه ويحاسبه .

وخرج ابن أبى عامر من اشبيلية مهيض الجناح ، كما خرج من قرطبة ، كان يأمل أن يخرج منها الى مهوى الفؤاد ، فاذا به يخرج منها الى أرض لم تطأها قدماه ، لا يدرى ما يخبئه له القدر فيها من مفاجآت وأحداث .

وبلغ ابن أبى عامر وحاشيته جبل طارق ، فركبوا البحر ليعبروا الى مراكش ، وشرد ذهن الشاب ، فرأى أن هذه الرحلة ان هى الا فرصة طيبة أتاحها له قدره ، انه عاش فى القصر ، فأسر من فيه ، وعرف الوزراء ، فكسب ثقتهم ، واحتك بالشعب ، فأحبه الناس ، وها هو ينطلق الى رجال الجيش ليخلب ألبابهم ، ويستولى على اعجابهم ، ويصطفى منهم طبقة .

وفكر فيما ينتهجه ليحبط تدبير المصحفى ، فما بعثه الا ليوغر صدر غالب ويضايقه ، فوطن النفس على ألا يأتى ما يغضب غالبا ، بل عزم على أن يتودد اليه ، وأن يتقرب منه ، حتى يكتسب ثقته ، ليقفا فى وجه المصحفى جنبا الى جنب .

## ٢٣

جاء المغيرة الى القصر ليعود ولى العهد ، فسار يتبختر فى زهو ، ودخل غرفة المريض ، فرأى عبد الرحمن مسجى فى الفراش ، وقد غاض لونه وبدا عليه الهزال ، ولمح صبيحة بجواره ، تحنو عليه ، وفى عينيها آثار الألم العميق ، فحياها متطلق الوجه ، فأحست كأن سكينا تغوص فى قلبها ، وزاد انقباضها ، واشتد حزنها ، فما كانت تحب أن يراها المغيرة على تلك الحال من الانكسار .

كانت تمقت المغيرة بغريزتها ، فكانت تحس فى أعماقها أنه يبغض ولديها ، ويتمنى موتهما ، فما جاءا الا ليحولا بينه وبين الخلافة ، فاذا ما انزاحا من طريقه تجددت آماله فى احتمال تحقيق أحلامه ، التى داعبته سنوات ، كان يعد نفسه الوريث للخلافة بعد أخيه ، قبل أن يقابل الحكم صبيحة ، فلما ساق القدر المغنية الجميلة الى الخليفة ، وأنجب منها غلامين ، انهارت صروح أمانيه .

وغاب المغيرة عن قصر الزهراء ، فما كان يزوره الا فى المناسبات ، وتفرغ للهو والشراب فأرضى ذلك القنوط صبيحة ، وسرها استسلام المغيرة لما هو كائن ، وطفق يعب كئوس اللذات ، ولكن ما ان مرض عبد الرحمن حتى ظهر فى القصر مستبشرا ، كأنما أحيا ذلك فى نفسه ميت الآمال .

وغادر المغيرة غرفة ولى العهد ، فخرجت صبيحة خلفه ، وانطلقا معا فى ردهات القصر ، المغيرة فى زهوه ، والأميرة فى حزنها وحقدها الشديد ، حتى اذا بلغا خزانة الكتب دلفا اليها ، فوجدا الحكم جالسا ، وقد ضم اليه ابنه هشاما فى حنان ٠

وبدا فى عين الحكم القلق والاضطراب ، وحاول أن يتجلد ويبدو هادئا أمام أخيه ، فقاسى كثيرا ليظهر الرضا ، والاطمئنان ، وحزرت صبيحة ما يقاسيه ، فزاد حزنها وانقباضها ومقتها للشاب الذى جاء ليزيد ضرام نار الحزن المتأججة فى الأكباد ٠

وفتح المغيرة ذراعيه لهشام ، فذهب الغلام ، وارتمى فى أحضان عمه ، فضمه الشاب اليه ، فخيل لصبيحة أن ذراعى المغيرة أفعيان لفتا حول ابنها الصغير ، فجزعت ولو طاوعت نفسها لقامت وانتزعت ابنها انتزاعا من أحضان العدو البغيض ، ولكنها كظمت ما بها ، وبقيت ترقب انصراف المغيرة فى تبرم وضيق ٠

وتبادل الشقيقان كلمات مقتضبة ، ثم ساد السكون ، فأحس المغيرة أن مكثه قد طال ، وأن وجوده يضايق الزوجين ، فاستأذن فى الانصراف ، ثم خرج يزهو كالطاووس ٠

والتفت الحكم الى زوجه وقال فى قلق :

– كيف هو الآن ؟

فغامت عينا صـــبيحة بالدموع ، وقالت فى نبرات حزينة مرتجفة :

ـ يخبو كما يخبو السراج ·

فأطرق الحكم ، وعلت وجهه سحائب من الحزن ، وأطرقت صبيحة تسـح الدموع ، ثم جففت عبراتهـا ونهضت ، فقال لها الحكم :

ـ الى أين ؟

ـ اليه ، تعال لتراه ·

فقال فى ألم :

ـ لا أطيق أن أراه فى محنته ·

وذهبت صبيحة الى ابنهـا المريض ، فألفتـه يلفظ أنفاسه فى جهد ، كأنما يتنفس من ثقب ابرة ، وقد شرد بصره ، فظهر بياض العينين ، واختفى السواد تحت الجفون ، فارتجفت وشعرت بقلبها يغوص، وبصدرها يضيق ، وبيد قوية تكتم أنفاسها ، فانتفضت فى فزع ، وهتفت فى لهفة :

ـ الطبيب ··· الطبيب ·

فهرع الموالى لاستدعاء الطبيب ، وبقيت صـبيحة تنظر الى ابنها فى وله : كان صـدره يرتفع وينخفض ككير حداد ، وراحت حركته تخف ، وأنفاسه تخمد ، فاتسعت حدقتاها ، وأحست كأن اسفنجة فى حلقها ، وانهارت قواها ، فزادت رهبتها وفزعها ·

وجاء الطبيب ونظر فى وجه ولى العهـد ، فوجده

يجود بآخر أنفاسه ، فأطرق وقد ارتسم فى وجهه الأسى العميق ، فصرخت صبيحة :

ـ الخليفة ، أين الخليفة ؟

فجرى الموالى الى حيث كان الحكم ، وأنبئـوه أن الأميرة تلتمس حضوره ، ففطن الى ما جرى ، وشعر بسكين تمزق قلبه ، وبالحزن يلفه ويستولى عليـه . وانطلق وهو مذهول ، حتى اذا بلغ حجرة ابنـه رأى الطبيب يخرج منكس الرأس ، وجرت دموعـه على خديه ، فأحس كأن روحه انسلت من جنبيـه ، وراح ينظر الى الطبيب وهو مشدوه ، فتقدم اليه الطبيب . وفى وجهه حزن وحيرة ، ثم قال فى صوت أسيف :

ـ عوضكم الله منه يا مولاى ما عوضه الله منكم . وأبقى الله لكم هشاما ، وبارك لكم فيه .

وبقى الحكم فى مكانه ثابتـا لا يريم ، وتحجـرت الدموع ، وظـل ينظـر الى باب غرفة ابنه دون أن يتقـدم ، وفتح البـاب ، وخرجت صبيحة وقد شرقت بدموعها ، والتقت عيناها بعينيه وصاحت فى صوت مخنوق :

ـ ذهب عبد الرحمن .

فسالت العبرات ، وجرت على الخدود .

## ٢٤

عــبر ابن أبى عامر الى مراكش ، وهو مشــغول بغالب ، فقد رآه فى القصر مرارا ، ولكنه لم يعرفه عن قرب ، وسمع عنه أنه قائد محنــك ، وادارى بارع ، ورجل شديد المراس ، وهو لا يدرى ماذا يكون حاله معه ، فقد عزم على مهــادنته ومحالفته ، ولكن هل ييسر له غالب ذلك ؟

وظل يفكر فى غالب والقواد والجنــود ، ولم يقلقه فكره ، فقد كان على ثقة من نفسه ، فهو قادر على أن يطويهم ، ويكسبهم الى جانبه ، عزز تلك الثقة ماضيه ، وقدرته على مصادقة الخليفة ، واحراز تقديره ٠

وهبط أرض افريقية فأسرع اليه بعض كبار الدولة يستقبلونه باسم غالب ، ويحتفــون به ، فأثلجت تلك المظاهر صدره ، فقد كانت دليلا على تقدير غالب له ، وترحيبه بمقدمه ٠

وانطــلق الركب الى القصر الذى نزل به غالب ، فسار ابن أبى عامر مشرق الوجــه ، مطمئن القلب ، يتلفت حوله فى هدوء ، كان الاســتهلال يبشر ببلوغه ما فكر فيه ، بعد أن اقتنــع بأن ذلك الابعاد من تدبير المصحفى ٠

ودخــل على غالب ، وقد أرهفت منــه الحواس ، وأخذ يعــد عليــه حركاته وســكناته ، ويفحص عنه بنظره الثاقب ، فألفاه رجلا تبدو عليه صرامة القواد ،

ولكنه ينعم بقلب كبير ، وبذهن متوقد . انه عسكرى فى حركاته ، عسكرى فى أوامره ، رقيق فى مناجاته . فقد جعل يحادثه حديثا أرق من النسيم .

وتحدث ابن أبى عامر ، وتألق فى حديثه ، وسيطرت شخصيته الآسرة الطاغية ، فبهر غالبا ، واستولى على لبه . وأدهشه ذلك الشاب الناضج ، الذى يتمتع بذهن صاف جبار .

ووافى ميعاد الغداء ، فنهض الجميع للطعام ، وأخذ غالب وابن أبى عامر يهمسان ويتناجيان ، كأنما قد تعارفا من زمان ، وطفقا يتحدثان ، حتى اذا انتهى الغداء كان كل منهما قد استراح الى رفيقه ، واطمأن اليه .

وراح غالب ينصت الى الشاب ، وقد تفتح له قلبه ، وأقبل عليه . وتقضى الوقت لطيفا ، حتى اذا استأذن ابن أبى عامر نهض غالب وودعه فى حرارة واشتياق .

وانصرف ابن أبى عامر الى أسواق مراكش ، وأخذ يجوس خلالها ، ينقب عن تحفة نادرة تليق بالأميرة ، حتى اذا وجد هدية فاخرة حملها ، وانطلق الى الدار الجميلة ، التى أعدها له غالب ، وراح كبير قضاة المغرب الأقصى يكتب رسالة الى الأميرة ، يصف لها فيها رحلته الى مراكش ، وما يأمله فى تلك الرحلة من نجاح .

وجلس غالب يفكر فى ذلك الشاب الساحر ، الذى اكتسب ثقته فى لحظات . انه شاب لبق جذاب ، راجح

العقـل ، حلو الحديث ، ولكن ما كان ذلك كله بكاف ليمنحه ثقته فى لحظات ، ان به شيئا غامضا لا يدريه ، وجعل غالب يعصر ذهنه . ليهتـدى الى ذلك الشيء الغريب الذى جذبه اليـه ، ولكن ذهنـه لم يسـتطع توضيح ذلك الشيء ، ولو فتش فى ثنايا نفسه لوجد ذلك الشيء : ان ابن أبى عامر هو الشـاب المثـالى الذى يحلم به غالب ، ليكون زوجا لابنته أسماء .

★ ★ ★

زار ابن أبى عامر الجنـود ، وتعـرف بالقـواد ، وأعجب بجنود البربر ، وراح يزور غالبـا كل يوم ، فقد توطدت بينهما صداقة متينة ، وفى ذات يوم لمحت أسماء من شرفة من شرفات القصر الشاب الجذاب ، فخفـق له قلبهـا البكر ، وأحست احسـاسات لذيذة ما كان لها بها عهد : أحست نفسها تتفتح ، وذاتهـا ترق ، وروحها تهيم فى دنيا سعيدة ، كأنما ولدت من جديد .

وباتت أسماء ترصد طلوع النهـار ، لتهرع الى شرفتها ، تنتظر وفود ابن أبى عامر ، لتسعد باجتلاء طلعته ، فقد أصـبحت أسـيرة قوة طاغيـة حبيبة ، تدفعها الى الشرفة دفعا ، وترغمها على المكث بها ، حتى يهدأ القلب الذى شغل بالزائر الغريب .

وقفت أسماء فى شرفتها ، وهى تتلفت فى خفة ، كانت فى الثـالثة عشرة ، وكانت حلوة التقـاطيع ، باهرة الحسن ، واسعة العينين ، يبدو عليهـا ذلك الضعف المحبب ، الذى يصرخ بالرجل أنه فى حاجة الى حمايته ،

فاذا استجاب الى ندائه ، كبله بخيوطه الدقيقة ، التى تبدو واهية أوهى من خيوط العنكبوت ، وان كانت أقوى من أسلاك الفولاذ .

وكأنت فى ثوب سماوى ستر فتنة الجسم ، وأبرز فتنة الروح ، فكانت كطيف رقيق ، ولمحت ابن أبى عامر مقبلا ، فشعرت بنشوة ، وبقلبها يرفرف فى صدرها كجناح حمامة ، وبدمها الحار يصعد الى وجهها ، فيضرج وجنتيها بحمرة تزيد من فتنتها ، وباضطراب لذيذ يكتنفها . وظلت تتبعه بنظرها الولهان ، حتى غاب فى القصر ، فبقيت مدة فى غمرة السعادة . وخطرت لها فكرة ، وما شغلت ذهنها ، حتى ارتجفت رعبا ، وحاولت أن تئد تلك الفكرة النزقة ، ولكنها غلبتها وسيطرت عليها . فهبطت الى حدائق القصر قلقة ، وراحت ترقب الباب الذى دخل منه ابن أبى عامر واجفة القلب ارصادا لخروجه ، وشعرت برهبة مزيجة برجاء تدغدغ حواسها .

وخلا ابن أبى عامر بغالب ، وطفقا يتحدثان ، حتى اذا جاء ذكر المصحفى ، قال الشاب فى سخرية :

ـ انه رجل مخلص شديد الوفاء .

فارتسم العجب فى وجه غالب الصارم ، فما كان يفطن الى تلك السخريات ، انه تعود أن يقول ما يحب فى صراحة ، دون لف أو دوران ، وفطن ابن أبى عامر الى ما اعترى غالبا من دهشة واستنكار ، فقال وهو يبتسم :

ـ انه مخلص لنفسه ، شديد الوفاء لأهل بيته .

فانبسطت أسارير الرجل ، وان لم يبتسم ، فقلما يبتسم غالب القائد الذى خاض غمار معارك رهيبة ، وعاين الأهوال !

وظلت أسماء تجوب الحديقة ، وترصد الباب الذى دلف منه ابن أبى عامر ، ولاحت عليها الحيرة ، وتباطأ الزمن . وبقيت تترجح بين التريث لتنفيذ الخاطر المجنون الذى يلح عليها ، وبين حيائها الذى يهيب بها أن تعود الى القصر ، وأن تقنع بالنظر الى سالب الفؤاد .

ولمحت الشاب يخرج من الباب الداخلى ، وينطلق فى حدائق الدار ، فأحست رعدة تسرى فى بدنها ، وخورا يدب فى أوصالها ، فكادت تثبت فى مكانها ، ولكن رغبتها فى أن تعترض طريق الشاب ، لتلفت نظره اليها ، راحت تدفعها لتنفيذ الخاطر الذى استولى على تفكيرها ، فجعلت تتقدم صوب ابن أبى عامر مسلوبة الارادة ، وقلبها فى صدرها يدوى دويا .

وأصبحت منه على قيد خطوات ، فأهت أهة خافتة فيها دهشة وانكار ، كأنما بوغتت بشىء لم تحسب له حسابا ، فالتفت ابن أبى عامر صوب الصوت ، وتلاقت العيون ، فأسرعت أسماء تسدل على وجهها النقاب ، فى خفر ودلال ، فأشرق وجه ابن أبى عامر بابتسامة حلوة ، أحست حلاوتها فى القلب المفتون .

وانطلق ابن أبى عامر فى طريقه ، واستأنف ما كان يفكر فيه ، وكان يفكر فى قرطبة وقصر الزهراء ، أما أسماء فقد جفلت وهرولت خفيفة ، كأنما تطير

بجناحين ، وعادت الى غرفتها جذلى ، وتمددت فى فراشها ، وأسبلت عينيها تستحضر فى مخيلتها صورته الجميلة ، وترى بعين خيالها عينيه الساحرتين ، وأخذت تتذكر ما حدث ، وقد هزها الطرب ، وتشيد على ابتسامته العابرة قصورا جميلة من الأمانى والأوهام ·

## ٢٥

كانت صبيحة تمضى سحابة يومها فى قصر الزهراء عابسة حزينة ، فقد غاضت بشاشتها غب موت ابنها ، وزاد فى ضيقها بعد ابن أبى عامر عنها ، فلو أنه كان الى جوارها فى محنتها لخفف من وقع المصاب ، ولوجدت فى قربه بعض العزاء ، ولشغلت بالتفكير فى احساساتها نحوه عن تلك الأفكار السود التى تركزت حول الفراق : فراق الحبيب الذى غيبه الثرى ، وفراق الحبيب الذى أبعدته النوى ·

وراح حزنها على ابنها يبلى على الأيام ، أما حبها لابن أبى عامر فأخذ يتكشف ويسفر عن وجهه ، كانت تنفر من مجرد التفكير فى أنها تهواه ، وما ان بعد عنها ، وترادفت رسائله وهداياه ، حتى اعترفت لنفسها بأنها تحبه ، وتحن الى لقياه ·

كانت ترصد كتبه فى لهفة وشوق ، فاذا جاءها منه كتاب ، أخذت تقرؤه خافقة القلب ، مكروبة الأنفاس ،

كعذراء تسلمت أول رسالة من آسر الفؤاد ، وكانت هداياه تجلو عن صدرها الأحزان ، فينتعش القلب ويخفق خفقات ، فتدب فى الروح الحزينة الحياة ، وتتدفق الأفكار البهيجة الى الرأس الذى سئم قاتم الأفكار .

كانت رسائله تنكأ جرح قلبها ، وتحرك شجونها ، فكانت كلما قرأت له رسالة فكرت ولجت فى التفكير ، فكان يقودها الفكر الى وجوب استدعائه . وكان فؤادها الملهوف يؤازر ذهنها المشغول ، ويلح فى التعجيل بذلك الاستدعاء ، فكانت تهم بمفاتحة الخليفة فى ذلك ؛ ولكنها كانت تحجم خشية ألسنة الناس .

وغلبها شوقها ، فوطنت العزم على محادثة الحكم ، كانت تهفو الى كاتبها الحبيب ، وتشتاق الى رؤياه ، وتشعر بالبوار يمشى اليها كلما كبتت تلك العواطف الطاغية المذخورة ، فقررت ألا تأبه لكلام الناس .

وذهبت الى الخليفة ، وقد لملمت أطراف شجاعتها ، لتحادثه فى أمر عودة كاتبها الى قرطبة ، وفيما هى فى طريقها اليه ، قفزت الى رأسها فكرة ، جعلتها تخفف من خطوها ، ثم تدور على عقبيها ، وتقفل عائدة الى جناحها ؛ لقد صبرت على بعاده طويلا . فماذا لو صبرت أسابيع قليلة أخرى ، وبثت دعاتها بين الناس للتمهيد لتلك العودة ؟ واستراحت لتلك الفكرة ، فبعثت الى بعض ثقاتها من أصحاب ابن أبى عامر .

وأصبحت قرطبة واذا بالناس يتحدثون عن ابن أبى عامر ، وما أدى للدولة من خدمات فى اشبيلية

ومراكش ، وذكروا فضـــله ، وعبروا عن حبهم له ، وتكلموا فى وجوب عودته الى حاضرة البلاد ، ليستأنف اصلاحاته التى كان يهدف من ورائها الى الأخذ بيـد الشعب ، والعمل على رفاهيته ٠

ووصل الى المصحفى ما ذاع فى البـلاد ، فعلم أن الأميرة نهضت لتهيئة الجو لعودة كاتبها ، فاستاء ، وهب لتعكير الجو الذى راحت صبيحة تبذل كل ما فى طاقتها لتنقيته ٠

وانتشر أعوان المصحفى فى البلاد، وراحوا يذكرون الناس بفضائح ابن أبى عامر ، ويختلقون القصص التى تنفرهم منـه ، ولكن النـاس أعرضـوا عنهم ، وتصدوا للدفاع عن الشاب الذى أسرهم ، فالجماهير يعطفـون دواما عـلى كل من ينحى عن النفـوذ والســلطان ، فذهبت محـاولات المصـحفى أدراج الرياح ٠

واطمأنت صـبيحة الى الشـعب ، فجعلت تمهـد لعودته بين رجال القصر ، فأشارت على أصحابه أن يلتمسوا من الخليفة عودته ، وأن يذكروا له أن قرطبة فى حاجة اليه أكثر من اشـبيلية ، أو مراكش ، أو أية مدينة أخرى من مدن البلاد ٠

وطفق أصحاب ابن أبى عامر يذكرونه بالخير أمام الخليفة، وينتهزون الفرص ليشيروا عليه باستدعائه ، وكثر الحديث عن عودته ، حتى اقتنع الجميع أن أوبته الىقصر الزهراء باتت أمرا مفروغا منه ٠

رأت صبيحة أن كل شىء صار مهيئا لعودة كاتبها ،

وأن الأمر لم يعد فى حاجة الا الى اشارة منها ، فوقفت أمام مرآتها تتزين وتبرز فتنتها ، حتى اذا اطمأنت الى روعتها ، ذهبت الى الحكم تغريه باسـتدعاء حبيبها الذى هفا اليه الفؤاد .

ودخلت على الحكم تزهو بجمالها ، وكانت تقـدر حسنهـا ، وتعـرف تأثيره فى زوجهـا ، كان يسـلبه ارادته ، فيطلق لها مقاليد نفسه ، تقوده حيث تشاء . كان الحكم عظيما مهابا ، فطنا لبقا ، وكانت ناحيـة الضعف فيه حبه الشديد لزوجته ، كان يذوب أمامها كما يذوب الشمع اذا سلطت عليه النار .

ورنت الى زوجها بعينيها الجذابتين ، فتطلع اليها فى وله . وقالت متكلفة الحيرة :

— شغلتنى ادارة أملاك هشام .

— لماذا يا صبح ؟

— فكرت فيمن نعينه وكيلا لهشام ، فأعيانى الفكر .

— عندك عثمان بن جعفر المصحفى .

— ليس بالرجل الذى يصلح لذلك .

وأطرقت صبيحة ، وصـمت الحكم يفكر ، وسـاد السكون برهة ، ثم قالت الأميرة فى صـوت أقرب الى الهمس :

— والله ما كان لذلك الا ابن أبى عامر .

ورمقت زوجها من طرف عينها ، فوجدته لم يتبدل ، فاطمأنت ، وترقبت ما يقول فى لهفة ، فقال :

— فليكن ابن أبى عامر وكيلا لهشام .

فأثلج صدر الأميرة ، وبانت الغبطة فى مقلتيها ، وقالت :

- وأين ابن أبى عامر الآن !

- فلنبعث فى طلبه ، اكتبى اليه يا صبح أن يشد الينا الرحال ٠

وخرجت صبيحة من عند الحكم تحس نشوة عارمة ، فقد نجح تدبيرها ، وعما قليل يقبل كاتبها ، ليطفىء نار الشوق التى تتلظى فى جوفها ٠ وغمرتها السعادة ، وملأت جوانحها ، فراحت تضغط صدرها ، وأرادت تلك السعادة أن تنطلق . وأن تجد لها متنفسا ، فشعر صبيحة لأول مرة بعد موت ابنها بشوق الى الغناء ، فغنت فى فرح ، وأطلقت نفسها تهيم فى دنيا البهجة والخيال ٠

## ٢٦

أخذت أسماء تعيش فى عالم حالم ، سعيدة بدنياها الرحيمة التى كانت من خلق خيالها ٠ كانت ترقب ابن أبى عامر من شرفتها فى غدوه ورواحه ، ثم تخلو بنفسها ، لتنعم بأبهج الرؤى والتصورات ، لطالما ناجت طيفه ، وأجرت بينها وبينه أعذب الحوار ، فأصبحت لها ذكريات عزيزة ، تولدت فى دنيا الخيال ، كانت تعيش بروحها فى أحلام يقظتها ، فآمنت بحوادث الأوهام ٠

عادت عقب أن اعترضت طريقه فى حديقة القصر

الى غرفتها ، وقلبها يرقص طربا ، وراح خيالها يحلق بجناحين من البهجة فى دنيا تتألق بالحب والصفاء ؛ رأته يتقدم اليها ، ويمد اليها ذراعيه ، ويتناول يدها فى يديه ، وينظر الى عينها بعينيه اللتين داعبتا وتر قلبها ، فقفز فى سرور الهيمان ، وأحست لذة لتلك التخيلات ، فلجت فى التصورات . فسمعته يهمس فى اذنيها بحديث الغرام ، فسرت فى صدرها نشوة ، واندمجت فى تصوراتها ، حتى كادت تنسى نفسها ، ولكنها أفاقت على صوت همس الغرام ، فقد كان الهمس ترجيعا لصوتها ، انها لم تسمعه يتحدث فعجز خيالها عن أن يستحضر صوتا لم يسمعه ، ولم يترك فيه الأثر الذى يتركه ما يألفه من أصوات .

وباتت ليلتها تسعد برؤى اليقظة وبهجة الأحلام ، حتى اذا ما أشرقت الشمس ، ودبت الحياة فى الكون ، هرعت الى مرآتها تصفف شعرها السبط ، وترنو الى وجهها الدقيق الجميل . فلما استراحت الى طلعتها هرولت الى الشرفة ترقب وفود الحبيب .

وأخذت ترصد الطريق فى قلق ورجاء . كان خيالها يوحى اليها أنه سيقبل متطلق الوجه ، ثم يرفع بصره اليها ، ويحييها بابتسامة رقيقة ، وانحناءة خفيفة من الرأس الجميل ، وصدقت وحى الخيال .

وأقبل ابن أبى عامر ، فخفق قلب أسماء ، واتسعت حدقتاها ، ومدت رأسها فى اهتمام ، ارصادا لما قد يأتيه سالب القلب من حركات ، وسار نحو الشرفة فزاد نبضها ، وزاد اهتمامها ، ولكنه انطلق دون أن

يرفع رأسه اليهـا ، أو يحنيـه تحية لها ، فانقبضت وبقيت فى شرفتها قلقة حائرة ، حتى اذا غادر القصر دخلت غرفتها ، لتنفرد بخياله ، تعاتبه على ما صدر منه من صد واعراض ·

وباتت ليلتهـا وقد خنقتهـا رؤى اليقظة وقسوة الأحلام ، فلما أشرقت الشمس ودبت الحياة فى الكون. خرجت الى الشرفة تنتظـر وفود ابن أبى عامر وقد عزمت على أن تبادله اعراضا باعراض ·

وجاء ابن أبى عامر ، وسـار ثابت الخطو ، فقفز قلب أسماء فى صـدرها ، وارتفع نبضهـا ، وأحست رغبة فى أن تقبل عليه بروحها ، ولكنها عزمت على أن تبدى له الصد ، فاستدارت فى غضب ومنحته ظهرها ، ولكنها لم تطق أن تصرف عنه بصرها ، فجعلت ترنو اليه من فوق كتفها ، حتى اذا غاب فى القصر أحست راحة ، فقد أعرضت عنه كما أعرض عنها ·

وراحت أسماء ترقب ابن أبى عامر كل يوم خافقة الفؤاد ، وكانت تعيش معه فى خيالها ، تناجيه يوما ، وتبثه غرامها يوما ، وتعـاتبه يوما ، وتصده يوما ، وتخاصمه يوما ، وتصالحه أياما ، وكانت فى حبهـا وصدها وهجرها ومخاصمتها سعيدة غاية السعادة ، كانت تعيش فى دنيـا أرحب من دنيـاها التى كانت لا تزيد على جناح فى القصر المحوط بجنـود مدججين بالسلاح ، وأسوار عالية ، وعين غالب التى لا تنام ·

وعلمت أسماء أن ابن أبى عامر مقبل اليـوم الى القصر ليودع أباها قبل أوبته الى قرطبـة ، فشعرت

بحزن عميق، ومشى اليأس اليها ، وشعرت بانقباض . كانت تحيا بالأمل ، وكان الرجاء يمد لها فى حبل الخيال ، وكانت ترجو أن يأتى يوم تجذب بصر ابن أبى عامر اليها فيحبها ، وها هو ذا ابن أبى عامر يغادر مراكش فتتقوض قصور الأوهام .

لو كان الأمر بيدها لنزعت ذلك الحب الفاشل من قلبها ، وألقت به بعيدا ، ولكن هيهات ! كان قلبها يهفو اليه ، يخفق بحبه ، يتمناه ، وان حالت بينها وبينه الحوائل ، وان قامت فى سبيل ذلك الحب عقبات.

وبقيت فى شرفتها حزينة الفؤاد ، تنتظر أن تتزود ممن أحبت آخر النظرات ، وأقبل ابن أبى عامر متهلل الوجه ، فشعرت بجفاف فى حلقها ، وبقلبها يغوص فى جوفها ، وبصدرها يضيق ، وبرغبة فى البكاء ، وغاب حبيبها فى القصر ، فكادت نفسها تذهب شعاعا .

ودخل الشاب على غالب ليودعه ، فبان التأثر فى وجه الشيخ الجاف ، ولم يحاول أن يكبت عواطفه ، فقال فى نبرات حزينة :

ــ يعز علينا فراقك يا محمد .

ومد الشاب يده يصافح الرجل الذى قدره وأحبه ، فقال غالب :

ــ فى حفظ الله ، الوداع !

فقال الشاب فى ثقة :

ــ بل الى اللقاء ، الى اللقاء فى قرطبة ، فى قصر الزهراء .

وانصرف ابن أبى عامر ، وانطلق فى طريقه الى

باب القصر الخارجى ، فراحت أسماء تتبعه بنظرات والهة ، وغام وجهها الجميل بسحائب من الأسى ، وابتعد الحبيب ، فأحست سكينا تمزق أحشاءها ، وروحها تنساب من جنبيها ، وابتلعه الأفق البعيد فغاب عن عينيها ، فانهملت دموع الحزن على الحب الذى نما وترعرع فى الخيال ، وكفن فى القلب قبل أن يرى نور الحياة ٠

## ٢٧

انطلق ابن أبى عامر يطوى الأرض ، وهو يتمنى أن يغمض عينيه فيرى نفسه فى القصر الحبيب ، انطلق مشرق النفس ، متفتح الآمال ، يشعر بقوة واعتزاز ، فقد كان يعود الى حاضرة البلاد مرفوع الرأس ، ليستأنف سيره فى طريق سعده ، ليحقق حلمه الذى آمن به من كل قلبه ٠

انطلق يفكر ، فراح سيال فكره يبعث الماضى الدابر ، ويخلق المستقبل المرجو ، فيرى نفسه فى متنزه الناعورة بين رفاقه وهو يقول لهم انه سيكون يوما حاكم هذه الدولة ، ثم لا يلبث أن يرى نفسه فى قصر فاخر عجيب ، وقد جلس على سرير الملك ، والناس يدنون منه خاشعين ، وظل فكره يترجح بين صور الماضى تبهجه ، وأمنيات المستقبل تسعده ٠

ودنا من الجبل المطل على قرطبة ، فأغذ السير ، حتى اذا أشرف على المدينة النائمة عند سفح الجبل ،

نظـر اليهـا خافق القـلب ، ومد بصره الى الجامع العـظيم . والقصر الجميـل ، والقنطرة الرائعـة ، والمدينة الهاجعة ، فهفت اليها نفسه ، ووقف يرقبهـا وهو نشوان .

وتذكر أحلام يقظته ، انه سيصدر أحكامه يوما من تلك المدينة الجميلة الى سـائر مدن البـلاد . وتملكه زهوه ، فخيل اليه أن قرطبة بقصـورها وحدائقها . وروائع عمـائرها سـاجدة عند أقدامه ، تقـدم له فروض الطاعة والولاء .

وانحدر الى المدينة ، وانساب فى طرقاتها . وما ان رآه النـاس حتى خفـوا لاستقباله ، وهرعوا اليـه يحيونه ، ويظهرون سرورهم بمقدمه . كان من حسن حظه ، أن وفدت قبل قدومه بقليل ، أنباء انتصارات غالب ، وأسره الحسن بن كنون ، فلما أقبـل هو من المغرب . ميدان الانتصارات الجديدة ، أطلق النـاس احساسات الفرح المذخورة ، فراح يشـق طريقه بين الجمـوع المهللة المكبرة ، وسـار وقد امتلأ صـدره بمشاعر فياضة من السرور ، فقـد استقبل استقبال الغزاة الفاتحين .

وبلغ ميدان القصر فرقص قلبه فى صـدره ، وربما سروره ، ولم يقدر على أن يملك شـعوره ، فطفـرت دموع الفـرح من عينيـه ، فقـد عاد الى الزهراء منصورا ، ودخل الى القصر على صـهوة جواده ، حتى اذا بلغ باب السـدة وترجل ، ألفى أصـدقاءه يرحبون به ، ويحتفلون بقدومه .

ودخل على المصحفى ، فقـــام صــــاحب الدولة يصـــافحه ، وقد افتر ثغـــره عن ابتســـامة ترحيب . فابتسم ابن أبى عامر ابتسامة حلوة ، وان كانت قد انتشرت فى صدره ابتسامة ساخرة عريضة ·

وعلمت صـبيحة بمجىء ابن أبى عامر ، فخفـق قلبهـــا ، وسرت فى بدنهـــا قشعريرة ، وراحت تقطـع الغرفة فى قلق جيئة وذهوبا · كانت تتمنى أن يقبل على عجل ، حتى يقضى على ذلك الاضطراب الذى استولى عليها ، فراحت ترصد الباب متلهفـــة ، وهى تصـــلح بيدها شعرها السبط المتهدل ، وثوبها الرائع الفتان ·

وفكرت فيما تفعله عنـــد مجيئه ، فرأت أن تبســـط ذراعيها ، فاذا ارتمى فى أحضانها ضمته الى صدرها الملهــوف ، ولم تثر على تلك الفكرة ، ولم تحاول أن تطردها من مخيلتها ، بل استمرأت التفكير فيها ، فما عادت تخشى أن تعترف لنفسها بأنها تحبـــه ، فبعاده أثبت لها أنها تهواه ، ورسائله دعمت ذلك الغرام ·

ومر الوقت وئيدا وئيدا ، وأخيرا جاء من يلتمس منهـــا الاذن لكاتبهـــا بالمثـــول بين يديها ، فأذنت له بالدخول عليها ، وقد ثار قلبها ، فراح يقفز ثم يغوص ، ليعود ليقفز ثم يغوص ، وتدفق دمها حارا فى عروقها ، ومشت الرهبة فى صدرها ، وغمرها اضطراب لذيذ ، وتعلقت بالباب عيناها الواسعتان الآسرتان ·

ودخـــل ابن أبى عامر الى غرفـــة الأميرة متطلق الوجه ، فرنت اليـــه صـــبيحة فى وله ، وأشرق وجهه بابتسامة عذبة جذابة ، وهمت بأن تتقدم اليه ، ولكنها

الفت قوة طاغية تشدها الى الأرض ، وقال الشاب فى صوت خافض أقرب الى الهمس :

— مولاتى ·

فقالت صبيحة فى صوت حلو ، فيه رنة فرح :

— حمدا لله على سلامتك يا محمد ·

فقال الشاب فى رضا واغتباط :

— شكرا لك يا مولاتى ·

ولم تجرؤ صبيحة على أن تبسط ذراعيها لتستقبل حبيبها الذى أضناها بعاده ، ولتضمه الى صدرها الملهوف ، ليهدأ القلب الثائر المفتون ·

## ٢٨

وعاد ابن أبى عامر الى القصر ، فعادت اليه ثقته بنفسه ، ولو أنها لم تتخل عنه يوما ، فقد اعتورها بعض الوهن لما طالت غيبته عن قرطبة ، وسار فى ردهات القصر ثابت الخطو ، راضى النفس ، متفتح الصدر ، فقد كان يؤمن فى تلك اللحظة بدنوه من أهدافه التى يحلم بها ، أكثر من أى وقت مضى ، كان يرى فى أوبته الى قصر الزهراء دليلا على محالفة القدر له ، فما عاد اليه الا ليرقى المجد حتى يتسنم الذروة ويبسط سلطانه على الجميع ·

وفكر فى السياسة التى ينتهجها لتبلغه آماله ، فهداه فكره الى ضرورة عودة غالب الى قرطبة ،

ليستعين به على اضعاف المصحفى ، وخضد شوكته ، فانطلق الى الخليفة وقد عزم على أن يزين له ضرورة إستدعاء قائده ٠

دخل على الحكم والمصحفى عنده ، وراح يثنى على غالب أعطر الثنـــاء ، وهو يرنو الى المصحفى بطرف عينه ، فيلمح ما يعتوره من تبـدل وحنق ، فيشــعر براحة ، كان يغبطه ما يسوء المصحفى ، وكان يرجو من كل قلبه أن تتاح لهالفرصة التى يذل فيها حاجب الدولة . فهو يحس نحوه مقتا شديدا ، ولكنه ما كان بقادر على أن يسفر عن ذلك المقت ، فلا زال المصحفى قويا ٠

وفكر فى أن يســــتغل جميع القـــوى ، حتى قوة المصحفى ، فى تحقيـق مأربه ، ففى مقـدوره أن يلين جانبه للمصحفى وأن يتودد اليه حتى يكسب ثقتــه ، ويستغل نفوذ عدوه فى محق قوى أخرى قد تعــترض سبيله يوما ٠

ورأى من الحكمة ألا يبدى عداوته للمصحفى حتى يشتد ساعده ، ويحين الحين الذى يصبح فى طاقته أن يداعبه مداعبة القط لفريسته ، فأحجم عمــا كان قد بيت النيــة عليه ، كان قد رأى أن يلتمس من الخليفة استدعاء غالب من المغرب الأقصى فىحضرة المصحفى، اذلالا له ، ولكنه رأى من الأصوب أن يفضى بذلك الى الخليفــة فى غيبــة حاجب الدولة ، الذى يخشى على سلطانه من القائد الذى سار النصر فى ركابه ٠

وخلا ابن أبى عامر بالخليفة يوما ، وقال له :

ـ لو تكرم مولاى وبعث الى غالب بأن يقد الينا وهو يسوق أمامه الحسن بن كنون وأهل بيته ومن أسر معه ، لأعاد مولاى الى البلاد يوما من أيام أمجادها الحربية .

فطأطأ الخليفة رأسه ، وشرد ذهنه ، وعادت به الذكريات الى أيام كان وليا للعهد ، فرأى نفسه شابا على صهوة جواد كريم ، عائدا الى قرطبة من حرب الافرنج والأسرى بين يديه ، فانبسطت أساريره ، ولمح ابن أبى عامر انشراح الخليفة ، فشجعه ذلك ، فقال :

ـ أصبح وجود غالب فى قرطبة ألزم من بقائه فى المغرب الأقصى ، فقد هزم الأدارسة وقضى الأمر ، فماتت ثورتهم ، واستتب الأمن والسلام ، فاذا وفد الى قرطبة بعد تلك الانتصارات ، رفع من روح الشعب ، وخلع قلوب الأعداء .

وصمت الشاب ، فنظر الخليفة اليه وفى عينيه رضا ، وقال :

ـ سنستدعيه يا محمد ، فهو خير قوادنا ورجل الملمات .

وخرج ابن أبى عامر من لدن الخليفة وقد أثلج صدره ، فسيعود غالب الى قرطبة بفضل سعيه ، وسيعلم غالب ذلك ولاريب ، وسيحفظ له تلك المكرمة ، وستزداد ثقته به ، فيسهل عليه تحريكه للقضاء على المصحفى ، وما أيسر ذلك ، فغالب يكره حاجب الدولة ، ولا يراه كفؤا لما بلغه من مكانة .

وجاء المصحفى يعرض على الخليفة شئون البلاد ، فقال له الحكم :

- ابعث يا جعفر الى غالب أن ينصرف الينا ، وأن يحمل معه الحسن بن كنون وزعماء الأدارسة ·

فشعر المصحفى بمطرقة تهوى على رأسه ، فقد حسب أن غالبا سيستقر بالمغرب الأقصى يدير شئونه ، وما حسب أنه سيخرج من قرطبة ليعود اليها متوجا بالفخار ، وساءه أوبة غريمه لينازعه السلطان ، فقال ليثنى الخليفة عن عزمه :

- ولمن ندع المغرب الأقصى القائم على فوهة بركان يا مولاى ؟

- لقد خمد البركان يا جعفر ·

- أخشى يا مولاى أن يجمع العلويون فلولهم ، ثم يهبوا لاسترداد البلاد ، والله يا مولاى ما للمغرب الأقصى غير غالب ·

- دك غالب معاقلهم ، وأخرجهم من البلاد ، وفرق فيها العمال ·

- أرى يا مولاى أن ندع غالبا هناك ·

فمد الخليفة بصره الى لا شىء ، ورأى بعين خياله قائده وقد عاد الى قرطبة ويحمل معه الحسن بن كنون وزعماء الأدارسة ، فقال فى حزم :

- اكتب يا جعفر الى غالب أن ينصرف الينا ، وأن يحمل معه الحسن بن كنون ومن معه ·

فانقبض صدر المصحفى ، وأحس رأسه يدور ، ولم يستطع أن يعاود الاعتراض ، حتى لا يفضح

خبيئة نفسه . فقال فى خشوع :
ـ أوامر مولاى .

٢٩

طوت أسماء قلبها على حبها بعد مغادرة ابن أبى عامر المغرب الأقصى . فقد صارت بينها وبينه بلاد ، وقر رأيها على أن تنتزع من فؤادها ذلك الغرام الذى بنى على الأوهام ، وآزرها فى تقرير ذلك أنها فشلت فى أن تلفت اليها نظره ، وما كان بينه وبينها أكثر من أشبار . فكيف بها وقد صار بينهما فيافى وبحار ومروج ووديان ؟ وركنت الى اليأس ، فهدأ قلبها واستقر استقرار العليل الذى خفت فيه نبض الحياة .

ودارت عجلة الزمن . وأسماء تحيا فى دنيا الواقع المحسوس ، كما يحيا الناس ، تستقبل النهار دون احتفاء ، فما صار يعنيها أيقبل أم يدبر ، أيطول أم يقصر ، وتعيش فى الليل كما تحيا فى النهار ، فما عادت تسمع همس الليل الأخاذ بأحاديث السحر ..وما عادت نجومه توحى بأعذب المشاعر ، وأرق الاحساسات . لقد هيض جناح خيال أسماء ، فالتصقت بالأرض بعد أن عاشت فى أبراج الخيال .

وذاع فى قصر غالب نبأ الرسالة التى وردت من الخليفة ، وما ان بلغ أسماء أنهم منطلقون الى قرطبة ، الى البلدة التى فيها من جرح الفؤاد ، حتى ردت الى

طبعها العالم ، وفكت عقال خيالها ، فخلقت لنفسها دنيا فسيحة ، أخذت تجوس خلالها حرة طليقة ، فغمرتها السعادة : كانت تهنأ بالعالم الذى تهيئه لنفسها بنفسها ، أكثر من هناءتها بعالمها الذى يحده جدران ·

رأت نفسها تدخل قرطبة فى ثياب حليت بزخارف بديعة ، وتهاويل رائعة ، وقد أسدلت نقابا كثيفا على وجهها ، ووقف ابن أبى عامر يتلفت فى لهفة ارصادا لقدومها ، حتى اذا لمحها ، تقدم اليها متهلل الأسارير . ومد يده ورفع نقابها ، ووضع يده فى يدها ، وسارا فى طريق مفروشة بالورود ، تعرج الى السماء ، حتى بلغا قصرا شيد فى السحاب ، وظلت أسماء تحلق صاعدة بأفكارها ، فقد كانت ملاكا لا يطيب له العيش الا فى السماء ·

وتجهز غالب ، وحمل معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة ، وانطلق الركب الهائل الى سبتة . ليركب منها البحر ، ووقف الناس يشاهدون عودة القائد العظيم الى بلاده ، وهو يسوق بين يديه أعداءه ، فاعتملت فى صدورهم مشاعر متباينة ، هذا مغتبط لانتصار غالب ، وذاك مشفق على أسراه ، كل حسب هواه ·

وتلفتت أسماء فوقع بصرها على الحشود الهائلة التى اصطفت على جانبى الطريق ، فصور لها وهمها أن تلك الجموع الزاخرة ما جاءت الا لتوديعها ومشاركتها فى غبطتها لانطلاقها الى بلد الحبيب ·

واستمر الركب فى سيره ، يتعاقب عليه الليل والنهار ، حتى وصل الى سبتة . وركب منها البحر ، ولجت أسماء فى التصورات ، فما كانت تمد بصرها الى شىء حتى تحيله رؤى وأحلاما ، وشاركها طيف الحبيب تلك الرحلة التى جعلها خيالها أبهج رحلة فى الوجود .

واستقر غالب بالجزيرة الخضراء ، وكتب الى الخليفة كتابا يلتمس فيه الاذن بالدخول الى قرطبة ، وبعث رسولا الى قصر الزهراء ، وما ان وصل الكتاب الى الحكم ، حتى كتب الى قائده أن يقدم من فوره بمن معه .

وفتحت أبواب القصر ، وخرج الجند والعبيد والرماة يحملون التراس الملونة ، والأسلحة المزينة ، والسيوف المشهورة . وانسابت فى طرقات قرطبة ، وركب الخليفة يحف به وزراؤه وقضاته ورجال دولته ، وخرج للقاء قائده الذى يعود متوجا بأكاليل النصر والفخار .

رأى المصحفى قرطبة . وقد خرجت لاستقبال غالب ، فأحس أبخرة الحسد تنتشر فى صدره فتضيقه ، حتى تكاد تخنقه ، وشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، ولم ينجح فى كبت مشاعره فران على وجهه الحزن ، ولاح فيه الغيظ العميق ، ورنا ابن أبى عامر اليه . فحزر ما يقاسيه من كرب ، فابتسم فى شماتة ، وراح يختلس النظر اليه وهو مسرور .

لمح غالب الخليفة ومن خرج معه لاستقباله ،

فترجل عن جواده وتقدم فى خشوع ، حتى اذا دنا من الحكم حياه فى اجلال ، فمد الخليفة له يده ، وصافحه فى حرارة وقد افتر ثغره عن ابتسامة تقدير ، كان لها وقع فى قلب المصحفى أقسى من طعنة سكين .

وتقدم الحسن بن كنون مطأطىء الرأس ، حتى اذا بلغ الخليفة ، انحنى فى ذل ، وقال فى خضوع :

ـ السلام عليكم يا أمير المؤمنين .

وساد صمت رهيب ، وأرهفت الآذان ، واتسعت العيون ، ترى هل يرد الخليفة السلام ، فيكون فى ذلك الأمان للحسن ومن معه ؟ وقال الخليفة فى صوت هادىء :

ـ وعليك السلام يا بن كنون .

ومدت أسماء يدها تزيح ستر هودجها ، وتقلب بصرها فى الجموع تنقب عن حبيبها خافقة القلب . ولمحته بالقرب من الخليفة ، فاضطربت وسرت فيها مشاعر لذيذة ، وخيل اليها أنه ينظر اليها ويبتسم . ففاضت سعادتها ، وربا سرورها . وسار الجميع فى طرقات قرطبة التى كانت تموج بالجماهير ، وشعر الناس بحرارة فى صدورهم ، وطغت حماستهم . فانطلقت هتافات مدوية تشق عنان السماء ، وبقيت أسماء تشيد قصورا فى الهواء على البسمة التى خلقها الخيال ، وترجمها وهمها الى ما يرضى القلب العاشق الولهان .

٣٠

ذهبت صبيحة الى جناح زوجها خافضة الرأس ، شاردة اللب ، وبان فى صفحة وجهها الجميل آيات النصب . فقد أصاب الحكم فالج فلزم فراشه . وسقطت الأميرة فريسة لأفكارها التى راحت تعذبها وتضنيها : فكرت فى حالها اذا مات زوجها . فهالها ما ينتظرها . فالخليفة الجديد سينزل بقصر الزهراء ، مقر الخلافة . فعليها أن تدع القصر بعد ذهاب زوجها ، وأن تهجر أبهة الحكم ، وأن تقبع فى قصر من القصور المبعثرة فى قرطبة ، مهملة فى زوايا النسيان .

وأفزعها أفول نجمها بعد تألقه ، وسلب السلطة منها بعد أن اعتادت أن تجمع فى يدها السلطان . فقر رأيها على أن تتشبث بالحكم ، وأن تغرى الحكم على نقل الخلافة الى ابنها هشام . فلو أنها نجحت فى ذلك لأبقت على نفوذها ، ولظلت تحكم الأندلس من وراء ستار . ان ابنها فى الحادية عشرة من عمره ، فاذا اعتلى عرش البلاد استمر الحكم فى يدها ، كما هو الآن .

وفكرت فى أن الأمة قد لا تقبل خلافة غلام ، فما جلس على عرش الأندلس خليفة لم يبلغ الحلم ، فكدرتها تلك الفكرة ولكنها رأت أن تبذل كل ما فى طاقتها من حكمة ودهاء ، لاقرار ذلك النظام ، ففيه وحده بقاؤها ودوام حكمها للبلاد .

وفكرت فى أن الشعب يحب الحكم ، ويضمر له

الولاء ، فرأت أن تستغل ذلك الحب فى نقـل الخلافة الى ابنه هشام ، فلو أن الحكم بادر الى أخذ البيعـة لابنه ، لما اختلف عليه أحد ، واستراحت الى تدبيرها ، فذهبت الى زوجهـــا ، لتخـــرج أفكارها الى عالم الوجود ٠

دخلت على زوجها ، فألفت الوهن قد دب فى جسمه ، وذبلت عيناه ، وتكسر جفناه ، فقالت له وهى تنتزع ابتسامة :

ـ كيف أنت الآن يا مولاى ؟

فقال فى صوت خفيض :

ـ ثقل على المرض يا صبح ٠

ـ أنت بخير يا مولاى ٠

ـ لا ، يا صـــبح ، دنا يومى ، وحان أجلى ، والله يا صبح ما يقلقنى الا مصير هذه البلاد ٠

وصمت الحكم قليلا ، ثم قال :

ـ ان ما تكهن به ذلك الكاهن يرن فى أذنى آناء الليل وأطرا فـالنهار ، ان صوته يهتف بى ويصيح دواما : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى اقبال ودوام ما توارثه الأبنـــاء عن الآباء ، فاذا انتقـل الى الاخوة وتوارثوه فيمـــا بينهم ، أدبر وانصرم » انى أومن يا صبح بحقيقة ذلك كل الايمان ٠

ورأت صبيحة الفرصة قد سنحت لتنفيذ تدبيرها ، فقالت :

ـ وما الذى يقعد بك عن انقاذ ملك آبائك ؟

ـ وماذا أفعل يا صبح ؟

- خذ البيعة لابنك هشام .
- هيهات !
- لماذا يا مولاى ؟
- سيحجم الشعب عن مبايعته ، وسيقاوم المغيرة تلك البيعة .
- لا يا مولاى ، ان شعبك يحبك ، وسيبايع عن رضا اكراما لك ، أما المغيرة فلن يجرؤ على اعلان الخلاف .
- حبك لهشام يهون عليك الأمر .
- الأمر هين لو أقدم مولاى .
- لطالما فكرت يا صبح فى ذلك . ولطالما أحجمت بعد طول روية وتدبير .
- أقدم يا مولاى انقاذا لملك آبائك .
وساد الصمت برهة ، ثم قال الحكم فى عزم :
- سأفعل يا صبح لأحفظ ملك بنى أمية من الزوال .
وسرت راحة فى صدر صبح ، وصفا ذهنها المكدود ، وقال الحكم وقد أسبل عينيه ، وشرد بذهنه قليلا :
- اننا يا صبح مقبلون على عمل جسيم ، عمل جد خطير .
- وما وجه الخطورة فيه ؟
- أن يثور الناس .
- لن يثور أحد ، اطمئن يا مولاى .
فقال الخليفة فى نبرات ساخرة :
- ما أيسر الاطمئنان .
وقفزت الى رأس صبيحة فكرة ، فما كانت تستطيع

أن تنسى حبيبها ابن أبى عامر حتى فى تلك اللحظة فقالت :

ـ فلنأخذ الحيطة يا مولاى ، لو كان صاحب الشرطة من خلصائنا الأوفياء لأمنا سلوك الناس ·

ـ هذا حق يا صبح ·

ـ فلنختر لذلك أحد رجالنا المخلصين ·

ـ من يا صبح ؟

وأطرقت صبيحة ، متظاهرة بالتفكير ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :

ـ ماذا يا مولاى لو جعلنا ابن أبى عامر صاحب الشرطة فى البلاد ؟

فقال الحكم فى رضا :

ـ اختيار موفق يا صبح ، أفكارك اليوم صائبة كما هى على الدوام ·

★ ★ ★

وأهم مرض الخليفة الصقلبيين الخصيين فائق وجؤذر ، كان الحكم يدنيهما منه ، ويصفح عن اساءاتهما ، فقد كانا أمينيه وثقتيه على الحريم ، فكان يلين لهما ، ويترفق فى معاملتهما ، وما كانا يدريان ما يكون نصيبهما اذا مات الحكم ·

كانا صاحبى نفوذ فى القصر ، فتحتهما ألف من الصقالبة العبيد ، الذين لا يعصون لهما أمرا ، وكانا يتحكمان فى قوة كبيرة لا يستهان بها ، قوة لها جلالها وخطرها ·

وكانا يمقتان المصحفى ، لصلفه وبخله الشديد ،

وقد استمالهما المغيرة اليه بهداياه ، فأصبح لهما الضياع الواسعة ، فما أن اشتد المرض على الخليفة حتى اجتمعا ، وجعلا يتشاوران فيم ينتهجان من سياسة اذا قضى الحكم ٠

وفكرا ودبرا ، فرأيا أن يناديا بالمغيرة خليفة على الأندلس بعد موت أخيه ، لأنهما اذا فعلا ذلك كان لهما الفضل على الخليفة ، فيمكن لهما فى الدولة ، ويقوى نفوذهما ، وفى اعتلاء المغيرة قضاء على المصحفى الذى يمقتانه أشد المقت ، وأخذا يرقبان ما يجرى فى القصر ، وينتظران موت الحكم ليأتيا بالمغيرة ، ليتربع على عرش آبائه الكرام ٠

٣١

دبت فى قصر الزهراء حركة غير مألوفة ، فقد تدفق عليه أعيان الدولة ، ووجوه الناس ، ولاح فى وجوه الجميع أمارات التساؤل ، فما كانوا يدرون فيم استدعاهم الخليفة المحبوب الذى طال رقاده ٠

واصطف الجنود على جانبى الطريق المؤدى الى بيت المنام ، فالخليفة راقد هناك لا يستطيع حراكا ، وانطلق أكابر الأندلس الى حيث كان الحكم ، فما ان أقبلوا على المجلس الشرقى ، حتى فتحوا أفواههم من الدهش ، فقد رأوا تماثيل رائعة غاية فى الروعة ، كانت من الذهب الأحمر ، مرصعة بأنفس الدرر ؛

كانت أسدا رابضا ، وغزالا قائما ، وتمساحا فاغرا فاه ، وفى قبالتها انتصب ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وراحت جميعا تنفث الماء من أفواهها فى هيئة رائعة تأخذ بالألباب .

ودخل الجميع على الحكم الممدد فى فراشه . وانحنوا حتى كادت جباههم تلمس الأرض ، ثم أخذوا أماكنهم وقد التزموا جانب الصمت ، ودخل المغيرة يتبختر فى خيلاء ، واتجه الى أخيه ، وانحنى يحييه ثم جلس بالقرب منه .

ووقفت صبيحة خلف ستار ، ترصد ما يجرى فى مكان الاجتماع فى قلق واهتمام ، وقد أرهفت حواسها جميعا ، كانت تعلم خطورة ذلك الاجتماع ، ففيه سيكتب لها السعادة ، أو يحكم عليها بالشقاء ، وجعلت تقلب ناظريها فى الموجودين خافقة الفؤاد ، حتى اذا وقعت عيناها على المغيرة زاد وجيب قلبها ، وشعرت بالمقت يتحرك فى صدرها ، فالمغيرة مصدر قلقها ، فما كانت تخشى أن يشق عصا الطاعة سواه .

ووقف بالقرب من فراش المريض المصحفى حاجب الدولة ، وخلفه ابن أبى عامر وكيل هشام ولى العهد وصاحب الشرطة فى البلاد ، وما ان التأم عقد المجتمعين حتى نشر المصحفى صحيفة كانت مطوية فى يده ، وراح يقرؤها على الجميع .

أطرق الأعيان والأشراف وذوو النفوذ فى الأندلس، وقد أعاروا المصحفى سمعهم ، وبان عليهم الاهتمام

الشديد ، فالخليفة يعـرض عليهم أن يبايعوا لابنـه هشام من بعده . وأخذت صبيحة تجيـل عينيهـا فى وجوه الجميع ، محاولة استشفاف ما تكنه صدورهم، وثبت بصرها على المغيرة ، خيل اليها أن لونه غاض ، ووجهه اكفهر ، فأحست رجفـة تعتريهـا ، وانقبض صدرها كما ينقبض لنائبة حلت بها ، وتدثرت بالقلق الرهيب .

واستمر المصحفى فى القراءة ، ولجت صـبيحة فى القـلق والرهبـة . حتى اذا انتهى من قـراءته دفع بالصحيفة الى الناس ليوقعوها اقرارا منهم بأنهم قد بايعوا لهشام ، وقبلوه خليفة للأندلسيين .

وسارع الناس بالتوقيع دون روية وتدبير . كانوا يحبون الحكم ، فرأوا أن يلبوا رجاءه ، وأن يحققوا أمنيته ، ولم ير المغـيرة بدا من التوقيع ، فمـا كان يجترىء على الخـلاف فى حضرة الخليفـة الذى أمده مرضه بقوة طاغية فقد أسر مرضه قلوب الجميع .

وقام وجوه الناس وأعيـان الأندلس ، وانصرفوا مشكورين ، ونهض المغـيرة وانصرف وهو يبتسم ، وان كان يحس مرارة فى فمه ، وخرج المصحفى وابن أبى عامر فى ركابه ، ليبلغاه حتى باب القصر الخارجى .

وغمرت السعادة صـبيحة ، فلم تطق أن تصـبر خلف الستار ، فأزاحته فى نشـوة وهرعت الى الحكم وقد افتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، وشعت عينـاها الرائعتان ببريق الفـرح ، وارتمت على صـدره ، وجعلت تقبله هنا وهناك فى غبطة وجنون .

وانبسط الوجه الشاحب ، وابتسم الفم الذابل . وتفتحت العينان المنكسرتان ، وهمس الحكم فى صوت خافض :

— ها قد نجح تدبيرك يا صبح ·

— بل هزم اقدامك احجامك يا مولاى ·

— والله يا صبح ما أدرى ماذا كانت تساوى حياتى لو خلت منك ؟ !

فمالت صبيحة وطبعت قبلة شكر على فم زوجها . ورنت اليه فى صفاء · وأقبل المصحفى وخلفه ابن أبى عامر ، فالتفتت الأميرة اليهما ، ورنت الى الشاب وما كانت رنوتها اليه كتلك الرنوة التى منحتها الخليفة المريض ، بل كانت نظرة شحنت اشتهاء

وقامت الى المصحفى ، وتناولت الصحيفة . وأخذت تتطلع اليها فى انشراح ، ثم استدعت خادمها ميسورا ، وأمرته أن يحرر وثائق ، لتبعث بها الى مختلف بلاد الأندلس والمغرب الأقصى ، ليوقعها الناس ·

وأخذ ابن أبى عامر ، صاحب الشرطة فى البلاد . تلك الوثائق ، وانطلق يجوس خلال الديار ، ثم عاد بها وقد وقعها الناس ، حبا فى اظهار اخلاصهم لخليفتهم الذى سادهم بالمحبة والوداد ·

وأحست صبيحة أنها لم تعد تطيق بعد ابن أبى عامر عنها ، فقررت فى نفسها أن تبقيه بقربها على الدوام ، فدخلت على الخليفة ، وقالت له :

- اظهر ابن أبى عامر ولاء عظيما لهشام ، وأرى أن نجعله بقربه ، ، فما ندرى ما تأتى به الأيام ·

فهمس الخليفة :

- انه وكيله يا صبح ·

- اريد يا مولاى أن يكون معه فى القصر على الدوام ، يحرسه ويرعاه ·

فأسبل الخليفة عينيه ولم ينبس ، وقالت صبيحة :

- فلنكلفه بالنظر فى الحشم ، فتتاح له فرصة السهر على هشام ·

فغمغم الخليفة :

- افعلى يا صبح ·

وأصبح ابن أبى عامر المفتش العام للقصر ، فصار الجميع فى قبضة يده ، بفضل حب صبيحة له ، وهيامها به ·

## ٣٢

وبلغ أمراء الافرنج مرض الخليفة ، فوسوست لهم نفوسهم بأن يستغلوا انشغال الدولة بمرض راعيها ، ويفجئوا الثغور بهجومهم ، فيضعوا أيديهم عليها ، وكانوا يعلمون أن الأندلسيين قد أهملوا تحصين المدن القريبة منهم ، بعد أن اطمأنوا لمعاهدة شنجة للناصر ، ومعاهدة أردون للحكم ·

جمع أمراء الافرنج الجموع ، وبعثوا سراياهم

لمناوشــة المدن الشــمالية ، وتريثوا ليروا ما تخبئه قرطبة لهم ، ولكن قرطبة كانت غارقة فى سباتها .

لم يكن المصحفى رجل سيف ، فمــا كان يدرى ما يعــقب المناوشــة من مباغتــة ، فلم يهتم كثيرا بتلك المناوشات ، ولم تقض منه المضاجع ، كان همه الأكبر أن يحيا حياته الرتيبة ، يبعد عنه منافسيه ، ويكدس خزائنه وخزائن الدولة بالأموال .

وكان ابن أبى عــامر قد اطمــأن الى مكانتــه فى القصر ، فقر رأيه على أن يبدأ فى مهاجمة المصحفى فى الخفاء ، ليزعزع أركانه ، فمــا ان بلغــه نبأ اغارة الافرنج عى الحدود ، حتى دخل على الأميرة . وقد بيت النية على أن يوغر صــدرها على حاجب الدولة ويرميه بالضعف والقصور .

التفت ابن أبى عامر الى صبيحة ، وبرقت عينــاه ببريق العزم ، وقال :

ــ ان ضعف المصحفى يرهبنى يا مولاتى ، وأخشى أن تجلب لنا استكانته للافرنج المتاعب ، فاذا لم يهب الآن ليخضد من شوكتهم قبل أن يشــتد ســاعدهم . فسنضطر الى أن نخوض بحارا من الدماء قبــل أن نستعيد هيبتنا .

فأطرقت الأميرة تفكر ، فقفزت الى رأسها صورة المغيرة ، كانت ترى فيه عدوها الأول ، كانت تريد أن تؤيد ابن أبى عامر فى رأيه الصــائب ، ولكن كانت تخشى أن تبعث الجيوش لقتال الافرنج ، فيثور أعوان المغيرة فى الداخل ، ويستولوا على البلاد .

ورفعت رأسها الجميل ، والتفتت الى حبيبها بعينيها الرائعتين ، وقالت :

-هذا هو الرأى يا محمد ، ولكن ...

وصمتت ، فلم تشأ أن تبثه مخاوفها ، فقال لها وهو يدنو منها :

- ولكن ماذا يا مولاتى ؟

- ولكن من الحكمة أن نتريث .

- الأناة لا تحمد يا مولاتي ، اذا هب عدو يقرع أبواب الديار .

- والعجلة فى ملاقاة عدو طارىء لا تحمد ، اذا كان هناك أعداء رابضون فى عقر الدار .

وحزر ابن أبى عامر ما ترمى اليه فسكت ، وقد أرضاه أنه بدأ يبذر فى صدرها بذور الشك فى قدرة المصحفى ، وعاهد نفسه على أن يتولى تلك البذور ، حتى يأتى اليوم الذى يهون فيه حاجب الدولة ، فيسهل عليه زحزحته من مكانه ، وازالته من طريقه .

وكان الحكم قد عفا عن الحسن بن كنون ومن معه من ملوك الأدارسة ، وأنزلهم قرطبة ، وأثبتهم فى ديوان العطاء ، فلما مرض الحكم وصار الأمر فى يد المصحفى، رأى بعينه الشحيحة أن الحسن والأدارسة السبعمائة الذين قطنوا قرطبة ، وأجرى عليهم العطاء ، يكلفون الدولة أموالا ضخمة ، ففكر فى أن يردهم الى المغرب ، ليتخفف من نفقتهم ، ولما كان كل همه صيانة الأموال وتكديسها ، أقر تلك الفكرة ، ووجدها رشيدة كل الرشد ، فمشى الى الحسن بن

كنون ، واتفق معه على أن يرده وملوك الأدارسة ومن جاء معه الى مراكش ، فوافق الحسـن ، وخرج الى المغرب الأقصى ، فاغتبط المصحفى لذلك الاقتصاد ٠

ولم يدم فرح المصحفى طويلا ، فما استقر الحسن ابن كنون بالمغـرب ، بل ذهب الى مصر ، ونزل على الخليفة الفاطمى ابن المعز لدين الله ، والتمس منـه النصرة ، ومعاونته على الأخذ بثأره ، فوعده الخليفة الفاطمى خيرا ، فاغتم المصحفى ، وبات يوجس خيفة

وعلم ابن أبى عامر ، وكان يرصد فعاله ، ويحصى سقطاته ، بغلطته هذه ، فدخل على الأميرة يجسم لها ما ارتكبه حاجب الدولة من خطل الرأى ، ويهول لها فيما قد يترتب عن خطل رأيه من نتائج ، قد تعود على الدولة بأوخم العواقب ، وأفدح الأضرار ٠

## ٣٣

اشتدت وطأة المرض علىّ الخليفة ، فكان يغيب عن الوجود ساعات ، ثم يفتح عينيـه ويتلفت بنظـره الشارد ، فاذا وقع على وجه صبيحة استقر قليـلا ، وسرعان ما يسبل جفنيه ليروح فى غيبـوبة طويلة ٠ كان الحكم يمضى آخر ساعاته على الأرض ، قبل أن يرحل الى ملكوت السماء ٠

وكانت صبيحة تمضى السـاعات بجواره ، تحنـو عليه وترعاه ، وكانت تطرق برأسها وتترك لخيالهـا

الحبل عى الغارب ، فتفكر فيما ينتظرها من أحداث ·
كانت ترى نفسها محاطة بالأخطار ، فالافرنج قد قرعوا طبول الحرب ، وأغاروا عى الثغور ومدن الشمال ، وأعوان المغيرة يرصدون الحوادث ، ليثبوا فى الوقت المناسب لانتزاع السلطان ·

وأهمها فكرها ، ورأت ضخامة المسئولية الملقاة على عاتقها ، فارتجفت رهبة ، فأى تهاون منها قد يقود البلاد الى حرب أهلية ، فيغرى ذلك العدو الخارجى بأن يوغل فى تقدمه ، حتى يطعن حاضرة البلاد ، ورأت أن مستقبلها ومستقبل ابنها ومستقبل الديار رهن بحسن تصرفها ، فعزمت على أن تعمل فى حيطة وحذر ، وأن تستغل كل مواهبها ، وكل ما منحتها الطبيعة من أسلحة ، لتخرج من هذه المعركة المرتقبة ظافرة ·

وانقضى النهار ، وجاء الليل ، وبدا أن هذه آخر ليلة للخليفة فى الوجود ، فبعثت الى الخصيين فائق وجؤذر ، وأمرتهما أن يمكثا مع الخليفة ، وذهبت الى مخدع قريب ، لتريح جسدها المكدود ، وتصرم الوقت ، وغلبها النوم فراحت فى سبات ·

وهبت صبيحة من نومها مفزوعة عى صوت طرق على الباب ، فحزرت كل شىء ، علمت أن الخليفة قد قضى ، وخلف لها ملكه وولده وديعتين بين يديها ·
وسارت الى حيث كان الحكم ، وقد سرت فى جسمها قشعريرة ، وحلت الرهبة بصدرها ، ووقفت بالقرب من زوجها المسجى ، وأطرقت وقد غام وجهها حزنا ،

ولكنها لم تجزع ولم تصرخ . فقد رأت أن تكتم ما بها ، حتى تنفذ ما استقر عليه عزمها فى صمت · ودنت من فائق وجؤذر ، وقالت لهما :

ـ ينبغى ألا يعلم أحد بموت الخليفة ·

وفطنا الى ما تهدف اليه من ذلك ، كانت تريد أن تدبر أمر المناداة بابنها خليفة على الأندلس ، قبل أن تعلن خبر وفاة أبيه ، ولما كان ذلك يقوض تدبيرهما ، نظر كل منهما الى رفيقه ، وتسللا من الغرفة ، وتركا الأميرة وزوجها الهامد ، الذى أصبح لا حول له ولا سلطان ·

وذهبا يتناجيان ، فها هى ذى الفرصة قد سنحت ليناديا بالمغيرة خليفـــة على الأندلسيين ، وليتخلصا من نفوذ المصحفى البغيض · فلو أن هشاما جاء بعد أبيه لظل المصحفى الشحيح جاثما فوقهما ، واستمرا يتحادثان فيمـــا يتخذانه من خطوات ، ليقلدا الخلافة المغيرة ·

وبقيت صـــــبيحة تفكر وتدبر ، ووجـــــدت أن ما ينتظرها أكبر من أن تقـــوم به وحـــدها ، فبعثت فى استدعاء المصحفى وابن أبى عامر ، ليتعاونوا جميعا على استخلاص العرش ممـــا يحدق به من أخطـــار ، وظلت ترقب مجيئهما نافدة الصبر ، وما دار بخلدها أن المؤامرة على العـــرش تحاك فى قصرها ، وعلى يد غلمانها ، وعلى قيد خطوات منها !

التفت جؤذر الى فائق وقال فى حزم :

ـ ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان الحاجب ، ونضرب عنقه ، فبذلك يتم أمرنا ٠

ولاح فى وجه فائق الاستنكار ، وقال :

ـ سبحان الله يا أخى ! تشير بقتل كاتب مولانا ، وشيخ من مشيختنا دون ذنب ، ولعله لا يخالفنا فيما نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدماء ٠

ـ هو والله ما أقول لك ٠

ولمحا المصحفى مقبلا يغذ السير ، فذهبا اليه وقالا له :

ـ مات مولانا الساعة ٠

فقال المصحفى وهو ينقل بصره الى وجهيهما ، يحاول أن يستشف ما يخفيان :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

وقال جؤذر :

ـ ان هشاما لا زال غلاما ، وقد رأينا أن نقلد الخلافة أميرا أكبر منه سنا ، وأنضج تجربة ، وقد وقع اختيارنا على المغيرة ٠

وشعر المصحفى بجفاف فى حلقه ، كان أمام مؤامرة دبرت بليل ، وأيقن أنه لو عارضهما لكان فى ذلك حتفه ، ففى القصر ألف مملوك من الصقالبة الشداد ، لا يخالفون لهما أمرا ، ، فرأى من الحكمة أن يسايرهما ، فقال لهما :

ـ هذا هو الرأى ٠

ـ وقد رأينا أن يقر ابن أخيه هشاما على العهد بعده ٠

ـ رأى سديد .

ـ وسندعو الناس الآن الى مبايعة المغيرة الرشيد ، فما رأيك أنت ؟

فقال المصحفى فى حرارة :

ـ هذا والله أسد رأى ، وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما ، وأنا أسير الى الباب ، فأضبطه بنفسى ، وأنفذ أمركما الى بما شئتما .

وسار المصحفى الى باب القصر ليضبطه ، وفكره يعمل ، فقد وقع فى ورطة لا يدرى كيف الخلاص منها ، كان يرى فى تقليد الخلافة المغيرة هلاكه ، وفى اظهار الخلاف أو اتيان أى حركة مريبة هلاكه ، فلا زال الخصيان الرهيبان فى القصر ، ومن يدرى ، فلعلهما يصدران الآن أوامرهما الى أتباعهما باطاحة رأس كل من توسوس له نفسه الخروج عليهما .

## ٣٤

وخف ابن أبى عامر الى حيث كانت الأميرة ، وانتظر مجىء المصحفى ، ومر الوقت وئيدا وئيدا ، فأظهرت صبيحة تبرمها من ذلك التأخير ، ان كل لحظة تمر دون عمل قد يكون فيها اضاعة للخلافة ، وتسرب الأمر من أيديهم .

ولاحظ ابن أبى عامر قلقها ونفاد صبرها ، فقال لها :

— انى ذاهب لأنقب عنه فى القصر يا مولاتى ٠

وهم بالتحرك ٠ فقالت له :

— مهلا ، انى ذاهبة معك ٠

وانطلقا يجوســان خلال القصر ، حتى اذا اقتربا من بابه ، سمعا لغطا ٠ فأرهفا الســمع ٠ وقد تدثرا بالخوف ، حسبا أن هناك مؤامرة تدبر ٠ وتقدما على حذر ٠ حتى صك آذانهما صوت المصحفى وهو يقول :

— لقــد نكث الصــقالبة بيعة هشــام ، وان فائقا وجؤذر يريدان أن يقلدا الخلافة المغيرة ٠

فأحست صبيحة يدا قوية تعصر قلبهــا ، ودمهــا يثور فى عروقها ، وفكر ابن أبى عامر فيمــا ســمع ، فوجد أن هناك عدوا آخر لم يحسب له حسابا ، عدوا ينبغى القضاء عليه قبل أن يناصب المصحفى العداء ، فقرر أن يهادن المصحفى ، حتى يقطع دابر الصقالبة العتاة ٠

وسارا ، صبيحة وابن أبى عامر ، حتى أشرفا على الجمع ٠ فقــد نجح حاجب الدولة فى احضــار بعض أصحابه وأقاربه وبطانته من الجند وبعض القــواد ، فاشــتد بهم ســاعده ، وراح يبثهم مخاوفه ، فأخذ يقول :

— ان أبقينا على ابن مولانا ، وحبسنا عليه الدولة ، أمنا على أنفسنا ، وصارت الدنيــا فى أيدينــا ، وان انتقلت الى المغيرة ، اســتبدل بنــا ، وطلب شــفاء أحقاده ٠

وارتفع صوت صبيحة تحرضهم على مناوئها فى الملك ، فقالت فى صرامة آمرة :

ـ ينبغى قتل المغيرة قبل أن يبلغه موت أخيه :

فارتفعت أصوات المجتمعين :

ـ أجل ينبغى قتله ، لا بد من قتله ·

فقال جعفر المصحفى :

ـ هذا هو الرأى ومن يتولى كبره ؟

فساد السكون ، ولم يتقدم أحد لانفاذ الاقتراح الذى وافق عليه الجميع ، حتى القواد ورجال السيف أطرقوا رؤوسهم ، ولاذوا بالصمت العميق ، فما أيسر أن يقرر الفئران تعليق الجرس فى رقبة القط ، وما أصعب التنفيذ ·

وساء صبيحة ما رأت من نكوص ، ولكنها لم تيأس فقد بقى لها ابن أبى عامر الحبيب ، فنظرت اليه بعينيها الساحرتين ، كأنما تسأله أن يتقدم ، وأن يقتل المغيرة اكراما لعينيها ، وما ان لمح ابن أبى عامر نظراتها ، حتى فطن الى ما تلتمسه منه ، فقال :

ـ أنا أتحمل ذلك عنكم ·

وردت الحياة الى المجتمعين ، كان كل منهم يهاب أن يلطخ يديه بدم المغيرة ، فيكسب عداوة أنصاره الكثيرين ، وهدأت أنفاسهم المكروبة ، وراحوا يعاودون الحديث ، وما أهون الحديث ، فقالوا له فى راحة :

ـ أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ، ومحلك من الدولة ·

وانطلق ابن أبي عامر الى المغيرة ، وانطلق معه مائة غلام من غلمان الحكم ، فلما بلغوا قصره ؛ ألفوا كل شيء هادئا ، فأحاط الغلمان بالقصر ، واندفع ابن أبى عامر داخلا لا يلوى على شيء ، حتى ألفى نفسه أمام المغيرة وجها لوجه ·

كان المغيرة مطمئنا فى جلسته ، فما كان يدرى ما يجرى خارج قصره ، فلما رأى ابن أبى عامر منتصبا أمامه ، تطلع اليه فى دهش ، ونظر اليه فى استغراب ، كأنما يسأله عما جاء به الساعة ، وفطن ابن أبى عامر الى الانفعالات التى ارتسمت علىّ وجهه ، فدنا منه وقال :

- مات الخليفة ·

- لا حول ولا قوة الا بالله ·

- وتقلد الخلافة ابنه هشام ·

- أسأل الله أن يجعل أيامه كلها سعادة وأمنا ·

فرنا اليه ابن أبى عامر وقال :

- وقد خشى الوزراء خلافك ، فأنفذونى لأعرف رأيك ·

فاتسعت عينا المغيرة ، وبان فيهما الهلع ، فقد فطن الى ما يرمى اليه كاتب صبيحة ، فقال فى تخاذل :

- سبق أن بايعت لهشام فى أيام أخى رحمه الله ·

- ولكن الصقالبة نقضوا بيعتهم ·

فقال المغيرة فى جزع :

- وما لى والصقالبة ؟

- أرادوا أن يقلدوك الخلافة ·

– لا مطمع لى فيها .
– والله ما بعثونى الا لقتلك .
فارتجف المغيرة ، واشتد ذعره ، وقال وهو يرتعد هلعا :
– انى سامع مطيع ، موف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم .
فقال ابن أبى عامر فى رثاء :
– نفذ السهم ، وحم القضاء .
– لن تجنوا شيئا اذا أهرقتم دمى ، انى سامع مطيع .. انى سامع مطيع .
– لن تجرع الا كأس المنون .
فقال المغيرة والدموع تطفر من عينيه :
– أناشدك الله يا محمد فى دمى ، وألتمس منك أن تراجعهم فى أمرى ، فما أظهرت خلافا ، ولا شققت عصا الجماعة ، انى سامع مطيع .. انى سامع مطيع .
وأثر توسل الأمير فى نفس ابن أبى عامر ، فأشفق عليه ، ورق له قلبه ، فقال له :
– سأراجعهم فى أمرك .
وراح يكتب الى المصحفى ، يصف له ما عاينه من المغيرة من الطمأنينة ، والجنوح الى المسالمة ، ويسأله رأيه . وبعث اليه بكتابه ، وانتظر ورود كتاب المصحفى .
وأخذ الوقت يمر ثقيلا ، وغاض لون المغيرة ، واضطربت أنفاسه ، واستولى عليه جزع شديد ،

حتى كاد يقضى من الروع ، وأخيرا عاد الرسول بكتاب المصحفى ، ودفعه الى ابن أبى عامر ، فقرأه ، ثم دفع به الى المغيرة ، فنظر اليه بعيون زائغة ، وما انتهى من قراءته حتى جعل ينوء من الاعياء ، فالمصحفى لم يقبل شفاعة ابن أبى عامر ، بل أخذ يلومه على التأخير ، وخرج ابن أبى عامر وقد أطرق مهموما ، فما كان يحب أن يلوث يديه بدم أمير أظهر جنوحه الى المسالمة والرضا بخلافة ابن أخيه ، وما ان خرج ابن أبى عامر حتى دخل الجند على المغيرة .

وسار ابن أبى عامر مطأطىء البصر ، وما ابتعد خطوات حتى صك أذنيه صوت المغيرة المفزوع ، واخذ الصوت يخفت ويخفت حتى زال من الوجود ، وخرج الجند يزعمون أن المغيرة قد خنق نفسه ، لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه .

## ٣٥

بلغ صبيحة مقتل المغيرة ، فهدأت نفسها ، ومشت اليها الطمأنينة ، فدثرتها بدثارها ، وانتشت روحها ، فقد انزاح من طريقها عدوها الألد ، الذى كانت تمقته من كل قلبها ، وترى فيه الخطر الدائم الذى يهددها ، كانت تكرهه كرها بغيضا ، كرها ليس يبرره الا وساوسها ومخاوفها ، فما حاول المغيرة يوما أن ينازعها سلطانها ، وما أبدى استياءه لاستبعاده عن

الخلافة • لعله تمنى يوما أن يكون خليفة للأندلسيين ، وان من حقه أن يتمنى ، فما جلس على عرش البلاد حدث قبل هشام ، ولكن ما كان من حق صبيحة أن تجرعه المنون لمجرد وساوس وتخيلات •

حاول فائق وجؤذر أن يقلداه الخلافة، لأنهما وجداه أنضج من هشام ، ولأنهما شاءا أن يطوقا جيده بجميلهما ، فيمكن لهما فى الحكم ، ويبسط من نفوذهما ، كانت مؤامرة الخصيين الصقلبيين لحسابهما ، ولكنها كانت وبالا على الأمير الشاب •

ولف السرور صبيحة ، فراحت تفكر وتهيم فى متاهات الخيال ؛ فرأت الجو قد صفا لها ، وأنها ستحكم الأندلس سافرة ، بعد أن كانت تحكمها من عشر سنين خلت من وراء ستار ، أصبحت الوصية على الخليفة ، فهشام لا يزال فى الحادية عشرة ، فصارت لها الكلمة العليا فى البلاد •

وفكرت فى ابن أبى عامر ، حبيبها الذى أظهر لها غاية الاخلاص ، وقتل المغيرة ، ليمكن لها فى الأرض ، فرأت أن تكافىء وفاءه ، بأن تشركه معها فى ادارة دفة الأمور • انها تقدر فيه ولاءه ، وتعترف بذكائه ، وتحب بقاءه الى جوارها دواما ، وتستريح اليه ، فذلك القرب ينعش روحها ، ويبهج فؤادها •

ولجت فى التفكير ، فحملها فكرها بعيدا ، وراحت تحاول أن تهتك حجب الغيب ، لترى ما يكون حالها اذا كبر هشام ، فرأت بعين خيالها ابنها ، وقد تربع على العرش ، وجمع السلطة فى يديه ، وتركها فى

القصر فى بيت النسيان ، فجزعت ، فما كانت تحب أن ترى نفسها مقصية عن الحكم وقد تعودت لذة السيادة والسيطرة ، انها لا تطيق أن ترى غيرها يأمر ويسود ، وان كان ابنها الوحيد ·

وخطر لصبيحة أن تكلف مربيه أن يشغله بأمور الدين ، يلهيه بآثار الصالحين ، حتى اذا شب وجد ما يلهيه عن التطلع الى ممارسة الحكم الذى تقوم هى بأعبائه نيابة عنه ، واستراحت الى ذلك الخاطر ، فجلبت لابنها معلما ينفذ سياستها ، وتركت ابنها بين يديه مهملا فى زاوية من زوايا القصر الهائل الفسيح ·

ووفد ابن أبى عامر الى القصر بعد مقتل المغيرة ساهما ، ممعنا فى التفكير ، وقد بدت عليه أمارات الضيق · انه استجاب الى نظرات صبيحة ، لأنه حسب أن المغيرة قد حاك تلك المؤامرة التى قام بها الخصيان ، وذهب ليغتاله على اعتبار أنه شريك نقض بيعته ، ولكنه ما اقتحم عليه داره ، حتى ألفاه هادئا ، خالى البال ، لا يدرى شيئا عما يجرى فى قصر الزهراء · انه اقتنع بكل جوارحه أنه بعيد عن دسائس فائق وجؤذر ، وقد كتب الى المصحفى بما رأى ، وكان يطمع فى أن يعفيه حاجب الدولة من اراقة دم شاب برىء ، ولكن المصحفى كتب له فى سخرية مريرة : « غررتنا من نفسك ، فانفذ لشأنك ، أو فانصرف نرسل سواك » · فلم يكن أمامه الا التنفيذ ·

وفكر فى أن دم المغيرة فى عنق صبيحة ، فهى التى أشارت بقتله لتنقذ العرش ، ولكنه التمس لها العذر ،

فقد فوجئت بالمؤامرة التى دبرت بليل ، فظنت أنها من تدبير المغيرة ، كما ظن هو فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يستطيع أن يلتمس المعاذير للمصحفى ، فقد كتب له يوضح حال الشاب ، فلم يقتنع ، وأصر على اغتياله . كأنما شاء أن يظهر ابن أبى عامر أمام الملأ سفاكا . يهوى الولوغ فى دماء الأبرياء ·

واغتاظ ابن ابى عامر ، وحنق على المصحفى ، ولكنه اضطر الى أن يكظم غيظه ، وأن يدارى حنقه ، فقد رأى أن الوقت لم يعد صالحا لاظهار عداوته للمصحفى ، فهناك عدو جديد ينبغى استئصاله قبل أن يناصب حاجب الدولة العداء ، لقد انكشف لعينه خطر الصقالبة ، فقر رأيه على أن يتخلص منهم أولا . وعلى أن يسخر قوى المصحفى فى القضاء عليهم ·

وعلم فائق وجؤذر ما أصاب المغيرة ، فاغتما . ونزل بهما هم ثقيل ، وأيقنا أنه لم يعد لهما مأمل فى النجاة الا بالاعتذار عما بدر منهما ، ولمأنهما أنهما كانا يعلمان مبلغ سطوتهما ، فتحت امرتهما ألف مملوك من الصقالبة ، لا يعصون لهما أمرا ، وأن المصحفى يرهب جانبهما ، ويخشى بأسهما ·

والتفت جؤذر الى فائق ، وقال فى عتاب وهما منطلقان الى المصحفى :

– قد نصحت لك فلم تسمع منى ، فلو أننا ضربنا عنقه لما حدث ما جرى ·

فقال فائق فى استخفاف :

– هون عليك ، فما زال بيننا وبينهم حروب طوال ·

ودخلا على المصحفى ، ونكسا رأسيهما اظهارا للندم ، وقال فائق :

- جئنا نلتمس الصفح عما بدر منا ، اننا ما ان رأينا مولانا - طيب الله ثراه - يجود بأنفاسه بين أيدينا ، حتى طاش عقلنا ٠

وقال جؤذر فى نبرات حاول أن توحى بالندم :

- ان الجزع أذهلنا عما أرشدك الله اليه ، فجزاك الله عن ابن مولانا خيرا ، وعن دولتنا وعن المسلمين ٠

ورنا المصحفى اليهما ، وفى عينيه سخرية ، ولكنه ما كان بقادر على أن يعمل لهما شيئا ، كان يعلم أنه اذا بادرهما بالعقاب ، أحدث فى القصر ثورة ، فرأى أن يتريث ، فقال لهما :

- ان من خطل الرأى أن يبادر الانسان بتنفيذ أول خاطر يقفز الى رأسه ، لقد كان تصرفكما جريمة فى حق الخلافة ، ولكننا سنعفو عنكما ، اذهبا ، لا بأس عليكما ٠

وخرج فائق وجؤذر ، ودخل ابن أبى عامر ، ليعلن عن اخلاصه للمصحفى ، ويحذره من الصقالبة العبيد ويوغر عليهم صدره ٠

## ٣٦

عفا المصحفى عن فائق وجؤذر مرغما ، فقد كانت الحوادث أقوى منه ؛ وخشى أن يؤلبا عليه دولة الصقالبة ، التى تسيطر على القصر ، وما كان يدرى

بعد أصدقاءه من أعدائه ، فقتل المغيرة ملأ نفوسا بالبغض للسلطة الجديدة ، وما أعلنت تلك النفوس بعد عما تخفى من حقد ، فخاف ان هو بادر الخصيين القويين بالعداء ، أن يثب الموتورون وثبتهم ، منتهزين فرصة انشغاله باستئصال الصقالبة الذين تكشفت نياتهم .

وقبلت صبيحة توبة المملوكين ، على الرغم من وهن عذرهما ، وافتضاح غدرهما ، فهما حرس الحريم ، وصاحبا النفوذ الكبير فى القصر ، ففى قيادتهما كثير من الغلمان والعبيد ، وقد اعتادت صبيحة أن ترى اغضاء الخليفة الراحل عن كثير من اساءاتهما ، فرأت أن تفتتح عهدها بالعفو الكريم .

ولم يأسرهما ذلك العفو ، ولم يلطف من بغضهما للحكم الجديد ما أبدته صبيحة نحوهما من عطف . على الرغم من ضخامة جرمهما ، فقد ساءهما قتل المغيرة وأوغر صدريهما ، وزاد من حقدهما اخفاق ما بيتا من تدبير .

واندس الخصيان وأعوانهما بين الناس ، وراحوا يقدحون فيمن اغتالوا الأمير البرىء ، ولجوا فى ذم المصحفى ، واتهموا صبيحة بأنها دبرت ذلك الانقلاب ليخلو لها الجو ، فما أصبح الأمر أمر الخليفة الغلام ، ولكنه بات أمر صبيحة ، وأذاعوا لتحريك النفور فى الصدور أن الأندلس جميعها صارت ألعوبة فى يد امرأة .

وانشغل الصقالبة فى اذكاء نار الثورة فى صدور

الناس ، فانطلقوا يجوسون خلال الأسواق والبلاد ، ولم يهتموا بمن فى القصر ؛ كانوا مطمئنين الى من فيه ، فهم عالبية غلمانه ، والمنوط بهم ضبط بابه · ولم يغب عن ابن أبى عامر نشاط الصقالبة ، فلم يجزع ، ولم يهب لمنازلتهم فى الأسواق والبلاد ، ولكنه رأى بعقله الراجح أن ينازلهم فى معتقلهم ، فاذا نجح فى أن يزلزل أقدامهم فى القصر نفسه ، صار القضاء عليهم أمرا تافها لا يشغل البال ·

وراح ابن أبى عامر يعمل على طريقته ، جاهدا فى استمالة الغلمان الى جانبه · فكان يكسب قلوبهم بالألفاظ المعسولة ، وكثرة البذل والعطاء · ونجح فى استمالة كثير منهم ، فاطمأن الى من فى القصر ، وبدأ يفكر فى القضاء على ما بذره الصقالبة فى صدور الناس ·

كان الصقالبة ملئوا الأرض اذاعة بأن هشاما المؤيد بالله حبيس القصر ، وأنه ستار يختفى خلفه الحكام الحقيقيون : المصحفى وصبيحة وعشيقها · وظلوا يؤلبون الناس وينفخون فى نار نقمتهم ، حتى تغيرت النفوس · ومما عاون على تبرم الجماهير ، احتجاب الخليفة ، فقد اعتادوا أن يروا خلفاءهم بينهم بين آن وآخر · كان الحكم يخرج اليهم ، ويذهب الى الجامع الكبير · أما هشام فلم يره الناس مذ قلد الخلافة ، فقد اعتكف فى القصر ، وتوارى عن الأنظار·

ووجد ابن أبى عامر أن خير وسيلة للقضاء على

اذاعات الناقمين ، أن يظهر الخليفة للشعب ، فدخل على الأميرة وقال لها :

ـ ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق الا أن تثب ٠

فأطرقت صبيحة برأسها ، ثم قالت :

ـ ماذا دهى الناس ؟

ـ سرت النقمة فيهم ، وبدت بوادر التذمر والاستياء ٠

ـ وماذا ترى يا محمد ؟

ـ أرى أن نرهبهم ونخفف عنهم ، وأن نشغلهم عما يذيع الناقمون ٠

ـ وكيف نرهبهم ونخفف عنهم فى آن ؟

ـ أن نقوم بعرض الجند ، اظهارا لهيبة الدولة ، وارهابا لأهل الخلاف ، وأن نسقط احدى الضرائب التى يبغضها الناس ٠

فرنت اليه صبيحة فى اعجاب ، وقالت :

ـ هذا هو الرأى ٠

وقال ابن أبى عامر وقد سره رضاء الأميرة :

ـ وأرى يا مولاتى أن يخرج الخليفة للشعب ، فالجماهير كالأطفال يلهيهم أتفه شىء ٠ اذا خرج الخليفة الصغير للناس ، تفتحت له أفئدتهم ، وتحركت عواطفهم ، فنزل فى سويداء قلوبهم ٠ ان حداثته ستعمل عمل السحر فى نفوس الناس ٠ ستعبث بالقلوب ، وتغسل من الصدور الأحقاد ٠

وتألقت عينا صبيحة الجذابتان ببريق الغبطة ، والتفتت الى ابن أبى عامر ، وقالت :

— سيخرج هشام للشعب اليوم ، وستخرج يامحمد بين يديه ٠

وانسحب ابن أبى عامر ليتأهب للخروج بين يدى مولاه ، وبقيت صبيحة تفكر فى أمر ذلك الشاب العجيب الذى تهواه ، ويخفق له فؤادها ٠ انه راجح العقل داهية من الدهاة ، شديد الاخلاص ، انه يستحق أن يصبح وزيرا يعتمد عليه ٠ واستولت عليها تلك الفكرة ، فأصدرت الأوامر بأن ينتظم ابن أبى عامر فى سلك الوزارة ، ولم تكتف بذلك ، بل بعثت الى المصحفى حاجب الدولة ألا ينفرد عن ابن أبى عامر برأى ٠ وتدفقت الجند من القصر كالسيل ، واصطفت على جانبى الطرق فى قرطبة ، فذاع بين الناس أن الخليفة خارج لشعبه ، فأقبلت الجماهير من كل حدب وصوب ، فاكتظت الشوارع بالأجسام ، وتكدس الناس فوق الأسطح ، وانطلق ركب الخليفة الهائل فى شوارع قرطبة ، ومحمد بن أبى عامر بين يديه ٠ وما أن وقعت الأبصار على الخليفة الغلام حتى خفقت القلوب ، وانطلقت الهتافات ، وظل الركب يطوف بقرطبة واحساسات الفرح تمور فى الصدور ٠

وعاد الخليفة الى الزهراء ، وما ان بلغ القصر ، حتى أمر باسقاط ضريبة الزيتون ، وعلم الناس بأمر تلك الضريبة التى أسقطت عن كاهلهم ففرحوا ، وفاض فرحهم ، فأخذوا يطوفون بقرطبة يهتفون للخليفة العادل ٠

ورأى ابن أبى عامر سرور الشعب لرفع تلك

الضريبة ، وثناءه على الخليفة ، فطمع فى أن ينال رضا الناس وحبهم له ، فدس بينهم أعوانه يذيعون أن رفع تلك الضريبة كان من تدبيره ، فأصغت الجماهير الى ما يذاع وقد امتلأت قلوبهم حبا للوزير ، الذى عرف بعطفه وحدبه على الشعب ٠

## ٣٧

تفتحت أسماء ، ونهد صدرها ، واكتملت أنوثتها ، فقد أنضجتها السنون ، وترقرق الدم فى وجنتيها ، وتألقت عيناها ببريق حلو ، فازدادت نضارتها ، ونبضت الحياة فيها دافقة قوية ، وعلى الرغم من تلك الحيوية ، ظلت مسحة الضعف المحببة الى قلوب الرجال تكسو وجهها الجميل ، فتزيد حلاوتها ٠ كانت تلك المسحة كنقاب شفاف أسدل على وجه رائع الحسن ، فيشوق النفوس الى الرنو الى الوجه العارى المستور ، والتحديق فيه ، لاستجلاء ما يحجب النقاب من مفاتن ٠

تبدلت هيئة أسماء ، فقد امتلأ جسمها قليلا ، وربا جمالها ، وطغت روعتها ، ولكن لم تتبدل روحها الهفهافة السابحة فى سموات الخيال دواما ، فما نجح كر السنين فى اهاضة أجنحة خيالها ، فيهبط لتعيش على الأرض كما يعيش الناس ، بل ظلت على حالها هائمة فى دنياها الحالمة ، التى كانت تخلقها فى نفسها ٠

كان رأسهـا يتسع لعالمهـا البهيج الذى تتخيله ، فكانت تحيا حياتها الجميلة ، تتصور ما تشـتهى من أحداث ، وتنفعل لما يجرى فى مسرح خيالها ، فتغمرها النشوة ، وتستولى عليها مشاعر حالمة لذيذة ٠

وظلت أسماء تفكر فى ابن أبى عامر ، فمـا أوهن ترادف السـنين ما تشـعر به نحوه ، بل ان كثرة تفكيرها فيه جعله قريبا منها ، أقرب من غالب أبيهـا الذى تجمع بينها وبينه دار واحدة ٠ أصبـح طيفه قطب تفكيرها ؛ والمحور الذى تدور حوله دنياها ٠

وكان يؤجج نار صـبابتها كثرة رؤيتهـا ابن أبى عامر ، كان يفد الى دارهم ليزور أباها ، فكانت ترصد اقباله وادباره واجفة القلب ، مكروبة الأنفاس ، حتى اذا غاب عن عينيهـا ، خلت بنفسهـا لتحضره فى خيالها ، فتنعم بقربه ، وتهنأ بحديثه ، وتحيا معه فى دنيا الأحلام ٠

وترامى الى سمعهـا أن حبيبهـا خارج بين يدى الخليفـة فى موكبه العـظيم ، وقـد أنهض الى خطـة الوزارة فانتشت روحها ، وشاعت البهجة فى صدرها ، وتدثرت بالفرح ، فقد سرها رفعة حبيبها ، ولم تطق أن تمكث فى الدار دون أن تكتحـل عينـاها برؤية فارسها ، فانطلقت الى أبيها تلتمس منه أن يأذن لها فى الذهاب الى دار احدى صويحباتها لتشاهد موكب الخليفة الصغير ٠

ووقفت تطـل على الطـريق الذى ازدحم بالجند والجماهير ، وقد شملتها رهبة لذيذة ، وقلق خفيف ٠

وما ان أقبل الركب حتى أخذ قلبها يرقص فى جوفها .
ووقعت عيناها على ابن أبى عامر ، وقد ارتدى الخز
والديباج . فشعرت بقلبها يكاد يفر من فيها ، وثارت
مشاعرها ، وهفت نفسها الى الرجل الذى احتل
فكرها وفؤادها . وأدامت النظر اليه ، وقد استولت
عليها مشاعر غامضة شهية : مشاعر يحسها المحب
اذا لاقى الحبيب .

وعاد الناس الى دورهم ، وعادت أسماء الى
دارها ، وقد اختفى الموكب الهائل فى جوف القصر
العظيم ، ولكنه لم يختف من خيالها ، وبقى به لا يريم
وفكرت فى ابن أبى عامر فأحست به فى تلك اللحظة
قريبا منها قربا غريبا . وهمس فى أغوار نفسها
هامس ، راح يوحى اليها أن تعلقها به ما كان عبثا .
وأن القدر ما ساقه اليها ليضنيها ، واستراحت الى
ذلك الهاتف المجهول ، فاسترخت فى مقعدها لتجتر
ما خلقته بنفسها لنفسها من ذكريات .

وغرقت أسماء فى أفكارها ، وغرق أبوها فى
أفكاره ، فقد كان غالب ، قائد الحكم المجرب ، يفكر
فيما وقع بعد أوبته من المغرب الأقصى منصورا ، كان
يأمل أن يوليه الحكم حجابته ، ولكن جعفر المصحفى
ظل فى وظيفته ، فزاد حقده عليه ، فما كان يرى
المصحفى كفئا ليدير دفة البلاد ، انه لا يصلح الا
ليدبج العبارات وينظم القصائد فى مدح الخليفة .

ومات الحكم وبويع ابنه بالخلافة . فأمل غالب فى
أن يستدعى ليتقلد الوزارة . فالافرنج قد عبثوا

جيوشهم . وهجموا على الثغور فاحتلوها ، فما عاد يصلح للوزارة سوى رجل سيف ، وما كان فى الأندلس رجل سيف ينافسه .

وقوى من أمل غالب وجود ابن أبى عامر بالقرب من صبيحة ، كان يعلم أن الأمر أصبح أمرها ، وأنها تثق بكاتبها ، وتسترشد بآرائه ، وتهتدى بهديه ، وكان قد اتفق وابن أبى عامر على أن يخلعا المصحفى ، ولكن هشاما المؤيد بالله قد قلد المصحفى حجابته ، وأنهض ابن أبى عامر الى خطة الوزارة ، فضعف أمله فى تحقيق أمنيته ، وحقد على الدولة .

وفكر فى جيوش الافرنج التى انتهزت فرصة ما وقع فى البلاد من اضطرابات بعد موت الحكم ، وزحفت على المدن الشمالية ، فرأى أن ليس فى الدولة قوة تستطيع أن تقف تيار زحفها غير ما تحت يده من قوة ، فعزم على ألا يتحرك لملاقاة الأعداء ، وعلى أن يتحصن فى مدينته ، يرقب الأحداث فى حذر ، وينتظر ضغط الحوادث التى سترغم القصر على استدعائه ، لصد تيار الافرنج الجارف ، ويومها سيعرف كيف يحقق أمنيته التى تتراءى له فى اليقظة وفى المنام .

كان غالب يتمنى من كل قلبه أن يصبح حاجب الدولة ، وما كان فى قرارة نفسه يحفل كثيرا أعم الخير البلاد أم سادها الخراب .

## ٣٨

ذهب فائق الى بياسة ، وقابل درى أميرها ، وكان فتى يدين بالولاء للصقالبة ، فما ان اجتمع بالخصى الموتور ، حتى راح يعد عدته لمناوأة المصحفى ، فبسط لسانه فيه ، وجعل ينقد سياسته ، ويحاول ايغار صدور الناس عليه ، تمهيدا لتمرده عليه ، فقد كان الخصيان الصقلبيان يتأهبان لقلب نظام الحكم . الذى مكن لعدوهما الألد فى البلاد .

وظل فائق وجوذر يدبران المؤامرات ولكن تدبيرهما ما كان يخفى على أحد . فالمصحفى قد أذكى عليهما العيون ، وابن أبى عامر يرصد حركاتهما ، فلما فطن الى أن الفتنة توشك أن تطل برأسها ، رأى الفرصة قد سنحت لتحريك المصحفى للقضاء على الصقالبة ، فدخل عليه ، وقال له :

ـ ما زال الصقالبة يجتمعون بالقصر يدبرون على الدولة .

ـ عندى علم ذلك يا محمد . وأعلم أنهم يحاولون تأليب الأمراء علينا .

ـ وهل نتركهم يحيكون شباكهم حولنا ، حتى نصحو يوما ونحن أسرى نخبط فى شباكهم ؟

ـ أفكر فى وسيلة أقضى بها عليهم دون أن أعلنها حربا شعواء ، قد تقضى علينا قبل أن تقضى عليهم .

- تركهم هكذا خطر يهدد البلاد .

- - والتضييق عليهم وحجر حرياتهم أشد خطرا .

- نستطيع أن نضعهم تحت الرقابة ، دون أن يقدروا على اعلان سخطهم .

فنظر المصحفى الى ابن أبى عامر فى اهتمام دون أن ينبس بكلمة ، واستمر ابن أبى عامر فى حديثه :

- انهم يضبطون باب الحديد ، فيدخلون منه ويخرجون دون رقيب ، فاذا سددنا ذلك الباب ، وصار الدخول من باب السدة ، أصبحوا تحت عيوننا .

وأعجب المصحفى بالفكرة ، فأمر بانفاذها ، فأصبح دخول فائق وجؤذر وأعوانهما من باب السدة ، فجعلوا يتحركون فى حذر ، وتضايقوا من وطأة المراقبة ، وزاد فى حنقهم تودد ابن أبى عامر الى غلمان القصر وميلهم اليه ، فاجتمعوا ليضعوا حدا لتلك المضايقات .

فكروا ، وأجالوا قداح الرأى بينهم ، فلم يجدوا فى جعبتهم الا سهما واحدا ، فعزموا على اطلاقه . ان جؤذر يتمتع بنفوذ كبير فى القصر ، فالخليفة لا يمكن أن يستغنى عنه ، فلو أنه قدم استقالة لما قبلها ولاستبقاه ، وعندئذ تتاح له فرصة املاء شروطه ، وتوطيد نفوذ الصقالبة المهدد بالزوال .

وكتب جؤذر استقالته ورفعها الى هشام ، وبلغ ابن أبى عامر ذلك فاستبشر ، ودخل على صبيحة يشير عليها بقبول تلك الاستقالة ، ففى قبولها انقاذ

البلاد من شر الصقالبة ، الذين استفحل أمرهم حتى بات يهدد الخلافة .

وتأهب جؤذر لملاقاة الخليفة لبسط قضيته ، وعرض مطالبه ، فما دار فى خلده أن هشاما يقبل استقالته ، ولكن ما ان بلغه استغناء القصر عنه ، حتى اغتم ، واشتد حقده ، وما كان فى قدرته أن يفعل شيئا سوى الخروج الى داره مطأطىء الرأس ، يحس طعم الهزيمة المرير .

وفار مرجل غضب الصقالبة لقبول استقالة جؤذر . وما كان غلمان القصر بقادرين على أن يبدوا احساساتهم ، فقد ضيق ابن أبى عامر عليهم ، ولكن أمراءهم أظهروا استياءهم ، وكان درى أشدهم غضبا واستياء .

وضايق المصحفى تهجم درى عليه ، وحزر ابن أبى عامر ذلك ، فراح يهون عليه أمره ، ويذكر له أنه سيضع حدا لوقاحته ، وكان ابن أبى عامر صادقا فى قوله ، فقد بيت النية على القضاء عليه ، ففى هزيمته تقليم أظافر الصقالبة ، وقد صار هدفه سحقهم ، قبل أن يسفر عن حقيقة شعوره نحو حاجب الدولة .

وشد ابن أبى عامر الرحال الى بياسة ، وراح يستقصى أخبار درى ، وينقب عن سوءاته ، فلما علم أن الناس ناقمون عليه ، لظلمه وطغيانه ، جعل يبحث عن أشد الناس عداوة له ، فلما اهتدى اليهم ، أشار عليهم بتقديم الشكوى منه الى الخليفة ، ووعدهم باستغلال نفوذه فى راحتهم من أميرهم الجائر .

وعاد ابن أبى عامر الى القصر ، ودفع بالشكوى الى المصحفى ، فرفعهـا الى الأميرة ، واستدعت صبيحة ابن أبى عامر ، لتتداول معه فى أمر تلك الشكوى ، فأشار عليها بالجمع بين درى وبين مقدميها .

وبعث الخليفة الى درى يأمره بالحضور الى بيت الوزراء ، فجاء مطمئن البال ، ولكن ما ان بلغ الدار ، ورأى خصومه الذين أمر الخليفة بالجمع بينه وبينهم ، حتى انقبض صدره ، وأوجس خيفة ، فهم بالعودة من حيث جاء ، ولمحه ابن أبى عامر وهو ينكص على عقبيه ، فخف اليه ، وحاول أن يقبض عليه ، ولكنه دفع ابن أبى عامر فى شدة ، فهجم عليه ابن أبى عامر ، وتلاحم الرجلان .

ولمح الجند المعركة الدائرة بين الرجلين ، فوقفوا مشدوهين لا يبدون حراكا ، كانوا يخشون بأس درى ، وبطش الصقالبة ، وجاء بعض الجند من أعوان ابن أبى عامر فهجموا على درى وأوسعوه ضربا ، وجاءته ضربة سيف شديدة على رأسه ، فسقط ينوء من جراحه ، وحملوه بين الموت والحياة .

وعلمت صبيحة ما وقع بين ابن أبى عامر ودرى ، فحنقت على الصقالبة أشد الحنق ، فأصدرت أوامرها الى فائق وكبار الصقالبة بمغادرة القصر ، فخرجوا الى ديارهم ، مغلوبين على أمرهم ، وفى صدورهم ثورة ، وبين جوانحهم حقد يتأجج ، وزاد من حنقهم

موت درى فى جوف الليل ، فما خفى عليهم أنه عوجل بالقتل ٠

وغضبوا على صبيحة غاية الغضب ، وكرهوا ابن أبى عامر كل الكره ، فراحوا يحدثون النـــاس عن العلاقة الآثمـــة بين الأميرة وكاتبهـــا ، ولم يكتفـــوا باذاعاتهم بل حرضوا شعراءهم على أن يهجوا ابن أبى عامر ٠

وضـــاعت جهـــود الصـــقالبة هباء ، فما نجحوا بادعاءاتهم أن يزعزعوا ثقة النـــاس فى الأميرة ، وما استطاعوا انتزاع حبهم لابن أبى عامر وأخفقـــوا فى كسب عطفهم ، فقد تنفس الناس الصعداء يوم دالت دولتهم ، وذهبت أدراج الرياح ٠

## ٣٩

تقدمت رايات الافرنج ، وأوغلت فى التقـــدم حتى أصبحت ترى من حصون قرطبـــة ، وبقى المصحفى فى دار الوزارة يدير شئون البلاد ، لا يحفل بالجيـــوش المتقدمة ، كأنما هى تهدد بلادا غير بلاده ، وما كان ثبات المصحفى عن ثقـــة بقوته ، بل عن قصر نظـــر ، وجهل بفنون القتال ٠

وبعثت قلعة من القلاع تطلب من العاصمة العون ، فأرسل اليها أن تقطع سد النهر ، لتحجز العدو عنها ، وما هب لجمع الجموع ليذود عن الحيـــاض ، فطبعه

الشحيح جعله يتقاعس عن تجييش الجيــوش ، ففى الحروب تذوب الأموال ، وكان يفضــل أن ينــام على الهوان على أن يرى خواء خزائن المال .

وكان ابن أبى عامر يرقب تصرفاته ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة زراية واستخفاف . فلما استفحل الأمر ، وجد الفرصة قد سنحت ليتقدم نحو غاياته ، فاستكانة المصحفى تتيح له القدح فى كفايته ، والتهوين من شأنه ، وتقدم الأعداء يبلبــل الخواطر ، ويرهف الحواس ، ويجعل الناس يتلفتون ملهوفين ، ينقبون عن البطل الذى يهب لينقذ الديار .

قضى ابن أبى عامر على الصــقالبة ، وجاء أوان القضاء على المصحفى والسيطرة على جيش البلاد ، فدخل على صبيحة يقول لها :

ــ أصبحت أعلام الافرنج خفاقة فوق حصــوننا ، وأخشى ، ان سرنا على سياسة التخاذل التى انتهجها المصحفى ، أن يغريهم ذلك بالتقدم حتى تسقط البلاد غنيمة باردة فى أيديهم .

فأطرقت صبيحة ، وغام وجهها بسحائب من الهم ، فقد كانت ترى ضرورة النهوض لقتال الافرنج ، ولكن المصحفى كان يخوفها مغبة القتال ؛ وكان يقول لهــا انه يخشى أن يشــجع اشــتباك الدولة فى حروب مع الافرنج العناصر المناوئة للخلافة على القيــام بثورة جائحة ، تقتلع من بيت الحكم السلطان . ونظــر ابن أبى عامر اليها مليا ، وكأنما فطن الى ما يعتمــل فى رأسها من أفكار ، فقال :

— وأخشى يا مولاتى أن يثور الشعب على من يقول هذا الهوان ، اننا اذا جمعنا الجيوش خضدنا شوكة الافرنج ، وأنزلنا الرعب فى قلوب الخونة الذين توسوس لهم نفوسهم الانتفاض علينا ·

فرفعت صبيحة رأسها ، وقالت فى مرارة :

— ان غالبا قد جمع الجيوش ، وتحصن فى مدينته . ولم يهب ليقف تيار الأعداء الجارف ، الذى يوشك ان يغرق البلاد ·

— فلندع غالبا الآن ، اننا أهملنا شأنه يا مولاتى بعد موت مولانا ، فكدره ذلك ، وجرح كبرياءه ·

— ومن يقود جيوشنا يا محمد ؟

— سأخرج بنفسى للجهاد ·

ورمقته فى اعجاب ، وتألقت عيناها ببريق فضح ما يعتمل فى صدرها من مشاعر الهيام · ولم يفطن الى ما اعتراها من تبدل ، كان مشغولا بنفسه ، انه دبر أن يتقلد قيادة الجيوش لتصبح الدولة فى قبضته . وها قد أوشك أن يجنى الثمار ، ورأى أن يستوثق من معاضدتها له ، فقال :

— كل ما أرجوه مؤازرة مولاتى ·

فقالت فى رقة :

— سأشد من أزرك ، وسأبارك خطاك ·

وأسبلت عينيها فى دلال ، ثم أشاحت بوجهها عنه لتخفى محياها الذى تورد بحمرة الدم المتدفق اليه . فقد أحست أنها نطقت عبارتها الأخيرة فى تخاذل الهيمان ، وخشيت أن يلحظ ما طرأ عليها من

اضطراب ، ولكنه لم ير شيئا ، فقد طغى سروره لنجاح تدبيره ، حتى حجب عن عينيه كل شيء ·

وأقبل الوزراء الى دار الوزارة ، وقد ارتسم على محياهم الاهتمام · كان ذلك الاجتماع عظيم الشأن ، ففيه سيقررون جهاد الأعداء · وجاء ابن أبى عامر والمصحفى وقد انهمكا فى الحديث ، كان ابن أبى عامر يقنع صاحب الدولة بضرورة الجهاد ، وما زال به حتى اقتنع ·

وتم عقد الوزراء ، فتحدث المصحفى عن الغرض من الاجتماع ، وقام ابن أبى عامر يسوق الحجج التى تجعل اعلان الحرب على الافرنج أمرا حتما · انهم استغلوا جنوح المسلمين للسلم ، فهبوا يغيرون عليهم ، ويطردونهم من البلاد ·

وتحدث وزير من الوزراء ، الذين ألفوا الخور والتخاذل ، فراح يعدد عواقب الانزلاق فى حرب مع الافرنج ، دون أن تتأهب البلاد لذلك النزال ، ولكن الوزراء أعرضوا عنه ، وأجمعوا على ضرورة الجهاد ·

وتم الأمر ، ولم يبق الا اختيار من يقوم بقيادة الجيوش ، فراح الوزراء يعرضون القيادة على عظماء الاندلسيين ، فأحجموا عنها · وعرضت على ابن أبى عامر ، فوافق على تقلدها ، ومن يدرى فلعله قد أوحى الى اخوانه الوزراء بعرضها عليه ·

قال أحد الوزراء :

ـ ان ابن أبى عامر أشد الوزراء تحمسا لاعلان الحرب فلنقلده قيادة الجيش الخارج للجهاد ٠

فقال ابن أبى عامر فى ثقة :

ـ لا بأس ، على أن أختار من يخرج معى من الرجال ، وأتجهز بمائة ألف دينار ٠

فصاح صائح :

ـ هذا كثير ٠

فقال ابن أبى عامر فى تحد :

ـ خذ ضعفها وامض ، وليحسن غناؤك ٠

فسكت المعترض ، ولم ينبس بكلمة ٠

وتجهزت الجيوش ، وخرج ابن أبى عامر على رأسها لقتال الافرنج ، الذين أطمعهم فى الأندلسيين استنامتهم ، وتخاذل حكامهم ، وأشعل منظر الجند الخارجين للجهاد نار الحماسة فى الصدور ، فارتفعت الهتافات ، وترقرقت الدموع فى العيون ٠

وتلفت ابن أبى عامر ، فرأى حماسة بالغة ، وعواطف فياضة ، فثارت فى عروقه دماء أجداده الفرسان الصناديد ، الذين أبلوا أحسن البلاء فى فتح البلاد مع طارق بن زياد ٠

## ٤٠

أرخى الليل ستائره ، وسيطر السكون ، وهب النسيم رخاء ينعش القلوب ، ووقفت صبيحة فى شرفة من شرفات القصر ، تطل على حدائق الزهراء ٠

تستنشق الهواء فى هدوء ، فقد أتمت النظر فى شئون الدولة ، واتجهت الى الشرفة تستريح وتريح ذهنها المكدود ·

ومدت بصرها الى الحديقة ، ورفعت رأسها الى السماء ، فتفتحت نفسها ، وتحركت مشاعرها الكوامن ، فروعة الحدائق الجذابة ، والنسيم الهفهاف ، وذلك القمر الذى يطل من وراء الغمام ، أيقظت فيها مشاعرها الرقيقة ، التى تهفو الى الجمال·

وغمرها ذلك الجو الشاعرى ، فنظرت حالمة الى الأفق البعيد الملفوف بالضوء الفضى الهادىء ، فشاعت الراحة فى نفسها ، وسقطت عنها همومها ، ونسيت مشاغلها ، فأدبرت صبيحة الحاكمة الغارقة فى المشاكل والدسائس ، وأقبلت صبيحة الرقيقة المرهفة الاحساس ·

وطغت مشاعرها ، فهبطت الى الحدائق ، وراحت تجوس خلالها ، مأخوذة بتلك الروعة ، التى سكنت قلبها ، حتى اذا ما دنت من الحوض الكبير ، تهالكت على مقعد قريب طالما شاركها فيه الحكم ، وأدارت عينيها فى المكان ، فأخذت الذكريات تتحرك فى رأسها ، وتنفض عنها غبار السنين ·

داعب أذنيها خرير الماء ، ورفيف النسيم ، فأصاخت بسمعها ، فخيل اليها أن صوتها الحنون يسرى عذبا ، فيملأ المكان بهجة ومرحا ، والحكم يرنو اليها فى وله ، وقد استخفه الطرب ، فمال عليها يلف

ذراعه حولها ، ويضمها اليه ، ثم يلثمها هنا وهنـاك فى هيام ٠

واسـترخت فى جلستهـا ، وراحت تذكر ذكريات شـبابها ، فاستيقظت أحساسـاتها ، فتدفق دمهـا فى عروقها ، وخفق قلبهـا ٠ كانت تستعرض أبهج أيام حياتها ، وتسربت الغبطة فى شعاب نفسها ، فرفت على ثغرها ابتسامة حالمة ٠

واستمرت فى تصوراتها ، فأفعمت نفسها بمشاعر فوارة ، وآحست شوقا الى رفيق يعتصرها ، فأسبلت عينيها وجمح خيالها ، فرأت نفسها فى أحضان ابن أبى عامر ، يجنى القبـلات من شـفتيها ، واسـتراحت لتصوراتها ، فلجت فى تخيلاتها ، فغمرتها النشـوة ؛ كانت تحب ابن أبى عامر بكل جوارحهـا ، فقلبهـا يرقص طربا اذا فكرت فيـه ، وصـدرها ينشرح ، ونفسها تتفتح ، وروحها تهفو اليه وتشتهيه ٠

وبقيت مسترخية فى هدأة الليـل ، غارقة فى بحور شهية من الأوهام ، تحيـا مع ابن أبى عامر فى دنيـا بهيجة من نسج خيالهـا الطليق ، تنفس عما كبتت فى أغوارها من رغبات ٠

وفكرت فى أمرها وابن أبى عامر ، انهـا تهواه ، تحبه من كل قلبها ، وقد تعلقت به أيام كان كاتبهـا ، ولكنها كبتت شعورها نحوه ، لأنها كانت زوجة ، وقد قضى زوجها ، فلم يبق هناك حائل يحول بينهـا وبين حبيبها ٠ وقر رأيها على الارتماء فى أحضانه عند أول لقاء ، لتطفىء لظى الشوق المتأجج بين الضلوع ٠

وعاد ابن أبى عامر من غزوته منتصرا ، يسوق امامه الأسرى ، فخرجت قرطبة لاستقباله ، وقد لفها السرور ، فذلك النصر أعاد لها ثقتها بنفسها ، وأرجع لها هيبتها ٠

وانطلق الى قصر الزهراء يخترق الحشود الهائلة، التى جاءت لتحيته ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا ، وارتفعت الهتافات باسمه مدوية مجلجلة ، وبلغت آذان صبيحة ، فشعرت برعدة تسرى فيها من رأسها الى أخمص قدمها ٠

وتأهبت لاستقباله ، فراح قلبها يرفرف فى جوفها ، وحلت الرهبة بصدرها ، واستولى القلق عليها ، فراحت تذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وقد ذهبت نفسها شعاعا ٠

واتجهت الى المرآة تسوى هندامها ، وتطمئن الى جمالها ، فأدنت وجهها من صقال المرآة ، فهالها امتقاع لونها ، فما كانت تحسب أن الصراع الهائل الجبار الذى تكابده فى جوفها ، ينعكس هكذا على محياها ، ومررت يدها على وجنتيها ، ثم رفعتها لتعيد بعض شعرات نافرة الى مكانها ٠

وانطلقت الى الشرفة خافقة الفؤاد ، ولمحت ابن أبى عامر يجتاز باب القصر ، فاشتد وجيب قلبها ، وشعرت برهبة واضطراب وبمشاعر متباينة تنتشر فى صدرها ٠

وأخذت تجمع شتات نفسها ، وتهدىء من روعها وتتأهب لالقاء نفسها فى أحضان الحبيب العائد من

الجهاد ، لتروى روحها الظمآن ، وتخمد نار القلب الولهان ·

وأقبل ابن أبى عامر متهلل الوجه ، فقفز قلبها فى صدرها فى جنون ، وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة . وهمت بأن ترتمى على صدر حبيبها ، ولكنها أحست قوة طاغية تحول بينها وبين تحقيق ما تهفو اليه نفسها ، فقد هب كبرياؤها يحول بينها وبين هواها ·

## ٤١

عاد ابن أبى عامر الى قرطبة منصورا ، فشجعه ظفره على معاودة التفكير فى التخلص من المصحفى ، واستئناف مناوأته التى بدأها فى حيطة وحذر · فكر فى أن يسفر له عن عداوته ، ولكنه ألفى ذلك محفوفا بالمخاطر ، فلا زال حاجب الدولة قويا ، فابنه محمد يحكم قرطبة ، ويسيطر عليها ، وأبناؤه وأصهاره وأنصاره منبثون فى المناصب الهامة · انها مخالب له ، ولن يسهل الخلوص اليه قبل تقليمها ·

ورأى أن خير وسيلة لزعزعته، التهوين من شأنه ، وتحقير فعاله فى عين الأميرة ، ولكنه خشى أن يفضح نفسه اذا داوم على مهاجمته دون أن يوحى اليها انه ما فعل ذلك الا لمصلحة الدولة ، فلو أنها فطنت الى أنه يهدم المصحفى ليشيد نفسه ، لفقدت حججه قوتها ، ولبدا أنانيا موتورا ·

انه يستطيع أن يلعب لعبته مستعينا بغالب ، فهو أقوى من يستغله فى القضاء على المصحفى ، ولطالما فكر فى ذلك ، وها هو ذا أوان انفاذ التدبير قد حان ، فلو أنه قرب غالبا من القصر ، لتعاونا معا على ازالة ذلك الكابوس الجاثم على السلطان ٠

سيقضى على المصحفى بمعاونة غالب ، وما أيسر القضاء على غالب بعد ذلك ، فهو وافد جديد على الحكم لم يتغلغل فيه تغلغل المصحفى الذى دامت حجابته سنوات طوالا ٠

ودخل على الأميرة بعد أن فكر ودبر ، وقال فى اشفاق :

ـ تأهب الافرنج لقتالنا أيام كنا مطمئنين الى مهادنتهم ، فجلبوا الرجال الى مدنهم القريبة من ثغورنا ، وشحنوها بالمقاتلين والكراع حتى اذا ما آنسوا فينا ضعفا ، شنوا هجومهم علينا ، وهم يطمعون فى أن يطردونا من البلاد ٠ اشتد ساعدهم ، وعظم خطرهم ، فاذا لم نجمع لهم الجموع ، وننهب لخضد شوكتهم كانت العاقبة علينا وبالا ٠

فنظرت اليه الأميرة مليا ، ثم قالت :

ـ لقد أطلقنا يدك فى أمر الجيش ، فافعل ما تراه ٠

ـ الأمر خطير يا مولاتى ، أخطر من أن يترك لواحد ينفرد به ، ان الظرف يقتضى تكاتف الجهود ٠

ـ فلنناقش الأمر ان شئت أنا وأنت والمصحفى ٠

فقال فى حرارة :

ـ لم يعد الزمن زمن المصحفى ٠

فرمقته الأميرة بنظرة مستفسرة ، فاستأنف حديثه بنفس الحرارة :

- اننا فى حاجة الى قواد ، قواد ذوى خبرة وكفاية . فما عادت أيامنا أيام خفض ودعة وأمن ، بل أيام طعن ونزال وجهاد .

- فوض لك الأمر ، فلك أن تستعين بمن تشاء من القواد .

- ان من أفكر فيه أسمى من أن أستعين به ؛ انه أقدر قوادنا ، وما أطمع فى أن يعمل تحت امرتى ، وهو القائد على الدوام .

فقالت الأميرة فى غمغمة مريرة :

- غالب !

- أجل يا مولاتى ، غالب .

- لا ، يا محمد .

- لماذا ، يا مولاتى ؟

- رأى هجوم الأعداء علينا ولم يحرك ساكنا .

- لعل له عذره .

- أى عذر ، قد أمره المصحفى أن يخرج لقتال الافرنج ، فتحصن فى مدينته ، ولم يهب ليذود عن ثغورنا .

- ربما ساءه اعراضنا عنه ، وتقريبنا من هم دونه ، وقد اعتاد أيام مولانا الحكم أن يكون المقرب دائما .

- انى لا أرتاح الى اسناد قيادة جيوشنا الى من يفضل مصلحته على مصلحة البلاد .

– من مصلحة البلاد الآن يا مولاتى أن نتناسى الماضى . فالأعداء أقوياء، وجيش غالب أعظم جيوشنا دربة ودراية ، وغالب نفسه أعظم قوادنا .

فأطرقت الأميرة مليا تفكر فى أمر غالب وجيوشه المتحصنة بمدينة سالم ، فوجدت أن من مصلحة البلاد حقا أن تستغلها فى نزال الأعداء ، فمن يدرى فقد يستخدمها غالب فى قتال من يحسب أنهم سلبوه حقوقه فى الداخل ، وانبسطت أساريرها ، ففطن ابن أبى عامر الى أنها كانت تميل الى رأيه فقال :

– ما أجدره بصفحك عن تلك الكبوة ، وما أيسر ارضاءه ! .

ورنت الأميرة اليه فى رضا ، سرها منه انكاره لنفسه ، وتقديم غيره ، لأنه رأى فى ذلك مصلحة البلاد ، ولم تشأ أن تعلن موافقتها على اقتراحه قبل أن تعرب له عن تقديرها وتمسكها به ، فقالت :

– وأنت ما يكون حالك اذا أصبح غالب قائد جيوشنا ؟

– أكون قائدا من قواده .

– لا يا محمد ، بل أن تظل قائدنا . فقد بعثت الهمم فى النفوس ، ونفخت الحماسة فى الصدور .

– يثلج صدرى يا مولاتى هذا الاطراء الكريم ، ويجعلنى أتشبث بقيادة جيوشكم المظفرة ، ولكن الظرف يحتاج الى تضحيات ، واستغلال الكفايات ، وتوحيد الصفوف .

وساد الصمت برهة ، كانت الأميرة تفكر فيما

يقول ، وكان هو يفكر فى نفسه ، فقد خشى أن تفلت من يده بسبب اندفاعه وراء تدبيره فرصة سيطرته على الجيوش ، فقال :

- فى مقدورنا أن نستعين بغالب ، وأن أظل قائدكم الأمين : نعهد اليه بتدبير جيش الثغر ، وأشرف أنا على جيش الحضرة .

وظلت الأميرة فى اطراقها ، فقال لها :

- ما رأى مولاتى ؟

فرفعت رأسها وقالت :

- أوافق ، على أن يرضى عن ذلك المصحفى .

وانطلق ابن أبى عامر الى حاجب الدولة ، وجعل يزين له تقريب غالب ، ويقنعه أن فى ذلك مصلحته . وأن غالبا سيصبح سيفا مسلولا فى يده ، يشهره فى وجوه أعدائه ، وما زال يفتله ويطويه ، حتى جعله يؤمن أن فى استرضاء القائد العظيم توطيدا لنفوذه ، ودعما لمكانته ، وما كان هم المصحفى الا أن يمكن لنفسه فى الدولة ، فوافق على ما نصح به ابن أبى عامر .

وخرج الاذن بترقية غالب الى منصب ذى الوزارتين ، فاغتبط به ، وأرضى ذلك الأميرة ، ففى الاتحاد فى ظل العرش قوة للخلافة . واطمأن المصحفى ، فمنافسه سيشغل عنه بحروب الأعداء . أما ابن أبى عامر فقد ابتسم ابتسامة ظفر ، كان يعلم أن كل ما تم على يديه لن يؤدى الا الى غاية واحدة ، هى اعلاء شأنه ، وتوهين من يقفون حجر عثرة فى

سبيل تألقه ، وبزوغ نجمه ، حتى يبهر كل ما يتلألأ فى سماء الأندلس من نجوم ٠

## ٤٢

وخرج ابن أبى عامر فى غـزوته الثـانية ، والتقى بغالب ، فانطلق القائدان لاقتحام حصن موله فانهار الحصن تحت ضرباتهمـا ، وراحا يتنقـلان من نصر لنصر ، كان غالب ، ذلك القـائد المحنـك الذى عرك الحروب وعركته يضع الخطط ، وينزل بالأعداء أشد الضربات ٠

تكدست الغنائم ، وكثر عدد الأسرى ، فاغتبط ابن أبى عامر ، فذلك النصر ييسر له تحقيـق أهـدافه ، ومؤازرة غالب له تهون عليه أمر المصحفى ٠

وأقبل الليل ، ولم تهدأ الحركة فى المعسكر ، فجند غالب يتأهبون للعودة الى ثغرهم بعد أن انتهت تلك الغـزوة بذلك النصر المؤزر ، واجتمـع القـائدان فى خيمة ، كما اعتادا أن يجتمعا كل ليلة ، كانا قد اتفقا على القضاء على المصحفى ، ولكنهما جعلا ينسقان خطتهما ، ويتدارسان تفاصيلها ٠

وجدا هدم المصحفى لن يتم وابنه قابض على زمام قرطبة ، فرأيا وجوب عزله ، وأخذ ابن أبى عامر على عاتقه أن يقوم بذلك ، على أن يكتب غالب الى الخليفة يصف له ما قام به من باهر الأعمال فى تلك الغزوة ،

اعلاء لشـــأنه ، حتى اذا التمس من القصر عــزل غريمهما ، أجيب الى طلبه ٠

وانقضى الليل ، وتنفس الصــبح ، فذهب ابن أبى عامر يودع غالبا قبل عودته الى ثغره ، فالتفت غالب اليه ، وقال له يوصيه :

ـ سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم ، وذكر جليل ، وسيشغلهم السرور به عن الخوض فيمــا تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة ، وتتقلدها دونه ٠

وانطلق غالب الى ثغره ، وبعث الى القصر رسالة مســهبة كلها تزكيــة لابن أبى عامر ، وما ان بلغــت القصر ، حتى أخذت صبيحة تقرؤها خافقــة القلب ، منشرحة الصـــدر ، كانت أخبـــار الحبيب السارة تبهجها ، وتدغدغ حواسها ٠

وسار ابن أبى عامر الى قرطبة ، ودخلهــا مزهوا بنصره ، تتقــدمه الغنـــائم والأسرى ، واستقبله الأندلسيون مسرورين ، وقــد خفقت قلوبهم بحبــه ، وانطلق يخترق الجموع ، وهو مشغول بفكره ، كان يفكر فيما يفعله ليصرف ابن المصحفى عن المدينة ٠

ودخل ابن أبى عامر على صبيحة ، فرحبت بمقدمه ، وأخذت تحادثه وقد مشت الراحة فى صــدرها ، كان قربه يشيع البهجة فى نفسها ، ويستولى على حواسها ، ويشــعرها بخــدر لذيذ يسرى فى أوصـــالها ، وكانت تصغى اليه وتستجيب له ، مسلوبة الارادة ، كوسيط واقع تحت سيطرة منومه ٠

راحت تحدثه ، وقد تعلقت عيناها بوجهه . كأنما تتملى من حسنه الذى غاب عن ناظريها طويلا ، وقالت له فيما قالت :

ـ أعدت للخلافة هيبتها ، ولن ننسى لك فضلك ، تمن على يا محمد ، تمن أى شىء .

ورأى الفرصة قد تهيأت ليلتمس تنصيبه حاكما على قرطبة ، ولكنه رأى بدهائه أن يوحى اليها برغبته تلميحا ، فقال فى مداهنة :

ـ وماذا أتمنى وقد غمرتنى مولاتى بكرمها ؟

ـ تمن ، تمن أى شىء .

ـ والله يا مولاتى ما تمنيت فى حياتى الا أمنية واحدة .

فرنت اليه فى لهفة ، واشتد وجيب قلبها ، فقد حسبت أن الأوان قد آن ليكاشفها بحبه ، وقالت فى صوت متهدج :

ـ وما هى ؟

فقال فى هدوء :

ـ أن أضبط هذه المدينة ، وأن أسعد أهلها .

فلاحت على وجهها سحابة خفيفة من الكدر ، وسرعان ما أقلعت تلك السحابة ، وعاد اليها هدوءها ، فقالت وقد رفت على شفتيها ابتسامة حلوة :

ـ ما أيسر تحقيق أمنيتك يا محمد ! .

ونهضت ، فقام ابن أبى عامر واقفا ، فقالت له :

ـ انتظرنى حتى أعود .

وغابت فى القصر قليلا ، ثم عادت ، ودفعت اليه قرطاسا مطويا وهى تقول :

ـ خذ يا حاكم قرطبة ٠

فقال ابن أبى عامر فى نبرات تنم عن الفرح :

ـ والله لا أدرى يا مولاتى بأى لسان أشكرك ٠

وخرج مرحا ، يجد فى سيره ، حتى اذا بعد عن جناح الاميرة بسط القرطاس ، وجعل يقرأ ما به ، فارتفع نبضه ، وزادت الحرارة فى صدره ، فقد أمر الخليفة بصرف محمد بن المصحفى عن المدينة وتوليته اياها ٠

وانطلق الى دار الامارة يفكر فى ابن جعفر المصحفى ، ويتخيله وهو يقرأ هذا الأمر ، فيبتسم فى غبطة ، ويشعر بزهو ، فهذه أول صفعة يصفعها على رءوس الأشهاد للمصحفى الكبير ٠

ودخل مجلس ابن المصحفى ، فألفاه فى أبهته ، فتقدم منه ، ودفع اليه الأمر ، وما ان انتهى من قراءته ، حتى اربد وجهه ، وقام وولى ناكصا على عقبيه ، لا يلوى على شىء ٠

وعلم المصحفى بعزل ابنه دون الرجوع اليه ، فاغتم أشد الغم ، وشعر بالذل ، وفطن الى أن ابن أبى عامر قد ناصبه العداء جهارا ، فأطرق يفكر فى وسيلة يدفع بها كيد ذلك المناوىء الخطير ، فلم يهتد الى شىء ، ان المباغتة أذهلته ، فأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهوبا فى حنق ، أشبه بفأر وقع فى المصيدة لا يدرى أين الخلاص ٠

## ٤٣

أهم المصحفى عزل ابنه ، وذهبت نفسه شعاعا ، واختلط عليه الأمرفلم يعد يدرى ما يفعل · كان من ذلك الطراز الذى يتعطل فكره اذا نزلت به نازلة · وانقضى وقت وهو فى ذهوله ، يجاهد ليجمع فلول نفسه ، حتى اذا هدأ قليلا ، راح يفكر ، فاهتدى الى أن ابن أبى عامر ما كان بقادر على أن يقدم على ما اقدم عليه ما لم يكن واثقا من تأييد غالب ، انها مؤامرة دبرت فى ميدان القتال ، ونفذت فى قرطبة ·

وفكر فى ابن أبى عامر ، فهاله أمره ، وبدا له منازلا خطيرا ، يتعذر الصمود له ، أو اعتراض سبيله ، فالجيش فى قبضته ، وقرطبة فى حوزته ، وغالب فى صفه ، والأميرة أسلست له قيادها ، فصارت أطوع له من بنانه ·

وكاد يركن الى يأسه فما كان بقادر على أن يقاوم تلك القوى الضخمة التى يستغلها خصمه ، ولكن لاح له بصيص من الأمل ، فتشبث به ، وأخذ يفكر فيه · كان أمله الوحيد فى تدعيم مركزه التقرب من غالب ، واستمالته اليه وتكوين جبهة قوية منهما تقف فى وجه أطماع ابن أبى عامر · كان يعلم أن غالبا يكرهه ، ولكن ذلك هو آخر سهم فى جعبته ، فمن العبث أن يفكر فى تغيير قلب الأميرة على كاتبها الذى تهواه ·

وطفق يفكر فيما ينتهجه ليدنو من غالب ، فاهتدى الى أنه لو خطب ابنته أسماء لابنه عثمان لقضى ذلك على ما بينهما من تباغض ، وقرب بينهما ووحد أهدافهما .

واطمأن الى ما فكر فيه ، فأخذ يكتب رسالة رقيقة الى غالب ، يلتمس فيها تزويج أسماء من ابنه عثمان . وما ان قرأ رجل السيف رسالة رجل القلم ، حتى مست أوتار قلبه ، ومسحت ما فى صدره من بغضاء . فقد رأى فى اتمام تلك الخطبة اسعادا لابنته التى يحبها ، ويرجو لها أن تعيش فى دعة وهناءة .

وبلغ أسماء نبأ خطوبتها لعثمان بن المصحفى فانقبضت وكدرها انهيار قصور الأمانى التى شيدتها فى رؤاها ؛ عاشت تناجى ابن أبى عامر فى دنياها . حتى ملك زمام هواها ، اطمأنت الى ذلك الحب الذى مكن له فى قلبها أحلامها العذاب . كانت توهم نفسها أن القدر ما ساقه الى طريقها ، الا ليربط بينهما الأسباب ، ولكن هذا الواقع البغيض يصفعها بالحقيقة المرة ، ويصرخ فى أذنيها هازئا أنها عاشت واهمة تجد فى أثر سراب .

وطأطأت رأسها ، وتدثرت بالكدر ، وشعرت كأنما شدت الى الأرض بأغلال ، ولكنها لم تستطع أن تمكث على الأرض طويلا ، فقد هامت روحها تناجى ابن أبى عامر وتعاتبه ، وترقرق الدمع فى عينيها ، ثم سال على خديها ، فأحست سخونته ، فانتبهت الى نفسها فزعة ، فما عاد لمثل هذه الأحلام مجال .

واجتمع المصحفى وأبناؤه بغالب ، وكتب العقد ، وحدد يوم الزفاف ، فشاعت البهجة فى صدور الجميع الا أسماء ، فقد انقبضت ، وجعلت تدارى ما بها ، وتجاهد لتبدو هادئة ، ولطالما اضطرت الى انتزاع البسمات على الرغم من أن قلبها كان يقطر دما ٠

وسكنت الطمأنينة فؤاد المصحفى، فتلك المصاهرة شدت من أزره ، وسدت فى وجه ابن أبى عامر الثغرة التى كان يأمل أن ينفذ منها اليه ، فقد بنى تدبيره على أن غالبا معه ، ويشجعه على هدم المصحفى ويعضده ، ولكن المصحفى اهتدى الى ما يفسد تدبير رجل المؤامرات ٠

وترامى الى ابن أبى عامر نبأ تلك الخطبة فلم يصدق ، فما كان يخطر له على قلب أن غالبا الذى يزدرى حاجب الدولة ويمقته ، يقبل زفاف ابنته الى ابنه ، ولكن ما ان تحقق من صدق ذلك الخبر ، حتى ثارت ثائرته ، وعزم على أن يعمل بكل ما فى طاقته من قوة على احباط تلك الخطبة ، فلو أنها تمت لانهارت جميع خططه التى كان ينسجها فى صبر وأناة ، من سنين طوال ٠

وكتب الى غالب رسالة حشد فيها كل مواهبه ، ذكر له فيها أن زواج ابنته من عثمان لا يجلب شرفا ، ولا يكسب فخرا ، فما كان المصحفى من بيت عريق من بيوتات العرب ، فهو من أصل بربرى وضيع ، لا تجلب مصاهرته الا الهوان ٠

ولم يكتف برسالته ، بل حرض رجال القصر من

أعوانه على أن يكتبوا الى غالب ، مستنكرين وقوع تلك الخطبة • فما قرأ غالب ما بعث اليه من رسائل ، حتى تحرك حقده ، ونكىء جرح مقتـه ، فنـدم على تورطه فى استجابته للمصحفى ، ولكن ذلك الندم لم يكن كافيا ليقدم على فسخ خطبة ابنته من ابن حاجب الدولة ، الذى يحتقره ، ويكن له المقت والعداء •

وفطن ابن أبى عامر الى ندم غالب ، وعلم أن ذلك الندم لا يكفى لفسخ عقـد الزواج ، ولن يقـدم عليه غالب ما لم يجد اغراء قويا يدفعه اليه ، فصمم على أن يقدم له ذلك الاغراء •

عرض عليه أن يفسخ الخطبـة ، وأن يزوجه من أسماء ، فقبل ولم يتردد لحظة ، فلطالما داعبته هـذه الأمنيـة ، واحتلت فكره ، ولم يقـم وزنا لغضـب المصحفى ، وماذا يهمـه غضـب الشمس الغاربة ، ما دام قد ضمن تزويج ابنته من ابن أبى عامر الذى بزغت شمسه ، وأخذت تعرج صـعدا لتحتـل كبـد السماء •

وانحرف غالب عـن المصـحفى ، فأحس الرجـل هوانا ، وشعر بالأرض تميد تحت قدميه ، وتيقن من أن سـلطانه صـائر الى الزوال • فكر فى أن يكافح أعداءه ، وينافح عن نفوذه ، ولكنه ألفى نفسه أهون من أن يناصب خصميه القويين العداء ، فاستسلم ، وراح يرقب ما تأتى به الأيام •

واتفـق غالب وابن أبى عامر على أن يعلنا نبـأ الخطبة الجديدة ، ولكنهما ما كانا بقادرين على ذلك

قبل يلتمس ابن أبى عامر الاذن من الخليفة ، فدخل على الأميرة ، وقد انتشرت فى صدره رهبة خفية ، فهو يعلم أن ما سيلتمسه منها ، سيخز قلبها وخزات .

واستجمع شتات نفسه ، وما ان اطمأن الى ما يدور فى فكره ، حتى أفرخ روعه ، وقال فى ثقة :

ـ بلغ مسامع مولاتى بلا ريب نبأ خطبة عثمان لأسماء .

ـ أنبأنى المصحفى ذلك .

ـ لقد وجدت فى تلك الخطبة خطرا يهدد الخلافة .

فرمقته الأميرة فى دهشة ، واستمر فى قوله :

ـ لو أن التقارب بين غالب والمصحفى قد تم ، لاغرى ذلك المصحفى على أن يركز السلطة فى يديه .

فقالت الأميرة فى اهتمام :

ـ وماذا تم فى أمر تلك الخطبة ؟

ـ بذلت ما فى وسعى لفسخها ، كتبت الى غالب أثنيه عن عزمه ، وألتمس منه الغاء عقد ذلك الزواج ، ولكن ما كانت مناشدتى له بكافية ليستجيب لدعوتى ، فلم أر بدا من أن أتقدم اليه طالبا منه أن يزوجنى من أسماء ، فما كان أمامى الا ذلك ، لأحبط ما كان يتهددنا من أخطار ، وقد جئت ألتمس الاذن لنا باعلان نبأ هذه المصاهرة .

اربد وجه صبيحة ، وشعرت بقلبها يدمى ، وبرعدة تسرى فى أوصالها ، ويد قوية تقبض صدرها ، كانت تحب ابن أبى عامر ، وتهفو اليه ، وما ان صك أذنيها صوته وهو يلتمس منها الاذن له بالزواج ، حتى

تحركت عقارب غيرتهـــا ، وأخذت تنهش جوفهـــا فى قسوة مريرة ، فلو أنها طاوعت عواطفها لصرخت فيه أن يكف عن ذلك الهراء • فما كانت لتســمح لامرأة أخرى أن تسلبها حبيبها ، ولكنها ما كانت بقادرة على أن تجرى وراء عواطفهـــا ، وأن تســتجيب لقلبهـــا الولهان ، انهـــا أميرة قرطبـــة ، وأم الخليفة ، وقد جاءها كما يجىء أى رجل آخر من رجال القصر يلتمس منها الموافقة على زواجه ، فما لها الا أن توافق على اتمام ذلك الزواج •

وتجلدت ، وتملكت عواطفها ، وقالت فى ثبات :

ـ اننا يا محمد نوافق على هذا الزواج ، وندعو له بالتوفيق •

ووقفت أمام ابن أبى عامر شامخة الرأس ، جامدة الملامح ، ولكن ما ان اســتأذن وخرج ، حتى انهارت على أقرب مقعد ، وأخذت تنشج بالبكاء •

## ٤٤

عمت البهجة أســماء لما بلغها نبأ خطبـــة ابن أبى عامر اياها ، وغمرتها نشوة عارمة ، وامتلأ قلبهـــا غبطة ، وأحست خفة فى جسمها ، فهرولت الى فراشها رشيقة كالطيف ، ثم استلقت فيه منشرحة الأسارير ، ونظرت الى لا شىء ، وشرد ذهنهـــا ، فقـــد ردت الى طبعها الشاعرى الحالم •

وحلق فكرها ، وسبح خيالها ، فراحت تعيش وابن أبى عامر فى أحلام يقظتها ، فسرت فى مشاعرها احساسات لذيذة ، زاد فى لذتها يقينها أن هذه الرؤى البهيجة لن تبقى طويلا مجرد أحلام تشتهى ، بل ستتجسد فى عالم الواقع الملموس وشيكا .

وكرت الأيام ، وخرج ابن أبى عامر الى غزوته الثالثة ، والتقى وصهره ، وجعلا يقاتلان جيوش الافرنج المعتصمة بحصونها ، واسترسلا فى قتالهما ، واسترسلت أسماء فى تصوراتها ، فقد كانت تتابع حبيبها بخيالها ، وترقب أوبته بصبر نافد ، فستزف اليه بعد عودته مظفرا .

ظلت أسماء تفكر فى ابن أبى عامر ، وقلبها يرفرف فى صدرها ، وما كانت المرأة الوحيدة التى تفكر فيه خافقة الفؤاد : فقد كانت هناك فى قصر الزهراء امرأة أخرى يخفق قلبها بحبه ، وتختلس ساعات فراغها ، فتهرع الى حدائق القصر حيث تخلو بأفكارها .

كانت أسماء تفكر فيه والأمل البسام يتراءى لها فيرقص القلب طربا ، وكانت صبيحة تفكر فيه واليأس يتملكها ، فيقبض قلبها فى جوفها ، ويستولى عليها اضطراب وقلق ، فما كان لها أن تفكر فيه ، انه ليس رجلها ، ولو كان لقلبها عقل ما نبض بحبه ، ولا هام به .

حاولت صبيحة أن تطرد طيفه ، وأن تمحو من ذهنها صورته الماثلة لها دواما ، ولكن هيهات ، فقلبها مفتون به ، ونفسها تحن اليه ، وعيناها لاتريان

فى خلوتها الا وجهه الجذاب : كان طيفه يعذبها : ولكنها كانت تجد لذة فى ذلك العذاب ·

ورن فى أذنيها صوته وهو يلتمس منها الاذن بالموافقة على زواجه من بنت غالب ، فانسابت عقارب الغيرة فى جوفها ، وراحت تنهشها : فتدمى روحها ، وضايقتها احساساتها ، فأخذت تهون على نفسها أثر تلك الخطبة : لتخفف من وطأة مشاعرها الثائرة القاسية ، وجعلت توهم نفسها أن ابن أبى عامر لم يقدم على الزواج من أسماء لأنه يحبها ، بل أقدم عليه ليدرأ خطرا داهما ، انه زواج سياسى ، وما لها تغار من مثل ذلك الزواج ! ·

وهدأت ثائرتها قليلا ، وصفا ذهنها : فرأت أن من الضعف أن تستسلم لغيرتها ، وشاءت أن تسمو بعواطفها : فراحت تفكر فيما ينبغى فعله لو لم تكن تحب ابن أبى عامر ·

رأت أن خير ما تفعله هو تجهيز أسماء وزفافها الى زوجها من القصر ، ففى ذلك ارضاء ابن أبى عامر وصهره غالب ، وقطع ألسنة السوء التى تذيع نبأ العلاقة الآثمة بينها وبين حبيبها ، واقناع نفسها بانها وان كانت تهواه الا أنها لا تنقاد لغيرتها العمياء التى أوشكت أن تفسد عليها حياتها ·

واستراحت الى ذلك الخاطر ، وعزمت على انفاذه ، ولكنها لم تفطن الى أنها ما فكرت فى اجراء الزواج فى القصر ، الا لأنها كانت فى قرارة نفسها تهفو الى رؤية

المرأة التى ستنعم بحبيبها ؛ الذى عز عليها أن تسعد به ، وتهنأ بحبه ·

وقفل ابن أبى عامر الى قرطبة ، وفى ركابه النصر ، فرقى الى منصب ذى الوزارتين ، وبعثت صبيحة الى غالب أن يقدم بابنته أسماء . فستزف الى زوجها من قصر انزهراء ، وجاء غالب ، فقلد الحجابة مشتركا مع المصحفى ، فأحس المصحفى أن ذلك ان هو الا سهم تحقير سدد الى صدره ·

وجاءت أسماء الى القصر ، فلما وقعت عينا الأميرة عليها انقبضت · كانت شابة حلوة ناضجة ، رائعة الجمال ، من ذلك الطراز الذى يعبث بالأفئدة ، ويستولى على الألباب ·

غارت صبيحة من أسماء ، ولكنها لم تستسلم لغيرتها ، فكبتت عواطفها ، وغالبت ضعفها ، وأقبلت على الفتاة تبدى لها عطفها ، كانت نفسها تدمى وان كانت الابتسامة العذبة ترف على شفتيها ·

ووافت ليلة الزفاف ، فأقيمت معالم الأفراح ، وازدانت قرطبة بأبدع الزينات ، وتألق قصر الزهراء ، فقد كانت الليلة من أروع ليالى الأندلس : وارتدت أسماء أفخر الثياب ، وتحلت بأثمن الحلى ، فبدت وردة نضرة من ورد الربيع ·

واصطف الأندلسيون على جانبى موكب العروس ، ليشاهدوا أعظم موكب خرج من قصر الزهراء ، فقد تأنقت صبيحة فيه ، فجاء بالغ الروعة والجلال ·
وهبطت أسماء تتهادى فى فرح يشوبه قلق ، وما ان

خرجت الى طرقات قرطبـــة وهى محمــولة الى دار الحبيب ، ورأت حشود الناس الذين أقبلوا لينعمــوا بفخامة موكبهــا . حتى أحست رأسهــا يدور ، ولاح الدهش فى وجهها الهادىء الجميل ، وخيل اليها أنها تنطلق مسحورة فى وادى الأحلام ، كانت أسماء ترى الحلم حقيقــة ، وتحيل الحقيقــة الى حلم شــهى من الأحلام ٠

حملت أسماء الى دار ابن أبى عامر ، فخفت الرجل فى قصر الزهراء ، ثم خمدت الحركة ، وسيطر السكون الرهيب ، وتركت صبيحة لنفسها ، فلفها حزن عميق . تكدست مشاعرها فى صدرها ؛ ولم تجد لهــا منفسا خشية أن يفطن الناس الى كدرها ، ولكن ما ان خلت بنفسها ؛ حتى هبت احساساتها متمردة جبارة تعذبها وتضنيها ٠ جاهدت صادقة أن تدفع عن نفسها ذلك الحزن الثقيل ، الذى ران على قلبها ، ولكن أبى لها ذلك أنها امرأة طعنت فى حبها ، وما كان لها أن تتغلب على طبائع البشر ٠

وسارت فى تثاقل ؛ حتى اذا بلغت أقرب مرآة أدامت النظر الى وجهها ، فغاض لونهــا ، فقــد هتف من أغوارها هاتف يهمس فى صوت بغيض ، أن جمالهــا الرائع قد خبا ، وأن نضارتها آخذة فى الذبول ٠

انقبضت وقلقت ، وربما حزنها ، فطأطأت بصرها . وسارت فى خطا بطيئة مهمومة الى جناحها ، وراحت تقطع فى أسى عميق ردهات قصر الحرمان ٠

٤٥

بزغ نجم ابن أبى عامر وتألق ، حتى بهــــر سرج رجالات الأندلس ، وأصــبح قويا ، فهان عليــه أمر المصحفى ، ولم يعد يتحرز فى مهاجمته ، فراح يقــدح فيه كلما قابل الأميرة ، ويشككها فى اخلاصه ، ويتهمه بأنه يعمل لنفسه ، لا يهمه مصالح الدولة ٠

ورأى المصحفى أن ابن أبى عامر يستل منه نفوذه ، وأن أصحابه وأعوانه انفضوا من حوله ، وأن الدنيا أولته ظهرها : وبدأت تدبر بعد اقبال ، فضــاقت به الأرض ، ونزل به الهم ، ولكنه لم يثر ولم يبد غضبه : بل استسلم فى قنوط : كان على يقين من أنه لم يعــد يقدر على مناوأة خصمه ؛ أو البروز له للنزال ٠

وغلبه أصله البربرى : استأسد لما كانت السلطة فى يديه ، فظلم النــاس ، وأذاقهم صــنوف الحيف ، وألوان الاضطهاد ، فلما نزعت منه استذل واستكان ، وقد أطمعت هــذه الاستكانة وذلك الانكسار ابن أبى عامر فى أن يوجه اليه ضربته القاضية ؛ دون أن يخشى أن يكون لها رد فعل فى البلاد ٠

دخل ابن أبى عامر على الأميرة ، مقطب الجبين ، وفى عينيه ثورة ، وفى وجهه غضب ، فلما رأت صبيحة اكفهرار سحنته ، تطلعت اليه فى اهتمام ، فقــال فى استياء :

ـ ارتفع أنين الناس حتى أصم الآذان ، وجأروا بالشكوى ؛ فاقت مظالم آل المصحفى كل احتمال : حقوق تؤكل ، ورشا تؤخذ ، وأموال تسلب ، وخزائن تغلق على ما جمع بالباطل من الشعب المغلوب على أمره ، صارت البلاد ضيعة من ضياعهم ، تغل لهم ، وأصبح الأندلسيون الأحرار عبيد آل المصحفى : الذين حكموا فى الرقاب ، أصبحت الحال لا تطاق ، وأخشى يا مولاتى أن يعضل بنا ، ونجنى الحنظل الذى زرعه سوانا ·

فأطرقت صبيحة وقد أهمها ما سمعت ، وبان فى وجهها الاستياء ؛ فراح ابن أبى عامر ينفث فى صدرها الحنق ويؤجج ناره ·

ـ أصبحت الصدور مراجل تفور بالغضب ، وان أقل ضغط قد يفجر تلك المراجل ؛ فتعم الثورة البلاد ، فان كان لك فى الناس حاجة يا مولاتى ، فضعى حدا لهذه الجرائم الشائنة ، التى زعزعت الثقة فى الحكام ·

فرفعت صبيحة رأسها وغمغمت :

ـ فاحت روائحهم الخبيثة حتى زكمت الأنوف ·

ـ اننا فى أيام حرب يا مولاتى ، واننا نحض الناس على أن ينفروا للجهاد فى سبيل غاية نبيلة ، فلو تركنا للمصحفى وآله الحبل على الغارب ، لاستمروا فى ظلمهم ، فتتضعضع ثقة الناس فى الغاية التى يقاتلون دونها ، وتشيع فيهم روح التذمر ، ويوقنون بأنهم يجودون بدمائهم لرفاهية السادة ، الذين استمرءوا حياة الخفض ، وهضم الحقوق ·

واسترسل ابن أبى عامر فى ثورته ، ولم يغادر الأميرة حتى صدر الأمر باقالة جعفر عن الحجابة ، وبالقبض عليه وعلى أبنائه وأصهاره ، وما ان أصبح الأمر بين يديه ، حتى بعث جنده اليهم ، وأمرهم أن يحبسوا المصحفى فى المطبق بالزهراء ٠

انطلق جند ابن أبى عامر الى دار المصحفى ، وأحاطوا به ، ودخلوا عليه ؛ وما ان رآهم حتى فطن الى كل شىء ، فقام مطأطىء الرأس ، وقبل أن يذهب معهم التفت الى أهله وقال ، وقد ترقرق الدمع فى عينيه :

- لستم تروننى بعدها حيا ٠

وسار بين الجند وفى وجهه ذلة وانكسار ، وخلفه نشيج ونحيب ، كان أهله يبكون الكرامة المنهارة ، والعز الذى زال ٠

وأغلق باب المطبق خلفه ، فأطرق حزينا وشرد ذهنه ، فعاد به الى أيام الناصر ، فزاد انقباضه ، كان يرى مشهدا لم يقو مر السنين على محوه من ذكراه ، فلطالما أرقه ، وأطار النوم من عينيه ٠

رأى رجلا جىء به الى الناصر ، وقد اتهم زورا ، ورأى نفسه يشهد على الرجل ظلما ، حتى ألبس الباطل ثوب الحق ، فحكم الخليفة بسجنه ، ومرت أيام ، ونسى الرجل الذى رمى به فى أضيق السجون ، وفى ذات ليلة رأى رؤيا أفزعته ، رأى هاتفا يهتف به فى غضب : أطلق الرجل فقد أجيبت فيك دعوته ، فقام من نومه يرتجف ، وما ان أصبح الصباح حتى أطلق

الرجل ، وأحضره ، وسأله عن دعوته عليه ، فقال : « دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون » .

وتلقت المصحفى فى خوف ، وكان يزيد فى رهبته ، ذلك الصوت الذى يرن فى أذنيه ، فيخلع قلبه :

ـ دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون .

وضاق بذلك الصوت الذى أخذ يتردد فى أذنيه ، وفى أغوار نفسه ، فجعل يذرع المطبق فى حنق وهو يصيح :

ـ انها قد أجيبت ! انها قد أجيبت !

وانهار مبهور الأنفاس ، وطفق يبكى فى قنوط .

## ٤٦

سجن المصحفى ؛ وبات يرقب محاكمته ، ورقى ابن أبى عامر الى مرتبة الحاجب ؛ فقاسم صهره الحجابة والنفوذ ، فأوغر ذلك صدور شانئيه ، ونفس عليه بعض اخوانه فى الدراسة ذلك الجد السعيد ، ولم يقدروا على أن يطووا نفوسهم على حسدهم ، فراحوا يقدحون فيه ، لينفسوا عن قلوبهم المريضة ، وصدورهم المليئة بأخبث الاحساسات .

وحقد أذناب المصحفى على ابن أبى عامر ، فراحوا يملئون الأرض اذاعة بأنباء العلاقة الآثمة بينه وبين

صبيحة ، وكان منهم الرمادى الشاعر ، فاستغل موهبته فى النيل من خصمه ، ونظم فيه قصائد لاذعة ، من الهجاء المرير ، كانت تنتشر فى الجماهير انتشار النار فى الهشيم ، فما أيسر ذيوع الهجاء القاذع المكشوف ·

وساء الصقالبة أن تدول دولتهم ، وأن يسلب منهم النفوذ ، فنقموا على الدولة ، وكان جؤذر أكثرهم حنقا وغيظا ، وما استطاع أن ينسى أنه خرج من القصر مطرودا ، فطفق يتحين الفرص ليثور ·

واجتمع أقطاب المتذمرين : رئيس المحكمة العليا ، وبعض القضاة من اخوان ابن أبى عامر ، وجؤذر وبعض البارزين من حزب المصحفى ، وأخذوا يتدارسون قضيتهم ؛ فوجدوا أن خير وسيلة للقضاء على ابن أبى عامر قتل الخليفة الضعيف ، المشغول عن ملكه بعباداته وصلاته وصيامه ، واسناد الخلافة الى أمير محنك ، من أحفاد الناصر العظيم ·

واتصل المتآمرون بالأمير عبد الرحمن بن عبد الله ؛ وعرضوا عليه ما دبروه ؛ ومنوه الخلافة ؛ فانضم اليهم ، وقد تولدت فى نفسه آمال عراض ، وتفتحت أمام عينيه أرحب الآفاق ، فما هى الا ليلة وضحاها حتى يصبح خليفة الأندلسيين ·

وأرادوا أن يحكموا تدبيرهم ، فهم يعلمون مغبة اخفاقهم ، فرأوا أنهم لو نجحوا فى ضم حاكم قرطبة اليهم ، لوثقوا من نجاح خطتهم ، فبعثوا اليه رسلهم ، وجعلوا يمنونه ويغرونه ، حتى لان وانحاز اليهم ،

فسكنت الطمأنينة قلوبهم ، فقد انتهى تدبيرهم ، وتمت حلقاته ، ولم يبق الا التنفيذ ٠

ووافى اليوم الموعود ، فخرج حاكم قرطبة الى داره بأرباض المدينة ، ليخلى الجو لجوذر ، الذى تطوع للفتك بالخليفة ، فهو أعرف المتآمرين بالقصر ، وطالما عاش فيه ٠

وانطلق جوذر الى قصر الزهراء ، وقد أعماه حقده ، وكان قلبه يخفق بالمقت الشديد للخليفة الضعيف ، الذى كان ألعوبة فى أيدى من دبروا اقصاءه عن السلطة والنفوذ ٠ انه قد عزم على تحطيم هذه الألعوبة ، ليهتك الستار الذى تحتجب خلفه الأميرة الواقعة تحت سلطان عشيقها ، الوالغ فى الدسائس والمؤامرات ، ليجمع فى قبضته السيادة والنفوذ ٠

ودخل القصر ثابت الخطو ، ولم يبد عليه اضطراب ، ولم يشف وجهه عما يعتلج فى صدره من احساسات ، كان هادئا كأنما قد من حجر جلمود ، والتمس الاذن بالمثول بين يدى الخليفة ، فخرج الاذن له بالدخول عليه . فتقدم وقد تحركت مشاعره كأفاعى رفعت رأسها تتأهب للوثوب ٠

رأى هشاما المؤيد بالله جالسا على سريره ، ووقف بالقرب منه رجل من رجاله فانحنى حتى كادت جبهته تلمس الأرض ، ثم تقدم وقد أرهفت منه الحواس ، فما تفصل بينه وبين الخليفة الا خطوات قصار ، وما

هى الا أن يستل خنجره ويدفنه فى صدر هشام ، حتى يستل من جنبيه الحياة .

وفى لمح البصر تألق الخنجر فى الهـــواء ، وهوى جؤذر به ليطعن الخليفة ، ولكن الرجل الواقف بالقرب منــه هجم عليــه ، وقبض على يده ، ودارت بينهما معركة رهيبــة ، وأخــذ الرجل يســتنجد بالحراس ، فخفوا لنجدته ، وقبضوا على جؤذر .

وأقبل حاكم قرطبــة ، وعلم بافتضـــاح المؤامرة ، فأوجس خيفة ، ولاح له طيف ابن أبى عامر ، فارتجف ، ورأى أن خير ما يفعله ليدفع التهمـــة عن نفسه ، أن يجد فى القبض على المتآمرين .

وتم له القبض عليهم ، وراح يشــير الى الخليفة بصلب رئيس المحكمة العليا وجؤذر ، امعانا فى التقرب الى السلطان ، فنفــذ اقتراحه ، وحوكم المتآمرون ، وصدر الحكم بقتلهم جميعا ، فقتل الأمير عبد الرحمن ابن عبد الله ، وكفنت فى صدره آماله المشتهاة ، التى زرعهــا جــؤذر ، وســـقاها شــــانئو ابن أبى عامر الموتورون بوعودهم الخلابة .

## ٤٧

تزوج ابن أبى عامر من أســـماء ، فتفتح قلبـــه لجمالها الخلاب ، وقهره ذلك الضعف المنعكس على صــفحة وجههـــا الوديع ، الذى يلتمس من الرجـــل

حمايتها ، فيمنحها اياها راضيا مطمئنا دون تحرز أو تفكير .

كانت رقيقة ؛ وما كانت صاحبة شخصية طاغية جبارة كصبيحة ؛ شخصية يجلها ويهابها من يحتك بها أكثر مما يتعشقها ، بل كانت أنثى ، ترف الابتسامة العذبة على شفتيها ، وتتكسر أهدابها فى دلال ، لتخفى البركان الثائر فى عينيها ، وينساب صوتها حنونا يدغدغ حواس المنصت اليها ، كان سحرها اللين يسرى فى النفوس رخاء ؛ حتى يستقر فى سويداء القلوب ، فلا يعرف بعدها براحا .

سبت رقتها ابن أبى عامر ، فأصبح أسير هواها ، وملأت حياته بهجة وحبورا ، كانت النشوة تغمره اذا أسندت رأسها الفتان الى صدره ، واستكانت له فى ضعف حبيب ، وأخذت تحدثه حديثها الحلو ؛ الذى يعبث بأوتار قلبه ، فطبيعتها الشاعرية الحالمة تجذبه اليها ، وتستولى على لبه .

كان يهرع اليها عقب عمله ، وينصت الى حديثها الجذاب ؛ الذى كان ينسيه دنيا الدس والمؤامرات ؛ ويرفعه الى عالم علوى نقى ، فما كانت تهتم بأخبار الأميرة والخليفة والحاجب ، بل كانت تقص عليه أنباء دنياها الرحيبة التى كانت تستمد الحياة من نبض قلبها ، وشطحات خيالها الصافى .

كانت تروى له احساساتها لما وقعت عيناها عليه أول مرة فى مراكش ، وما فعلته لتجذب اليها بصره ؛ وما كان يجرى بينها وبين طيفه من حوار ومناجاة ،

واستعطاف وعتاب وخصام ، وكانت تحدثه وقد تألقت عيناها ببريق قوى ، واصطبغت وجنتاها بحمرة جذابة ، تنم عن تدفق دمائها الحارة الى وجهها ، فكان يرنو اليها مسحورا ، فذلك الحديث يهز فؤاده ، ويرضى غروره .

وأخذت تعيد ذكرياتها التى كان خيالها مسرحا لها ، وتقصها عليه فى حرارة ، فكان يصغى اليها : وهو يحس تلك اللذة التى يحسها الصغير عندما يستمع الى الحكايات اللطيفة ، فهى ترتاد به عوالم جديدة ، لم يألفها من قبل ، فما كان ممن يحلقون فى الأجواء الشاعرية ، بل كان يفكر ويدبر ويمعن فى التفكير والتدبير ؛ ليقصى هذا أو ذاك، ممن يعترضون طريق بلوغه ذروة السيادة والسلطان .

سلبته فؤاده، فكان يغتنم سويعات فراغه ليمضيها معها ، فشغلته عن القصر ، فما عاد يذهب كل يوم لملاقاة الأميرة كما كان يفعل قبل أن يتزوج ، وفطنت صبيحة الى ذلك التبدل ، فتحركت عقارب الغيرة فى صدرها ، وجعلت تنهشها وتضنيها ، وأحست طعم الصاب فى فيها ، كانت توحى الى نفسها أن ابن أبى عامر ما تزوج من أسماء الا ليباعد بين المصحفى وأبيها ، واذا بالأيام تكشف لها عن وجه الحقيقة المريرة ، فذلك الزواج السياسى تمخض عن حب عميق ، حب أسدل ستارا كثيفا بينها وبين من أحبته حبا طاغيا جبارا .

كانت صبيحة تعتقد فى أعماق نفسها أن ابن أبى

عامر يهواها ، وأنه يكتم حبه خشية أن يكون فى مكاشفتها به اساءة لها ، ففكرت مرارا فى أن تسفر له عن هواها ، لتهون عليه ما يقاسيه من رهبة ، ولكن كان كبرياؤها يقوم حائلا بينها وبين رغبتها فى اللحظةالتي تهم فيها بالقاء نفسها بين أحضانه ، وها هى ذى الأيام تثبت لها أنها عاشت مخدوعة ، فابن أبى عامر الذى خفق بحبه قلبها ، لم يعشقها يوما ، كانت تعيش سعيدة فى ظل وهم كاذب خداع ·

وأطرقت حزينة ، والألم يخز نفسها وخزا قاسيا ، ودارت فى رأسها أفكار وذكريات : انها أقصت ابنها عن الحكم بعد موت الخليفة ، لأنها أرادت أن تتفرد وابن أبي عامر بتسيير دفة البلاد ، فهى تحبه بكل جارحة من جوارحها ، وكانت تطمع فى أن يأتى اليوم الذى تسعد فيه بذلك الغرام ، ولكن ذلك الحلم قد تقوض ، فالحبيب الذى ضحت بابنها من أجله أحب غيرها ، وتركها للضنى والعذاب ·

وفكرت فى هشام ، فوجدت أنها قد جنت عليه جناية ما كانت ترتكبها أم حيال وحيدها ، انها عملت على اضعاف شخصيته ، وأوهمته أن من الخير له أن يتفرغ للعبادة ، وأن ينقطع لقراءة القرآن ، والافراط فى الصوم والصلاة ، ليشغل عما فى يدها ويد حبيبها من سلطان ، انها تحت تأثير الوهم الكذاب ارتكبت تلك الحماقة ، ولكن ما ان انقشعت عن عينيها الغشاوة ، حتى رأت أن تعد ابنها ليتحمل نصيبه فى

ادارة البلاد ، فما عادت تستطيع أن تحمل وحدها كل الأعباء .

حسبت صبيحة أن ابن أبى عامر لم يعد يزور القصر ، لأنه مشغول بأسماء ، ولم تفطن الى أن ذلك ليس السبب الوحيد ، فقد كان مقدما على مجافاة القصر ولو لم يتزوج ممن سلبته الفؤاد ، بعد أن عظم قدره ، وصار يستطيع أن يشق طريقه وحده ، دون رعاية الأميرة ، التى كان يستمد منها النفوذ ، أيام كان فى حاجة الى من يسنده ويرعاه .

## ٤٨

بقى المصحفى فى المطبق ردحا من الزمن ، ثم بدأت محاكمته أمام مجلس الوزراء ، فكان يؤخذ الى المجلس ؛ حتى اذا انتهى من استجوابه من كانوا يرتجفون منه فرقا ، أعيد الى السجن ذليلا ، وقد تحركت شجونه ، وملئت نفسه عجبا من اصطبارها بعد العز على ذلك الهوان ، الذى يتجرعه غصة بعد غصة .

كان الألم يحز فى نفسه ، ويضغط على صدره ؛ فاذا ما أضناه أساه ، طفق يستريح من كربته ، بترجمة احساساته التى تعذبه ، فكان يذرع سجنه وهو يردد ما ينظمه ، لعل ذلك الكرب البغيض ينقشع ، ولعل نفسه التى ذهبت شعاعا من أثر تلك

النكبة تتجلد ، واستراح الى بعض أبيات أوحتها اليه محنته ؛ فجعل يرددها فى أسى :

وكانت على الأيام نفسى عـزيزة
فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لهـا يا نفس موتى كريمة
فقـد كانت الدنيا لنـا ثم ولت

وأقبل آخر يوم من أيام محاكمته ، فجاء حارسه الى المطبق ، وأخرجه ، وأخـذ يسـوقه الى مجلس الوزراء راجلا ، فانطلق فى تثاقل ، وزاغت الأبصار ، واضطرمت باللواعج جوانحه ، وهاضـه البهر : فطأطأ بصره فى انكسار ، وهان أمره على حارسه : فجعل ينهره ، ويستحثه على الاسراع ؛ فالتفت اليه وقال فى مرارة :

ـ رفقا بى ، فسـتدرك ما تحبـه ، وترى ما كنت ترتجيه ، ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه ·

وبلغ المجلس ، فجلس فى آخره مطرقا ، وما كانت تعتمل فى صـدره احساسات فوارة ، فقـد جنح الى اليأس بعـد أن رأى شـدة وطأة الوزراء عليه عنـد محاسبته فى المرات السابقة · انهم يشددون عليه بعد أن دالت دولته ؛ ارضاء لابن أبى عامر الذى عظم ، حتى آلت اليه مقاليد البلاد · جلس دون أن يسلم على أحد ، وقد فاض حزنه ، فهؤلاء الذين يحاكمونه كانت تسعدهم بسمة رضا من شفتيه ، أو ايماءة استحسان من رأسه ، وكانت تفكك أوصالهم ، وتنزل الرهبة بقلوبهم نظرة عابسة من عينيه ، أو اشـاحة غاضبة

بوجهه ، أو زعقة خفيفة فى لحظة من لحظات انحراف مزاجه .

ودنا منه وزير من وزرائه ، ورنا اليه فى زراية ، وقال فى سخرية :

- أما كان أجدر بالحاجب العظيم ، الذى أكل أموال الناس بالباطل ، وهضم الحقوق أن يقرئنا السلام ؟ !

فأعرض جعفر عنه ، فكثر القول من الرجل ، ولما تضايق المصحفى رفع اليه بصره وقال :

- يا هذا ، نسيت الأيادى الجميلة .

فقال الوزير فى انكار :

- هذا البهت بعينه ، وأى أياديك الغر التى مننت بها ؟

- رفعى القطع عن يمناك .

- هذا هو البهتان .

فأدار المصحفى عينيه فى انكار :

- أنشد الله من له علم بما أذكره الا اعترف به .

فقال وزير آخر :

- قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن ، وغير هذا أولى بك ، وأنت فيما أنت فيه من محنتك .

فقال المصحفى :

- أحرجنى الرجل ، فتكلمت .

فقال الوزير الآخر لمن هاجم المصحفى :

- أسأت الى الحاجب ، أوما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه ، لأنه اذا فعل ألزمهم

الرد ، فان فعلوا طاف بهم من انكار السلطان ما يخشى ، لأنه تأمين لمن أخاف ·

وأخذ القوم يسألونه عن الأموال ، فقال :

- والله استنفدت ما عندى من الطارف والتالد ، ولا مطمع لى فى درهم ، ولو قطعت اربا اربا ·

وصرف المصحفى الى المطبق بالزهراء ، ونزع ابن أبى عامر أملاكه جميعا ، ومرت الأيام وهو فى محبسه ، حتى اذا جاء أوان خروج ابن أبى عامر الى غزوته ، لم يطمئن الى تركه فى قرطبة حبيسا ، فرأى أن يذهب به معه ، فخرج المصحفى فيمن خرج لقتال الافرنج ·

وفى ليلة من ليالى القتال ، نهى ابن أبى عامر الناس عن ايقاد النيران تعمية على العدو ، وكانت الليلة شديدة القرة ، فسرى البرد فى جسم المصحفى ، واصطكت أسنانه ، وراح يذرع الفضاء ، ليجلب الدفء لجسمه المقرور ، ولكنه ظل يرتجف من البرد ، فجاء بكانون صغير ، وأخفاه تحت ثيابه ، وأخذ ينفخ الفحم ، حتى اذا ما توهج وانتقلت منه الحرارة الى جسمه انبسطت أساريره ، فيالحاجب الدولة الذليل ، الذى صارت أقصى أمانيه أن ينعم بحرارة بضع جمرات !

وانتهت الغزوة وأعيد المصحفى الى سجنه ، فعاد اليه الهلع والجزع وخطر له أن يكتب لابن أبى عامر يستعطفه ، فلم تثر كرامته ، ولم يغضب من ذلك الخاطر ، واخذ ينظم له الشعر مستعطفا لعل قلبه

يرق ، ولكن ابن أبى عامر كان يستعذب ايلامه : فأصم أذنيه عن تلك التوسلات ·

وفى يوم كتب اليه أن يقعد فى دهليزه معلما لأولاده ، فابتسم ابن أبى عامر فى خبث وقال :

ـ ان هذا الرجل يريد أن يحط قدرى عند الناس : لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومسلما ، فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما ! ·

## ٤٩

استفحل أمر ابن أبى عامر ، فرأى أن يسلب السلطة من الخليفة الضعيف المشغول عن ملكه بعباداته ، فوكل بأبواب قصر الزهراء رجالا من أنصاره يمنعون الوصول الى الخليفة الا باذنه ، وساء صبيحة ذلك الحجر وأغضبها ؛ فقد عاونته لأنها أحبته ، وكانت تحسب أنه يهواها ، وأنه سيقف دواما الى جوارها ، فاذا به يجحد أياديها ، وزاد فى أساها أنه لم يدر بخلدها أن ذلك الذى تفتح له القلب سيصبح يوما سجانها ·

وحصن القصر بسور ضخم ، وحفر حوله خندقا ، فأصبح الوصول الى الخليفة أمرا عسيرا ، فرجاله يضبطون المنافذ ، وعيونه يرصدون كل ما يجرى فى القصر ، فحنقت صبيحة ، وزاد فى حنقها أنها كانت على يقين من أنها لا تستطيع أن تفعل شيئا ،

فانتصاراته على الافرنج حببت الشعب فيه ، وجعلت منه رجلا خطيرا • انها أصبحت تغدو وتروح فى القصر ثائرة كلبؤة حبيس ، يخفق قلبها بالكراهية لذلك الذى كانت تهفو اليه نفسها ، وتشتهيه حواسها جميعا •

ورأت أنها قد أساءت الى ابنها يوم نحته عن الحكم ، وجعلته ينغمر فى عباداته خضوعا لعاطفتها الهوجاء ، وحبها الأعمى لابن أبى عامر ، فأرادت أن تمحو آثر تلك الزلة ، فعزمت على أن تنفخ فى ابنها روح الثورة والتمرد ، على ذلك الذى يحاول أن يسطو على حقوقه •

وراحت تمضى أوقاتها مع ابنها ، تفتح عينيه على ما يجرى فى ملكه ، وتحذره من أن يلقى الى ابن أبى عامر مقاليده ، فيقوده حيث يشاء ، وكانت تحس بعض الراحة وهى تفضى الى ابنها بنصحها ، فكانت ترد ذلك الشعور الى أنها قد تخلصت من سيطرة ابن أبى عامر على روحها ، وقد خلص حبها لوحيدها ، وما فطنت الى أنها ما أحست تلك الراحة الا لأنها توغر صدر الخليفة على حبيبها الذى هجرها وآذى كبرياءها •

ولم يحفل ابن أبى عامر بغضب صبيحة ، فما هى الا امرأة ساقها اليه قدره ، لتعاونه على أن يبلغ هدفه ، ولم يفت عضده ذكريات الماضى ، فما الماضى عنده الا خطوات قطعها فى سبيل غرضه ، انه دواما يرقب غده ، ولا يلتفت الى أمسه •

وانطلق فى طريقه ، فألفى الزهراء لم تعد تتسع له

وللخليفة . أصبح فى حاجة الى مدينـــة جليلة ، ينزل فيها بأسله وذويه ، وجنــده وغلمـــانه ، وان يشحنها بأسلحته وامواله ، فراح يرتاد أرباض قرطبة ، حتى اهتدى الى موقع صالح لتشييد مدينته بطرف قرطبة الشرقى ، على نهر الوادى الكبير ، فحشــد الصناع والفعلة وشرع فى بناء الزاهرة .

وشيدت القصور ، فانتقل اليها ، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وحجابه ، وقواده ، فابتنوا بها كبـــار الدور ، وأحاسن القصور ، وانتقلت اليها الدواوين ، وقامت بها الأســـواق ، وهرع النـــاس للنزول بها ، للدنو من صـــاحب الدولة ، فراحت الزاهـــرة تزهو بعمائرها .

وجلس ابن أبى عامر فى قصره البديع ، وكتب الى الأقطار بالأندلس والعدوة ، وأن تحمـــل الى مدينتـــه تلك أموال الجبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ، وينتابهـــا طلاب الحوائج ، فدبت الحيـــاة فى الزاهرة دافقة قوية .

ورأى غالب تضخم نفوذ ابن أبى عامر ، فتحركت فى صدره عوامل الغيرة ، وفكر فيما قام به ، فارتاب فى نياته ، وأوجس منـــه خيفـــة ، انه قد تطاول على الخليفـــة ، وحبســـه فى قصره دون أن يخشى غضـــب صبيحة ، فما الذى يمنعه من أن يوجه اليه سهامه ، ليتخلص منه ، ويخلو له الأمر فى الأندلس ؟

وراح غالب يرقب زوج ابنته فى حذر ، انه يتـــودد اليه ، ويظهر له التجلة والاحترام ، ولكن ما كان ذلك

ليجوز عليه ، فهو رجل كر وفر ، ومناورات ومفاجآت ، وما كان هينا كالمصحفى يسهل خداعه •

فطن الى أن ابن أبى عامر يهادنه حتى يشتد ساعده ، ويومها لن يتردد فى أن يوجه اليه ضربته ، ولكنه ما كان بقادر على أن يفعل شيئا ، فهو لم يكاشفه بعد بعدائه ، وما فطن اليه ان هو الا هواجس تدور فى نفسه ، وما يدريه لعل حرصه ضخم له تصوراته ، وجعله يتهم زوج ابنته بما لم يخطر له على بال ؟

وعزم على أن يضع حدا لمخاوفه ، فوطن النفس على الذهاب الى ابن أبى عامر مستنكرا حجره على الخليفة ، آملا أن يكشف حوارهما عن خبيئة نفس ذلك الداهية ، الذى يبدى دواما الود والسلام •

ودخل القائد المحنك على زوج ابنته ، فتلقاه الرجل بالبشاشة والترحاب ، وبالغ فى احترامه ، وجعل غالب يرمقه فى تفرس ، كأنما يبغى أن يغوص فى أغوار نفسه ، ولكن أنى له ذلك ، فقد كانت نفس غريمه أعمق من أغوار المحيط •

وفكر غالب فى أن يفجأ غريمه باستنكاره ، فلا يدع له مجالا لتنميق أفكاره ، فقال له فى غضب ظاهر :

ـ ساءنى يا محمد حجرك على الخليفة ، ويعز على أن أرى حفيد مولانا الناصر محبوسا فى قصره ، ليس له من الأمر شىء •

فقال ابن أبى عامر فى هدوء دون أن يضطرب :

ـ ما حجرت عليه الا لمصلحته •

فقال غالب فى سخرية :

- وأى مصلحة فى حبسه ، وانتزاع السلطة من يديه !

فقال ابن أبى عامر فى ثبات :

- عزمت على أن أقضى على منافسيه جميعا ، وان أخلص له ملكه من الطامعين فيه ، وخشيت أن يفسد على تدبيرى بتصرفاته ، فحلت بينه وبين أعدائه ، المتسربلين فى ثياب الأصدقاء .

واسترسل الرجلان فى حوارهما ، ثم خرج غالب ، وهو فى شك من أمره ، يخشى غدرات ابن أبى عامر ، وان لم يجد الدليل الملموس على انتوائه الغدر به ، فآثر أن يتريث ارصادا لما تأتى به الأيام ، أما ابن أبى عامر ، فقد ضاق بمعارضة صهره له ، فأطرق يفكر فيما ينتهجه نحوه ، فرأى أن يبادر بالتخلص منه ، فقد آن له أن ينفرد وحده بالنفوذ والجاه .

٥٠

راح ابن أبى عامر يعمل على تكوين جيش ضخم يدين له بالولاء ، فقد كان الجيش الأندلسى لا يزال يتبع النظام القبلى ، فكل قبيلة تقدم المقاتلين اذا جد الجد ، ودق ناقوس الخطر ، وما كان هذا ليرضى ابن أبى عامر بعد أن رأى فى مراكش فرسان البربر ، وجنودهم المتخصصين للقتال ، فأخذ يعمل على تكوين جيش ثابت لا يحترف أفراده الا الجندية .

ورأى أن فرسان البربر قد اكتسبوا خبرة فى الطعن والنزال ، فبعث اليهم ، فجاءوه سراعا يتدفقون على مدينته الزاهرة ، حتى غصت بهم ، وكان غالب يرقب ذلك وقد امتلأ صدره غيظا ، فقد برح الخفاء ، وبان للعيان أن زوج ابنته يتأهب للانقضاض عليه، ليخلص له وجه الأندلس جميعا .

وفكر فى أن يجلب الى الأندلس قائدا محنكا يكسف ضياؤه ضوء غالب الذى يتيه بفروسيته ، فأخذ يعجم عيدان القواد ، فوجد أن الأمير جعفر بن على المقيم بأرض العدوة واليا على من أطاع الخليفة من زناتة أوسعهم شهرة ، وأعظمهم قدرا ، فكاتبه ، وطلب منه أن يقدم عليه بجيشه ، فأجابه الأمير الى طلبه وراح يتأهب ليعبر البحر الى الأندلس .

وأعد له ابن أبى عامر قصرا فاخرا ، فلما وفد الأمير عليه أخذ يبالغ فى اكرامه وتقريبه منه ، واستوزره ، وتلازما ، فما كانا يفترقان الا نادرا ، وأصبحا صديقين ، بل أخوين ، ولكن الى متى تدوم صداقة ابن أبى عامر ؟

تكشفت نياته بعد أن استقدم جعفرا ، فما عاد هناك شك فى أنه يتأهب للقضاء على غالب ، فقد كان يتبع نفس السياسة التى اتبعها فى التخلص من منافسيه ، تقرب من أحدهم ، والاستعانة به على الآخر ، فقد تقرب من المصحفى ، وصانعه وأظهر له ولاءه ، حتى قضى على الصقالبة ، فلما تم له ذلك تقرب من غالب ، واستعان به على اسقاط المصحفى .

واليوم يدنى جعفرا منـــه ليؤازره فى ازالة غالب من طريقه ·

وشـــعر غالب بالخطر يدنو منـــه ، فأحس كراهة لصهره ، واسترسل فى تفكيره ، فرأى أن خير ما يفعله أن يبادر بمهاجمة غريمه قبل أن يهاجمه ، وشاء أن يحقن دماء الناس ، فعزم على أن يستدرج صهره ، ليقضى عليه دون قرع السيوف ، وزحف الصفوف ·

وبعث اليه يدعوه الى زيارته فى احدى غزواته · فخرج اليه ابن أبى عامر فى بعض فرسانه ، حتى اذا ما أشرف على مدينة أنتيسة ، قابله غالب ورحب به ، ثم قاده الى قلعة من قلاعها حيث أعد له وليمة فاخرة·

وتحلق الجمع الطعـــام ، ودار الحديث بين غالب وصهره لينا ، ثم أخذ يشتد حتى قال غالب :

ـ ان ما يحزننى يا محمد اساءتك الى ولى نعمتك ، وحجرك عليه ·

ـ ما أسأت اليه بحجرى عليه ، فما منعت اتصال الناس به الا حرصا عليه ·

ـ بل طمعا فى أن تجمع السلطة فى يديك ·

ـ ما طمعـــت فى الســـيادة ، وما جريت وراءها ، ولكنها انقادت الى ·

فقال غالب فى سخرية :

ـ والله لن يوردك غرورك الا موارد الهلاك ·

ـ والله ما بى من غرور ، ولكن ثقـــة بقدرتى على اسعاد الناس ·

ـ وماذا فعلت غير الدس والنفاق ؟

_ ما نافقت ، بل قضيت على الفساد ! وضبط البلاد ٠

_ ما أنت الا ثعلب رواغ ٠

_ ماكان لثعلب أن يهب لقتال الأعداء يوم تحصنت أنت فى مدينتك ، وتركت الافرنج يخربون القلاع ، ويعيثون فى الأرض فسادا ، لترغم الخليفة على أن يقربك ويدنيك ، أردت أن ترتفع على أنقاض مدتنا وأجداث قتلانا ٠

فثارت ثائرة غالب ، ولم يستطع أن يضبط عواطفه ، ورأى الفرصة سانحة ليقضى على صهره ، فهب قائما وهو يصيح :

_ يا كلب ، أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع ٠

وسل سيفه ، ورفعه وهوى به على ابن أبى عامر ، فأسرع رجل يحبس يده ، فجاءت الضربة ضعيفة اتقاها ابن أبى عامر بيده ، فجرحت أنامله ، وخلصت الضربة الى صدغه ، فراح يشجب دما ٠

وفى مثل لمح البصر لاح لفكره كل شىء ، فان بقى فى القلعة أجهز عليه ، فتلفت حوله ، فلم يجد الا شرفة ، فهرع اليها ، ونظر الى الأرض ، فهاله ارتفاعه ، وخفق قلبه رعبا ، ولكن لم يكن أمامه الا أن يقفز من ذلك العلو الشاهق ٠

وقفز يائسا ، فتلقفه حظه ، فسقط على سقيفة بين حائطين ، فأصيب بجروح ، ولكنه لم يحفل بما أصابه ، أنسته فرحته بنجاته ما يكابده من آلام ، وهبط الى

جنده الذين كانوا ينتظرونه مثخنا بالجراح ، فهرعوا اليه يعالجونه ، وبقى مدة مكروب الأنفاس ، حتى اذا سكن روعه ، أخذت الأفكار تومض فى ذهنه وميض البروق ٠

رأى أن أوان المصانعة والمداراة قد ولى ، فقد نشبت الحرب السافرة بينه وبين صهره ، ولم يشأ أن يضيع وقتا ، فقد صار لكل دقيقة قيمتها ، فجمع من معه ، وذهب ليهاجم غالبا فى قلعته ، ولكنه امتنع عليه بمعقله ، وصار مناله عزيزا ٠

وصمم على أن ينتقم لما ناله ، فانطلق ومن معه الى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأمواله ، فدخلها واستولى عليها ، وقسم ما بها على جنده ، ثم قفل عائدا الى قرطبة ، ليتأهب للمعركة الرهيبة ، الفاصلة بينه وبين صهره ٠

## ٥١

نزل بأسماء هم ثقيل، أقلقتها تلك العداوة الناشبة بين زوجها وأبيها ، وزاد فى قلقها تلك العواصف المتضادة المتصارعة فى جوفها ، كانت تشفق على زوجها ، ثم تعود لتشفق على أبيها ، فهى حيرى لا تدرى الى أى معسكر تميل ٠

وربما حزنها لما خرج زوجها على رأس جيش جرار، وقد استعان بالأمير جعفر بن على والبرابرة على

قتال أبيها ، انها كانت ترقب زوجها وهو خارج فى غزواته قلقة ، ولكنها ما كانت تشعر بالحزن الثقيل الذى تحسه اليوم ، فلن تجنى من هذه المعركة البغيضة الا الحسرة والأشجان فستفقد فيها أحد رجليها : زوجها أو أباها .

وزادت طبيعتها الحالمة فى قلقها ، كانت المعارك تنشب فى رأسها فترى سيف أبيها يهبهب فى الجو ، ثم يهوى ليقط رأس زوجها ، فتخفى وجهها بين راحتيها فى فزع ، وتحس خنجرا يغوص فى قلبها ، فتتلوى من الألم ، ثم تجهش بالبكاء .

كانت دموعها تخفف حر لواعج نفسها ، ولكن ما ان تجف عبراتها حتى يقفز الى رأسها الوجه الآخر البغيض من وجوه المعركة ، كانت ترى زوجها يستل سيفه ليدفنه فى صدر الشيخ ، فتئن وتتأوه ، وتشيح بوجهها ، لتفر من ذلك العذاب .

ومرت الأيام قاسية بغيضة ، وأسماء الرقيقة تحاول أن تبعد عن عينيها تلك التصورات الدامية ، والأشباح الرهيبة ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ، وقد نشبت فى رأسها ، آناء الليل وأطراف النهار ، معارك أشد هولا من تلك التى ستدور رحاها فى الميدان .

وجاء الى قرطبة أن غالبا استعان بابن شنجة ملك الافرنج على قتال صهره ، فزاد كرب أسماء ، فما كانت تحب أن يرتكب أبوها مثل تلك الخيانة الشائنة فى أخريات أيامه ، وهو الذى كانت أيامه كلها مجدا وفخارا .

وطأطأت رأسـها ، وتكدست أحزانها فى صـدرها طبقات فوق طبقات ، كان أهون عليها أن يبلغها نبأ مصرعه ، من أن يصك أذنيها خبر استنجاده بأعداء البلاد ، فالموت على الأبطال دوار ، أما الخيانة فعار ما بعده عار ٠

واستمرت المعارك دائرة فى رأسها ، ولم تعد ترى وجهيها ، احتل فكرها أبغضهما الى نفسها ، فها هو ذا أبوها يرفع سيفه ويهوى به ليطيح رأس زوجها ، فتثور عواطفها ، وتحس آلاما مبرحة تخز روحها ، وتشعر باحساسات المقت لأبيها تتحرك فى جوفها ، مالت بقلبها الى زوجها بعد أن اقترف غالب جريمته ٠

وجاء البشير الى الزاهرة يزف نبأ انتصـار ابن أبى عامر على أعدائه ، وسقوط غالب مجدلا لجنبه ، ميتا لا أثر لشىء من السلاح فى جسـمه ، وبلغ الخبر مسـامع أسـماء ، فانتشرت سـحائب من الكدر فى صـدرها ، وطفـرت الدموع من مقلتيهـا ، وعجبت لنفسها ، فما كانت تظن أن عينيها تجودان بدمعة على أبيها الذى شان اسمه يوم استعان بأعداء البلاد ٠

وسرعان ما انقشـعت سـحائب كدرها ، ولفتها الغبطة لنجاة زوجهـا ، وراحت ترقب أوبتـه ، وقد غشيها قلق لذيذ ، كانت تحبه من كل قلبها ، وكانت فى قرارة نفسها على استعداد لأن تغفر له قتله أباها ، ولو لم يكن قد اقترف جنايته ، تلك الخيانة التى وفرت عليها ما كان منتظرا من تصارع احساساتها لو أن أباها قتل ، ولم يستعن بابن شـنجة ، ذلك الصراع

الذى كان سينتهى حتمـا بانتصار مشاعرها المائلة لزوجها حبيب الفؤاد ٠

وتأهبت الزاهرة للقـاء المنصور ، فخرج النـاس لتحية ابن أبى عامر ، الذى ما خرج الى غزوة الا عاد منها مظفرا ، وراحت أسـماء تذرع القصر وقد نفد صبرها ، انها تتمنى أن تغمض عينيهـا ثم تفتحهما لتراه أمامهـا ، وترامى الى مسـامعها أصـوات الجماهير المرحبة بمقدم زوجها ، فأخذ قلبها يخفق فى جوفها كجناح حمـامة ، وهرعت الى أقرب شرفة ، ومدت بصرها لتراه وقد أحست خدرا لذيذا ٠

ودخل عليها وهتف فى صوت متهدج ، وقد بسـط ذراعيه :

ـ أسماء ٠

فهرولت اليـه ، وقد غلبهـا الوجد ، فارتمت فى أحضانه ، وراحت تمرغ وجهها فى صـدره ، وتغمغم ودموع الفرح تجرى على خديها :

ـ حمدا لله على سلامتك يا حبيبى ٠

★ ★ ★

جلس المنصور يفكر ، فعاد به خياله الى يوم كان يتنزه مع رفاقه فى حدائق قرطبة ، وقال لهم : « تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطـة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر ، وتذكر ما تمناه كل منهم ، وها هو ذا قد ملك الأندلس ، ونفذ فيها حكمه ، فحق عليه أن يحقـق لهم أمانيهم ، فبعث الى ابن عسقلاجة وولاه قرطبة ، أما ذلك الذى سخر منه فلم ينس له سخريته ،

وأمر أن يطاف به قرطبة كلها على حمار ، ووجهه الى الذنب ، وهو مطلى بالعسل ليجتمع الذباب عليه والنحل .

## ٥٢

وارتقبت مجيئه ، ولكنه لج فى الجفاء ، فقد نزل بزاهرته ، ولم يفكر يوما فى أن يتوجه الى قصر الزهراء ، ليترضاها ويرضى غرورها ، فنكأ ذلك الاصرار على الاعراض عنها جرح حقدها ، فراح يدمى مقتا وصديدا ، فعزمت على أن تكيد له ، وتناصبه العداء ، لتنتقم لكبريائها المهيض .

ونفخ فى جمرات غيظها أن المنصور أمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، كأنما لم يكفه أن يسلب هشاما نفوذه ، بل شاء أن تجرى الأمور فى قصره ، كما تجرى فى قصر الخلافة .

ذهبت الى ابنها تثير حماسته ، وتملأ نفسه ثورة على ذلك الطاغية الذى كبله بقيوده ، وتأمره أن يبعث فى طلبه ليحاسبه على فعاله ، ويشتد فى تقريعه ، ليحطم غروره ، ويفهمه أن الأمر ليس أمره ، بل أمر الخليفة .

ونجحت فى أن تنقل الى ابنها بعض نار الثورة المتأججة فى صدرها ، وتجعله يقتنع أن من العار أن

يستكين لذلك الهوان ، الذى يجرعه اياه ابن أبى عامر ، دون أن يهب ليذود عن مكانته ، ويعيد الى قصر الزهراء هيبته ، التى كانت له أيام أبيه الحبيب وجده العظيم ٠

بعث هشام فى استدعاء المنصور ، وراحت أمه تلقنه ما يفعل وما يقول ، كانت تبنى آمالا كبارا على تلك المقابلة ، كانت ترجو أن يفطن ابن أبى عامر الى أن ما ناله من تحقير على يد الخليفة ان هو الا من تدبيرها ، وأنها قادرة على أن تكيد له ، ولن يثبت لكيدها ، فيعيد التفكير فى تلك الجفوة البغيضة التى أقامها بينه وبينها ٠

وأقبل المنصور الى قصر الزهراء ، تحف به أبهته وعظمته ، وانطلق الى المجلس الشرقى ليقابل هشاما ، وانتظرت صبيحة بالقرب من قاعة الخليفة ، وهى تأمل أن يدخل عليها ابن أبى عامر قبل أن يدخل على ابنها ٠ ومر ببابها ولم يلتفت اليها ، وسار الى باب هشام ، فرفرف قلبها فى جوفها ، وثارت مشاعرها ، واختلط عليها الأمر ، فما درت أخفق قلبها حبا ، أم راح يدق فى صدرها يقذف ما به من الحقد والكراهية ؟ ودخل على هشام ، فألفاه على سريره ، وما ان وقعت عينا الخليفة عليه حتى شمخ بأنفه ، وترك له يده ، فلم يجد مفرا من أن يهوى عليها يقبلها ، وأخذ الخليفة يتشاغل عنه مدة بالعبث بسبحته ، ثم التفت اليه وجعل يحدثه فى فتور ، فأحس المنصور حرجا ، ولكنه ما كان بقادر على أن يكشف عما يكابده من ضيق ٠

وجاهد هشـــام ليجمع أطراف شجاعته ، فقـــد كان يحس رهبة للمنصور ، ويخشى أن تتلاقى عيناه بعينيه . وما ان استجمع قواه ، حتى راح يحاسبه . ولاح له شبح أمه يشد من أزره ، ويحضه على الثورة على من سلبه سلطانه ، فاجترأ ، وأخذ يوجه له بعض اللوم على تصرفاته . فحنق المنصور وشعر بكبريائه يدمى ، وطفـــق يجرع تقريع الخليفة ، وفى صـــدره مرجل من الغضب يفور .

وغادر القصر ، وكل خلجة فيـــه ترتجف غضـــبا ، ووقع بصر صبيحة عليه وهو يندفع كالعاصفة المزمجرة فى ردهات القصر ، فشـــعرت بالراحة . أرضاها أن تراه مكروبا ، فيا طالما سبب لها الكروب ، وحسبت أن ظهور ابنها بمظهر الخليفة القوى سيحد من غروره ، ويجعـــله يئـــوب الى القصر ، يســـتظل بظـــل الحاكم الشرعى ، ويستمد منه النفوذ .

ودخلت على ابنها منشرحة الصدر . فألفته مبهور الانفاس ، وقد بان فى وجهه الاعياء ، فما كان من طبعه أن يثور ، وقد استنفد فى تمثيل ما لقنته أمه كثيرا من الجهود . انه لا يدرى كيف ثار تلك الثورة على حاجبه المهيب ، ولكنـــه كان على يقين من أنه لن يستطيع أن يعود الى مثلها ، فما ان غادره المنصور حتى انقبض قلبـــه ، وسرت فيـــه موجة من الرهبة جعلتـــه يتخاذل ويتضاءل ، فيستسلم لضعفه ، لقد نجحت صبيحة فى أن توقظ نفسه الخاملة مرة ، وما كان لها أن تطمع فى

أن تنجح فى استنهاض عزيمته الخوارة مرة أخرى ؛ فالمعجزات لا تتحقق مرات ·

وراحت ترقب ما يأتى به ابن أبى عامر ، فى تشوق وقلق ؛ كانت تتمنى من كل قلبها أن يعود اليها ، ليعود الى نفسها الهدوء ؛ وكانت تخشى أن يلج فى الهجران ، وأن يقيم على الصد ، فيستمر عذاب الفؤاد · كانت على يقين من أنه لا يحبها ؛ وعلى الرغم من ذلك كانت تشتهى أن يزورها ، ففى قربه هناءة القلب ، وراحة البال ·

ولم يأت المنصور الى الزهراء ، ولم ينل لوم الخليفة منه ؛ بل حطم مرجل غضبه ، فراح يشتت حاشية الخليفة · ويضيق عليه ؛ فأحنقها ذلك التحدى المكشوف ؛ وزاد فى حنقها أن من ارتفع بأجنحة فضلها ، واستظل بظل رعايتها ، تنكر لها ، ونسى أياديها ، وراح يذيقها كئوس الذل والهوان ·

وعز عليها أن يهزمها ذلك الذى نشأ فى كنفها ، واقتبس منها السياسة ، وأخذ عنها الدهاء ؛ فصممت على منازلته ؛ وراحت تستغل كل قواها ، وجميع مواهبها ، لتكيد له ، وتجرعه من نفس الكأس المريرة التى جرعها اياها ·

٥٣

مات المصحفى فى سجنه ، فبعث المنصور كاتبه لتسليم جسده الى أهله ، فانطلق الى الزهراء ، وهبط الى المطبق ، فألفى حاجب الدولة وليس عليه شىء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، وتم تجهيزه ، وخرج أهله بنعشه ، فما تجاسر أحد على النظر اليه ، فقد كان طريد المنصور حيا وميتا .

وسار كاتب ابن أبى عامر خلف النعش ، وأطرق مفكرا ، فكر خياله راجعا الى أيام كان المصحفى نجم قرطبة الساطع ، فرآه فى موكب كثيف رائع ، وقد حف به الخلق ، وأخذ الناس السكك عليه ، وتكدسوا فى أفواه الطرق ينظرون اليه ، ورأى نفسه يشق تلك الجموع المتراصة الهائلة ليصل اليه ، فقد كان يروم أن يناوله قصته ، ولكنه لم يستطع أن يبلغه ، فقد تفصد منه العرق ، وانقطعت أنفاسه ، وكاد يضيع فى ذلك البحر الزاخر بالأجساد ، وأخيرا ناول قصته بعض كتابه الذين نصبهم فى جناحى موكبه ، لأخذ القصص ، وكاد ينهار من الجهد والاعياء .

ورفع رأسه ، فرأى الجنازة الهزيلة ، فما كان يودع المصحفى الوداع الأخير الا خاصة أهله ، وتلفت حوله ، فما وقعت عيناه على أحد ، أقفرت الطرق من

الناس ، فأحس رهبة ممزوجة باستياء ، ثم لوى شفته السفلى فى زراية واستخفاف ·

وقبر المصحفى ، وهمس الناس بأن المنصور دس له السم فى طعامه ، فلم يحفل بما يقولون ، انه تخلص من صـــهره ، واســـتراح من المصحفى ولم يبق أمامه الا الأمير جعفر بن على الذى استقدمه من مراكش ليعاونه على اســـقاط غالب ، وها هو ذا غالب قد قضى ، فلن يجنى منه بعد ذلك الا المتاعب والاضطرابات ·

وطفق يدبر طريقة يتخلص بها من ذلك الأمير ، الذى له فى نفوس البربر مكانة عظيمة ، دون أن يثير حفيظة الجند الذين يحبونه ، فأمعن فى التفكير ، وفى ليلة نامت فيهـــا الزاهـــرة ، حضر الى بابه رجـــل من رجالات الأندلس ، واستأذن عليه ، فأذن له ·

دخل الرجل عليه ، وما ان أصغى المنصـــور اليـــه حتى راح يقول :

ـ ان البربر يختلفـــون الى جعفـــر بن على بقصر العقاب ، ليحدثوا حدثا ، فخذ حذرك ·

لم يضطرب المنصور ، ولم يبد فى وجهه الغضب ، فذلك الحديث يرضيه ، ففيـــه تبرير لاخراج ما يجول بخاطره الى الوجود ، فالأمير جعفر بن على يبيت له فى الظلام ، ويتآمر عليه ، ولكن لن يرى تدبيره النـــور ، فقد وطن العزم على قطف رأسه بنفس البساطة التى يقطف بها الورود · ان سوء طالعه ســـاقه فى طريقه ، ليستغله ثم يرديه ·

ودعاه المنصـــور الى حفـــل باهر أقامه له فى قصر

العامرية ، فازدان القصر ، وأخذ الغلمان يغدون ويروحون ، ينسقون مجلس الشراب ، وجلست الجوارى والمغنيات باهرات الحسن ، آسرات الطرف .

وأقبل الأمير جعفر ، فخف اليه المنصور ، واستقبله متطلق الوجه ، وذهبا الى مجلس الشراب ، يحف بهما الأنصار والأتباع ، وارتفعت أصوات المغنيات العذبة تعبث بالقلوب ، وجاء الساقى يدور بالكئوس ، فتوجه بكأسه الى المنصور ، فقال له :

ـ أسقها أعز الناس على .

فوقف الساقى يدير عينيه فى الموجودين ، وهو حيران ، كان المجلس يضم أشهر رجالات الأندلس ، وما كان يدرى الى من يتوجه ، فصاح فيه المنصور :

ـ ناولها الأمير جعفرا عليك لعنة الله .

فانبسطت أسارير الأمير ، وقام الى الساقى يتناول كأسه منشرحا ، وأديرت الكئوس ، وثقل الشراب ، وأخذ الآمير يعب الخمر عبا ، فانتشى وهزه الطرب ، فقام يرقص على الأنغام .

وانقضت السهرة حلوة بهيجة ، ولكن الليلة الرهيبة لم تنقض بعد ، خرج الأمير جعفر بن على فى فحمة الليل الى طرقات الزاهرة ، يترنح ثملا ، وراح يخترق ذلك الظلام اللجى فى صحبة بعض غلمانه ، وما ان ابتعد عن قصر العامرية حتى انقض عليه رجال يعملون سيوفهم فيه ، فسقط يخبط فى دمه ، وما هى الا لحظات حتى حز رأسه وحمل الى المنصور .

وأطرق المنصور مظهرا الحزن عليه ، وان كان

قلبه يرفرف فرحا ، فقد قضى على منافسيه جميعـا ، ولم يبق أمامه الا صبيحة ، تلك المرأة القوية ، التى هبت لتـذود عن عرش ابنهـا ، وتنتقم لكبريائها المجروح ، وحبها الفاشل ، الذى نغص عليها الحياة ٠

٥٤

أصبح المنصور أمام صبيحة وجها لوجه ، وأيقن أنه سيقاسى كثيرا من كيدها ، فهو أكثر الناس معرفة بها ، فما كانت لتقبل فى يسر أن تنام على الضيم ، وكان يعرف دهاءها ، فراح يرقبها فى حذر ، لينقض غزلها قبل أن يتم ٠

ورأت صبيحة أنها لن تستطيع الاعتماد على ابنها فى اذلال المنصـور ، فهو يهـابه ويتضـاءل أمامه ، وتنمحى شخصـيته أمام شخصـية حاجبه القوية ، وعرفت أنها لن تقـدر على زعزعة أركانه فى بساطة بعد تلك الانتصارات المتلاحقة المدوية ، التى مكنت له فى قلوب الناس ، فعزمت على أن تستغل عطف الشعب على خليفتهم الواقع فى أسر حاكم ظالم متجبر ، وكانت تعلم ما للخلافة من تقديس فى النفـوس ، فبعثت الى أعوانها وأمرتهم أن يندسوا بين الجماهير ، ليذيعوا أن الخليفة هشاما ابن خليفتهم الحكم الكريم ، وحفيد الناصر العظيم ، مغلول اليدين ، لا يستطيع أن يباشر سلطته الشرعية ، وأن حاجبه الطاغية يطمع الى مقام

الخلافة ، ويحول بينه وبين اقامة العدل وانصاف الناس ·

وانتشر أعوان صبيحة فى أنحاء الأندلس ، وراحوا يهمسون بأن الخليفة السجين فى قصره يعتمد على ولاء الشعب له ، لتحليضه من أسره ، ورد السلطة اليه ، ليعمل على اسعاد الجميع ، فأصغى الناس الى ذلك الهمس ، وقد مالت قلوبهم الى الخليفة المظلوم ·

نجحت صبيحة فى أن تنشر دعوتها للخليفة المهيض الجناح بين الجماهير ، ولكن ذلك النجاح لم يخدعها عن حقيقة ما وصلت اليه ، فلن يكفيها تأييد الشعب ما لم تظاهرها قوة حربية وجيوش ، فراحت تعجم عيدان رجالات الدولة ، فوجدت أن زيرى بن عطية زعيم زناتة بالمغرب أعزهم نفرا ، وأكثرهم مقتا للمنصور ، كان يكره طغيانه ، وينفس عليه تفرده بالسلطان ، فرأت أن تبعث اليه رسلها يوغرون صدره على حاجب الدولة الجبار ، ويستنهضونه ليهب للذود عن خليفته السجين ·

واجتاز رسلها جبل طارق الى افريقية ، ونجحوا فى أن يحركوا غضب زيرى على المنصور ، فعاهدهم على رفع راية عصيانه ، وطلب منهم المال الذى يعاونه على جمع الرجال ·

علمت صبيحة بحاجة حليفها الجديد ، فراحت تفكر فى وسيلة تخرج بها الأموال من القصر ، فصاحب المدينة لن يسمح بتسرب الأموال الى المغرب لمناهضة المنصور ، فتفتق ذهنها الخصب عن حيلة اطمأنت

اليها ، فجاءت بمـائة كوز وضعت بها ثمـانين ألف قطعة من الذهب ، ختمتها بالشهد والمربى ، ثم حملتها لخادم صقلبى ، وأمرته أن ينطلق بهـا الى المغـرب الأقصى ، وأن يسلمها الى زيرى أمير زناتة ·

خرج الخـادم من القصر تحت سـمع جـواسيس المنصور وأبصارهم ، ومر بصاحب المدينة ، فلم يرتب فيما يحمل معه ، وغادر قرطبة ، وراح يغذ السير الى جبل طارق ، ليعبر الى مراكش ·

وهمس من فى القصر بقصة تلك الأموال المحمولة الى افريقية ، بعد أن اطمأنوا الى مغادرة ذلك الخادم الصقلبى حدود الأندلس ، وبلغت تلك القصة مسامع جواسيس المنصور ، فطاروا بها اليه ، فأهمـه الأمر وأقلقه ، فقـد كان يدرى ما ينتظـره من متاعب اذا تآزرت جيوش زيرى ودهاء صبيحة ·

وفطن أن وجود خزائن المال بقصر الزهراء فى يد صبيحة تغترف منها كيف تشـاء ، وتنفقهـا فى تأليب الناس عليه ، خطر يتهدده ، وسـيف مرهف مسلط عليه ، فعزم على أن يبذل كل ما فى طاقته لاخراج ذلك المال من قصر الزهراء ، فبعث الى الوزراء والحكام ، فلما التأم عقدهم خرج عليهم وقال :

ـ بلغنى أن أموال المسلمين تصرف فى غير وجهها ، وأنهـا تنفق فى اثارة القـلاقل والفتن ، وأن الخليفة مشغـول بعبـاداته عن السهر على ما فى قصره من أموال ، وانى أرى أن تنقـل الى مكان أمين ، وأترك لكم اختيار المكان ·

وما ترك لهم اختيارا ، فهم جميعا يعلمون ما يرمى اليه ، وكانوا يسارعون الى ارضائه فقالوا :

ـ وهل هناك آمن من الزاهرة ، انقلها اليك ، فأنت على حفظها أقدر ·

نال المنصور موافقة الوزراء على نقل خزائن المال من قصر الزهراء الى مدينتـــه ، فسره ذلك ، ولكن ما أصعب التنفيذ ، فما كان يسيرا أن ينتزع المال من فم الأسد ، فرأى أن يتريث قليلا ·

وأزعجه تدبير صبيحة وأضناه ، وجعله يسترسل فى التفكير والتدبير ، فسقط مريضا ، وبلغه أن زيرى قطع اسمه من الخطبة ، وترك الدعاء له ، فزاد كربه ، ورأت صبيحة أن مرضه يتيح لهـــا القيام بثورتهـــا ، فبعثت أعوانها الى قرطبـــة يدعون الشعب الى نجدة خليفتهم ·

وثار النـــاس ، وأعلنوا سخطهم ، وكادت صبيحة تجنى ثمار ما دبرت ، ولكن ثورتها ماتت فى مهدها ، فما كان بين أنصارها الشخصية القوية التى تعرف كيف تستفيـــد من هـــذه القـــوة الســـاخطة ، وكيف توجهها ··

ولم يستطع المنصور أن يصبر على ما جرى ، فقد أطلت الفتنة بعينيها ، ولو تريث بعد ذلك لأطاحت به تلك العاصفة الهوجاء ، التى تهب عليـــه من القصر قوية مزعجة ·

بعث الى ابنه عبد الملك ، وكان شابا ورث عن أبيه الشخصية القوية ، فلما دخل عليه قال له :

- خذ ألفى فارس من غلماننا ، وانطلق الى قصر الزهراء ، واحمل الينا ما به من أموال ٠

خرج عبد الملك فى جيشه ، وذهب الى قرطبة ، ودخل قصر الخلافة ، واستدعى من كان فيه من الوزراء ، وقال لهم :

- ان قوما ممن يتصل بأسباب الخليفة يؤثر الفتنة ، ويكره الدعة ، وقد جئنا نحمل ما فى القصر من أموال ، حتى نأمن عدم صرفها فى غير وجهها ٠

فقال من حضر من الوزراء :

- هذا هو الرأى ، وقد سبق أن وافقنا على ذلك ٠

فقال عبد الملك لمن عنده :

- أرى أن ندخل على الخليفة نحدثه عن تلك الأمور الخطيرة ، التى تحدث دون علمه ، والتى لن يتولد عنها غير الكروب والشقاق ٠

فهتفت أصوات :

- فلندخل على الخليفة نشافهه بهذه الأمور ٠

ودخل عبد الملك ووزراء أبيه على هشام ، فقال عبد الملك للخليفة :

- الدسائس تدبر يا مولاى فى القصر ، لتأليب الشعب على المنصور ، وأموال المسلمين تصرف فى تأليف قلوب الثائرين ، ولن يعود على البلاد من ذلك الا الخسران ٠

فقال الخليفة فى تخاذل :

- والله ما لى علم بما تقول ٠

- صدقت يا مولاى ، ولكن المؤامرات تحاك هنا فى القصر ، وتطلع الفتن منه بوجهها البغيض .

- انى أقدر ما أداه لنا المنصور من خدمات جليلة ، وأبرأ من أعدائه وحاسديه .

- أشكر لكم يا مولاى بلسان أبى جميل رعايتكم لنا ، وفضلكم العظيم الذى غمرنا ، وأقول ان الوزراء والفقهاء قد رأوا فى وجود خزائن المال هنا خطرا على الدولة ، فأشاروا بنقلهـا الى مكان آخر ، وقد جئت لأنفذ رغبتهم ، وألتمس من مولانا أن يأذن لى فى نقل ما فى القصر من أموال المسلمين .

ووافق الخليفة على ما ارتآه وزراؤه ، فأخذ عبد الملك فى نقل الأموال ، وانقضت أيام ثلاثة ، وهو يحمل الذهب من قصر الخـلافة الى العامرية ، ولم يبـق بالزهراء الا مال الخاصة ، فأراد أن يحمـله ، فهب من فى القصر يذبون عنه ، وكاد غلمـان المنصور أن يصلوا اليـه ، ولكن أقبلت صـبيحة ثائرة ، وقامت تحول بينهم وبين المال .

وقف الغلمان مشدوهين ، وما تقدم أحدهم ، كأنما سمروا الى الأرض ، فقد كانت تصوب اليهم نظرات حادة تخلع القلوب ، وتنزل الرهبة بالنفوس ، وتقدم اليها عبد الملك وما ان وقعت عينـاها عليـه ، حتى امتقعت ، واندلع لهيب الغضب فى جوفها ، كان يشبه أباه ، وثارت ثائرتها ، ورنت اليه فى زراية ، وقالت له فى انفعال :

- من ؟ ابن من لا أمان له .

فأطرق عبد الملك ولم ينبس بكلمة ، وان رفت على شفتيه ابتسامة تقطر سما · فزادت ثورتها ، وقالت فى نبرات شحنت مقتا :

ـ وهل تلد الحية الا حية ·

وظل عبد الملك صامتا ، واندفعت صبيحة تقول فى حدة :

ـ أما كفاكم ما اغتصبتموه حتى جئتم تسرقوننا ، اخرج يا بن الثعلب ، فوالله لن أسمح أن تصلوا الى أموالنا أبدا ·· اخرج ·

وانسحب عبد الملك مطأطىء الرأس ، بعد أن حمل آلاف الآلاف من الدنانير ، وصبيحة ترقب انسحابه ، وقد تدثرت بالحنق الشديد ، فقد قضى ابن أبى عامر على تدبيرها ، وقوض آخر أمل من آمالهـا ، فدب اليأس فى قلبهـا · كانت ترجو أن تنفـق الأموال فى تحطيمه ، وها هى ذى الأموال تحمل أمام عينيها من الزهراء الى زاهرته ، دون أن تستطيع أن تحول بينه وبينها ، لقد سلبها ابن أبى عامر أمضى سيف كان فى مقدورها أن تشهره فى وجهه ، فحق عليها أن تنزوى بعيدا فى بيت الأحزان ، تبكى اخفاقها وشخصها الذى هان ·

٥٥

أبل المنصور من مرضه ، وقد أهمتــه تلك القلاقل التى شبت فى قرطبة ، وألفى أن مجافاته للقصر كادت تورده موارد الهلاك ، فقد نجحت صــبيحة فى ايغار صدور الشعب عليه ، ولم تشفع له انتصاراته ولا ما قام به من اصلاحات ، وتمكنت من اغراء زيرى على اعلان عصيانه ؛ فهى خصم قوى أثار عليــه عاصفة عاتية ، كادت تجتــاحه ، وتقــوض أركانه ، لولا أن حالفه حظه فمرت بسلام .

وطأطأ بصره يفكر فيما ينتهجه ليأمن خطر المرأة المحبة ، التى ناصبته العداء ، فرأى أن يســتغل قوة تأثيره فى الخليفة ، وأن يعمل ما وسعه المكر والدهاء على أن ينتزع من الخليفة الضعيف تنازلا له عن كل سيطرة وســلطان ، فاســتدعى ابنه وســائر عظماء الدولة ، وانطلق الى مجلس الخليفة دون أن يذيع نبأ خروجه الى قصر الزهراء ، خشية أن تدخل صبيحة على ابنها تحذره وتبصره ، وتنفخ فيــه من روحهــا القوية ، فتستنهض نفسه الخابية فيتعذر على المنصور أن ينفذ ما يراوده من أفكار .

ودخل المنصور وابنه ورجال الدولة على الخليفة ، فأحس حرجا ، فقد كان يذوب فى غمرة الاجتماعات ، وماكان يشعر بالراحة والاطمئنان الا اذا خلا بنفسه ،

واستغرق فى عبادته ، وكان يحس تضاؤلا كلما وقع بصره على المنصــور المهيب ، وهو يدير الحــديث فى طلاقة وسحر وبيان ، كان يتطلع اليــه كطفل صغير لا حول له ولا سلطان ·

وخلا هشـــام مع ابن أبى عامر ، فراح الحاجب الرهيب يلف الخليفة ويطويه كيف يشــاء ويشكله ، وقال له فى عتاب :

ـ ساءنى يا مولاى أن تدبر المؤامرات لمناوأتى أنا الذى فعلت كل شىء فى سبيل توطيد ملككم ، والقضاء على مناوئيكم ·

فقال الخليفة ينفى عن نفسه تهمــة الاشتراك فى تلك المؤامرات :

ـ والله ما عــلمت بشىء ، ولا أمرت بشىء ، وأنا أقدر اخلاصكم لنا ، وما أديته للعرش من خدمات ·

ـ أرجف الشــــانئون بأنى أغتصــــب من مولانا سلطانه ، وحاشا لله أن يخطر على قلبى من ذلك شىء ، ولكنى أقوم بما أقوم به لأهيىء لمولانا فرصة التفرغ لعباداته ·

ـ ان ثقتى بك يامنصور عظيمة ، لا يزعزعها شىء ، وقد فوضت لك الأمر لما رأيت حســن غنــائك فى حفظ دولتنا ·

ـ يزيدنى اسعادا يا مولاى تنازلكم بتسطير ذلك التفويض ، قطعا لألسنة المتخرصين ، الذين يحسبون أنهم بسعيهم الخسيس يستطيعون أن يعكروا ما بينى وبين مولانا من صفاء ·

وغادر المنصور قصر الزهراء ، وقد نال مبتغاه ، وانطلق الى قصره ليبعث الى الأمصار اعتراف الخليفة بفضله ، وتفويضه اياه فى ادارة شئون البلاد .

وعلمت صبيحة بأمر ذلك التفويض ، فسقط فى يدها ، وانتابها قلق شديد ، ودارت الدنيا بها ، وأحست هما ثقيلا ، فقد قضى الأمر ، وتم لابن أبى عامر انتصاره ، لن تقدر بعد اليوم أن تغرى الشعب بأن يهب لينافح عن خليفة اعترف بعجزه ، ووقع بنفسه صك عبوديته .

ولم يكتف ابن أبى عامر بما ناله من نجاح ، بل أراد أن يشعر الشعب بأن خليفته عنه راض ، فأعد للخليفة موكبا هائلا ، لم تشهد قرطبة له مثيلا ، وهرع الناس الى الطرقات ، ليشاهدوا خليفتهم الذى طال احتجابه عنهم ، والذى لم يره كثير منهم ، وغصت المسالك بأكداس البشر ، وفتحت أبواب قصر الزهراء فانسابت الجند مواكب اثر مواكب ، فى ثياب رائعة ، وعدة حسنة ، تراس ملونة ، وحراب مرفوعة ، وسيوف مشهورة ، والناس يرقبون كل ذلك زائغى الأبصار ، فاغرى الأفواه ، فقد كانت الروعة تأخذ بالألباب وتحير العقول .

ولاح عبد الله بن المنصور ، حاجب الدولة الجديد راجلا يمشى ، وخلفه الخليفة هشام على فرس مطهم فى لبوس فاخر ، والى جانبه الملك الكريم ، المنصور العظيم ، يسايره ويحادثه ، منبسط الأسارير ،

فاشرأبت الأعنـــاق ، ورفرفت القلوب فى الصـــدور ، وفاض السرور ، فانطلقت الهتـــافات من الحناجر ، مدوية تشق عنان السماء ٠

واستقام الأمر للمنصور ، ولكنه لم ينس أن زيرى ابن عطية أعلن يوما راية العصيان ، وتأهب لنزاله ، فرأى أن الأوان قد حان ليبعث اليـــه جيوشـــا تنكل به ، وتجعله عبرة لكل من توسوس له نفسه الخروج عليه ٠

خرجت الجيوش لتأديب زيرى الذى لن يســـتطيع أن يعتمد على تأييد صبيحة له ، وخرج بنفسه لقتـــال الافرنج ، فقد كان يخرج للغزو شاتيا وصـــائفا ، انه قد تأهب ليخوض غمار أعظم معركة فى حياته ، ليقنع خصومه أنه لا يزال قويا يستطيع أن يقاتل وينتصر فى جبهتين فى وقت واحد ٠

وعادت جيوشـــه من افريقية بعد أن انتصرت على زيرى وقتلتـــه ، وعاد من غزوته العظيمة منصورا ، والأسرى وراءه يجرون ذيول الخزى ، ودخلت الجيوش المظفرة زاهرته السعيدة ، التى استعارت سعدها من سعده ، فما خرج منها زحف الا عاد اليهـــا ، وألوية النصر شامخة خفاقة ٠

٥٦

وكرت الأعوام ، وفى يوم من أيام الشتاء سطعت شمسه ، وأرسلت حرارتها الى الكون المقرور ، هبطت صـــبيحة الى حدائق القصر تلتمس الدفء اللذيذ ، وسارت الى مقعد الذكريات الذى قابلت الحكم عنده أول مرة من ســنين طوال ، حتى اذا بلغتـــه جلست مسترخية فى هدوء .

وأسبلت عينيها ، وألقت رأسها الذى كلله الشيب فى استسلام على صدرها ، وسرى الدفء فى جسمها ، فراحت صور الماضى تزحف الى ذهنها دون أن تنفعل لها انفعالات قوية تهزها ، فقد أطفأت السنون حرارة نفسها ، واستنفدت طاقتهـــا ، وباتت تحس نشـــوة خفيفة كلما أعادت ذكرياتها .

رأت نفسها فى شبابها ، وهى تملأ الزهراء بهجة ، وصوتها العذب ينســـاب حلوا ، فيضفى على الكون سحرا ، والحكم الولهـــان يرنو اليها هيمان كأنمـــا سكبت فى روحه خمرا ، وداعب أذنيها همس صـــوتها خافتا ، كأنما ينبعث من أغوار الزمن ، وغاصت تلك الصورة لتطفو على سطح ذهنهـــا صـــورة أخرى ، صورة ابن أبى عامر الذى أحبتـــه وهو يحرص كل الحرص على ارضائها ، وسرعان ما طمست لتقفـــز

الى رأسها صورته وهو خارج لقتل المغيرة مستجيبا لنظراتها ٠

واسترسلت فى تخيلاتها ، حتى رأت حبيبها وهو يغادر قصرها بعد زواجه من أسماء ، فلم تتحرك عقارب غيرتها ، ولم ينبض قلبها بالمقت ، فالسنون قد اقتلعت جذور الغيرة من صدرها ، وبخرت بخور الحقد من نفسها ، فما عادت تشعر الا بالحب ، وما باتت تبغى الا السلام ٠

وفكرت فى ابن أبى عامر بنفس طليقة ، واستعرضت فعاله ، وهى هادئة دون أن تكون متأثرة بفورات المطامع ، ومشاعر الشباب ، فاقتنعت بأنه أسدى الى ابنها والى البلاد أجل الخدمات ، كان العرش مزعزعا يحيط به طامعون أقوياء ، ويتهدده الأعداء ، فقام ابن أبى عامر يقضى على الطامعين فى الملك ، واحدا اثر واحد ، حتى استخلصه لهشام ، ثم هب ينازع الافرنج ، ويذود عن الحياض ، حتى أعاد الهيبة الى البلاد ٠

اذا كان قد اغتصب السلطة من هشام فقد كان له العذر ، فما كان هشام يحسن استغلال تلك السلطة لو وضعت بين يديه ، ان ابنها خائر النفس ، ضعيف الهمة ، لا يعرف الصمود للشدائد ، ومواجهة الصعاب ، فيا للطامة الكبرى التى كانت تحل بالبلاد لو خلى بينه وبين الأعداء ! ٠

وفكرت فى أن ان أبى عامر ان هو الا نبتة غرستها بيدها ، وتعهدتها ورعتها ، حتى نمت وأفاءت بظلها

على البلاد ، انه فعلة من فعالها الجليلة ، وحسنة من حسناتها ، التى ستذكرها لهـا الأندلس بالحمـد ، فاستراحت الى تلك الفكرة ، وطفقت تفكر فيها راضية منشرحة ٠

ودب الدفء فى جسمهـا ، فقامت تفحص عن حال المـدارس والملاجىء والمستشفيات التى كانت تشرف عليها ، فما كانت صبيحة النابضة بالحيوية تستسلم للدعة والخمول ، انها هجرت دنيا السياسة ، فراحت تعمل فى دنيا البر والاحسان ٠

## ٥٧

حمل المنصور أكفانه التى كان يحملها معـه كلما خرج للجهاد ، والصرة الكبيرة التى جمعهـا الخدم مما علق بوجهه من الغبار فى غزواته المظفـرة ، التى نيفت على الخمسين ٠ ورفع رأسه الى السماء ، وأخذ يدعو دعاءه الذى كان يبتهل به الى الله قبـل خروجه لغزو الأعداء :

ـ اللهم أمتنى فى سـبيلك ، واحشرنى فى زمـرة الشهداء ٠

وانطلق الى ميدان القتال يدك الحصون ، ويزلزل الأعداء ٠ وأحس مرضا يدب فى جسمه ، فصبر وتجلد واحتمل ، كانت المعركة حامية الأوار ، ولكن ما انتهت المعركة بنصره ، حتى شعر بوهنه ، وأصبح لايستطيع

أن يعتلى صهوة جواده ، فصنع له سرير خشب رقد فيه ، وحمل على أعناق الرجال ·

وقفل الجيش عائدا يبغى الوصـــول الى قرطبة ، ولكن اشـــتدت وطأة المرض على المنصـــور قبـل أن يبلغها ، فأنزلوه مدينة سالم ، وفكر فى أمر قرطبة ، فأهمه أمرها ، فبعث الى ابنـــه عبد الملك يســتدعيه ويوصيه بها · وأقبل عبد الملك ، فلما رأى أباه طريح الفراش ، هرع اليه ، وارتمى على صدره وأخذ يبكى ، فجعل المنصور يمرر يده على شعر ابنـــه ، ويقول فى نبرات ضعيفة :

ـ هذا أول الاخفاق ·

فأخذ عبـــد الملك يجاهد ليحبس تلك الدموع التى خانته ، وقال أبوه يوصيه بصوته الواهن :

ـ يا بنى لست تجد أنصح لك ، ولا أشـــفق عليـك منى ، فلا تتعـــدين وصـــيتى ، فقـــد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين يديك ، وقد وطأت لك مهـــاد الدولة ، وعدلت لك طبقـــات أوليائهـــــا ، وعايرت لك بين دخـــل المملكة وخرجهـــا ، واستكثرت لك من أطعمتهـــا وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الانفاق · ولا تقض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعا · فكل سرف راجع الى اختـــلال لا محالة ، فاقتصد فى أمر جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية اليـــك ، والرعيـــــة قد استقصـــيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن الى

لين الجنبة ، وصاحب القصر ، قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممـن يتـولاه ، ويلتمس الوثوب باسـمه ، فلا تنم عن هـذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء الظن ، وعاجل بها من خفته أقل تهمة ، مع قيـامك بحق صـاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأوليـائك بشيء يقيكم الحنث فى يمين بيعته ، الا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة . فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فانني أرجو أني واياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة ، والمـال المخزون عنـد والدتك هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقـام الجارحة من جوارحك ، التى لا تبذلها الا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك .

وطلب ثقات غلمانه ، فلما دخلوا عليه قال لهم :

ـ تنبهوا لأمركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبـد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ، ومواعيد من يطلب منكم شتاتكم ، وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى ، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكونوا كرجل واحد ، فانه لا يطمع فيكم .

وخرج عبد الملك الى قرطبة ، والناس بها يرجفون بموت المنصور ، وتوجه الى قصر الخلافة ، ودخل على هشام ، وأخبره أن المنصور فى مدينة سالم فريسـة لمرض عضال ، وعلمت صبيحة أنه فى مرضه الأخير ،

فأطرقت وشغلت بالتفكير فيه ، نسيت اساءاته وتلك الكئوس المريرة التى جرعها اياها ، ولم تعد تذكر الا أنه الحبيب ، ونكىء جرح قلبها ، فهفت نفسها الى أن تراه قبل أن يمضى ، فقد أخفقت السنون فى أن تمحو من قلبها حبه ، وغلبها وجدها ، فذهبت الى مدينة سالم لتودع من أحبته ، بكل جوارحها ، الوداع الأخير .

ودخلت عليه ، وقد انداح فى صدرها الأسى العميق ، كان ساكنا قد علاه الهزال ، وعيناه مسبلتين ، ونفسه مكروبا ، ودنت منه فأخذ قلبها يرفرف فى جوفها فى قوة ، كأنما استيقظ من سباته ، ومالت عليه ، فلم يشعر بها ، فأحست غصة فى حلقها ، وهتفت فى نبرات مرتجفة :

- محمد ... محمد .

وفتح عينيه ولكن سرعان ما أسبل جفنيه ، ورآها الى جواره ، فهمهم فى صوت لا يكاد يبين :

- صبح !

وأدامت النظر اليه ، فألفته يجود بأنفاسه ، فعما قليل يلفظ نفسا لن يشهق غيره ، ولم تطق رؤية الحبيب يموت ، فخرجت تفر من ذلك الحزن الثقيل ، الذى كان يهصر قلبها ، ويحرق كبدها .

وابتعدت وهى تغمغم فى لوعة :

- ويل للأندلس من بعدك يا منصور !

## للمؤلف

### الطبعة الاولى

| | | |
|---|---|---|
| أحمس بطل الاستقلال | قصة | مايو سنة ١٩٤٣ |
| أبو ذر الغفارى | | يوليو سنة ١٩٤٣ |
| بلال مؤذن الرسول | | مايو سنة ١٩٤٤ |
| فى الوظيفة | مجموعة اقاصيص | ديسمبر سنة ١٩٤٤ |
| سعد بن ابى وقاص | | يوليو سنة ١٩٤٥ |
| همزات الشياطين | مجموعة اقاصيص | فبراير سنة ١٩٤٦ |
| أبناء ابى بكر الصديق | | اكتوبر سنة ١٩٤٦ |
| الرسول ( حياة محمد ترجمة محمد محمد فرج ) | | يناير سنة ١٩٤٧ |
| فى قافلة الزمان | رواية | سنة ١٩٤٧ |
| أهل بيت النبى | | مايو سنة ١٩٤٨ |
| أميرة قرطبة | قصة | سنة ١٩٤٩ |
| النقاب الأزرق | قصة | مايو سنة ١٩٥٠ |
| المسيح عيسى بن مريم | | سنة ١٩٥١ |
| قصص من الكتب المقدسة | | سنة ١٩٥٢ |
| الشارع الجديد | رواية | سنة ١٩٥٢ |
| صدى السنين | مجموعة اقاصيص | سنة ١٩٥٣ |
| حياة الحسين | | سنة ١٩٥٤ |
| قلعة الأبطال | قصة | سنة ١٩٥٤ |
| المستنقع | قصة | ديسمبر سنة ١٩٥٧ |

الطبعة الأولى

| | | |
|---|---|---|
| أم العروسة | | يناير سنة ١٩٥٨ |
| وكان مساء | قصة | مارس سنة ١٩٥٨ |
| أذرع وسيقان | | يوليو سنة ١٩٥٨ |
| أرملة من فلسطين | مجموعة أقاصيص | سنة ١٩٥٩ |
| الحصاد | رواية | سبتمبر ١٩٥٩ |
| القصة من خلال تجاربى الذاتية | | سنة ١٩٦١ |
| جسر الشيطان | قصة | أكتوبر سنة ١٩٦٢ |
| ليلة عاصفة | مجموعة أقاصيص | ديسمبر سنة ١٩٦٣ |
| النصف الآخر | قصة | يناير سنة ١٩٦٤ |
| السهول البيض | قصة | يونية سنة ١٩٦٥ |
| وعد الله وإسرائيل | | يونية سنة ١٩٦٧ |
| عمر بن عبد العزيز | قصة | يناير سنة ١٩٧٢ |
| الحفيد | قصة | أكتوبر سنة ١٩٧٤ |
| هذه حياتى | ( قصة حياة المؤلف ) | فبراير سنة ١٩٧٥ |
| ذكريات سينمائية | | ابريل سنة ١٩٧٥ |

# القصص الديني

## ( للأطفال )

| | |
|---|---|
| قصص الأنبياء | فى ١٨ جزءا |
| قصص السيرة | فى ٢٠ « |
| قصص الخلفاء الراشدين | فى ٢٠ « |
| قصص العرب فى أوربا | فى ٢٤ « |

رقم الايداع ٢٠٠٦ / ٧٩
الترقيم الدولى ٨ ـ ٣٤٥ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٤٠ قرشا